

نوران سلاّم

رواية

الإعلامية

دار دوَن

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الإعلامية

روايـة..

نوران سلَّام

-1-

11 ديسمبر 2035

استيقظ باكرا كعادته، بعد السادسة بقليل. لا يفهم من ينامون إلى التاسعة والعاشرة ناهيك عمّن ينام للظهر. البركة في البكور. الكون في الصباح وليد طاهر مفعم بنفحات الدهر العطرة. النفْس عند الإشراق روح سرمدية تحلق بخفة في الفضاء، ثم تلوثها الشهوات فتثقل شيئًا فشيئًا وتحط وسط الطين الفاني.

كباب الأمس لا يزال طابقًا على نفَسِه. نصفه على الأقل لم يبرح المريء، الطرب بالذات كان حاميًا للغاية. لهيب الشواء الذي تراقص أمام عينيه بالليل فأسال لعابه يتراقص الآن في فم معدته فيحرق أحشاءه.

تحضره دائمًا في لحظات اليقظة الأولى صورة أبيه المدرس الأزهري وهو يتوضأ ليصلي الفجر حاضرا، ها هو الآن يتماثل أمامه وماء الوضوء عالق بأهدابه لا يزال، يتمتم "اللهم اجعلنا من عبادك التوابين واجعلنا من عبادك المتطهرين". وللمرة الألف بعد المليون يلعن ضعفه. شارف على الأربعين ولم يؤتَ الاصطبار على العبادات بعد.

كل كم شهر يرتدي جلبابه الأبيض ويتوضأ بالكثير والكثير من الماء بحيث تجري القطرات على مرآة الحمام وجدرانه وتلتصق بسقفه وأرضيته. ويخرج من الحمام كناجٍ من الغرق يخطو على الرمل مثقلًا بالماء الذي بلل ملابسه وراح يقطر من شعره ومرفقيه وأرنبة أنفه وشحمتي أذنيه وأطراف أنامله، يشهق ويحوقل ويبسمل ويهلل، ويقتفي البلل أثره عبر أرض الردهة فالصالة - فهو يصلي جهرة في قلب البيت لا متواريًا في غرفته. وعندئذ يرتدي الطاقية البيضاء المزخرفة ويمسك بالسبحة الطويلة التي اشتراها من أمام بيت الله الحرام بعد فصال طويل، ثم يخلع نعليه المبللين ويفرد سجادة الصلاة لأبعد مدى تصله يداه ويكبر بأعلى صوت تطيقه حنجرته فتجلجل تكبيرته في أركان البيت وينتهي إلى زوجته وابنه والجيران والبواب والقاصي والداني أن المنصوري البجلاتي قائم يصلي. وبأداء الفرض يكون حاز ذخيرة روحانية تبقيه راضيًا عن نفسه إلى حين.

الدين عنده يجمع مظهرية الكاثوليكية وطقوسها، وعملية البروتستانتية وترفعها عن ضرورة أداء العمل الصالح، وروحانية البوذية وفلسفيتها. بيد أنك لو قلت له ذلك في وجهه لاعترض وثار واعتبرك تكفره؛ فهو لا يمقت في الدنيا أكثر من الآخرين.

همس له صوت في مخيلته: ولم لا تقوم الآن؟ نحن فيها! ها أنت ذا، وها هو باب الحمام موارب تسهيلا عليك، والخفّ كما ترى أسفل السرير، عندما تنزلق من فراشك ستجد قدماك طريقها داخله لوحدهما. يغريه الصوت، وتتنقل عيناه بين الباب وبين الخفّ فيما عقله يستميت بحثا عن عذر. وأخيرا يجده: لقد أشرقت الشمس من دقائق، ولا فائدة في صلاة قضاء، فلا نجاة لمقصّر مثله إلا بصلاة فرض حاضر تليها أخرى فأخرى فأخرى.

يواسي نفسه فيذكرها أنه في غضون السنة سيبلغ الأربعين وعندها بمشيئة الرحمن سيصلي الفرض بفرضه. "حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ..." تتوه منه بقية الآية فيلعن عقله وينتابه احتقار عظيم للذات. ألا يمكنه أن يستحضر آية واحدة كاملة على بعضها فيستشهد بها أمام الناس؟ يا خسارة تعليم الكتّاب وعصا الشيخ وخيرزانة الوالد!

التقط هاتفه من تحت المخدة ففتح Linkzone ؛ موقع التواصل الاجتماعي الذي أزاح facebook عن العرش قبل نحو خمس سنوات وتربع فوقه. نظرة سريعة على صفحة كل طرف تؤكد له أنه لا تغيير والحمد لله، فالمعارضون معارضون والموالون موالون، وهو طبعا موالٍ، يشهد الله أنه بالعتبات واقف ُوللضريح ملامسُ وبتلابيب الرضا مستمسكُ. فأنى يُفتحُ الباب؟ أعجبته فكتبها في حسابه على Linkzone. تأمل الإعجابات التي بدأت تهطل فورا من مريديه وهم كثر.

صلاة أم لا صلاة. يجب أن يلبي نداء الطبيعة ويذهب إلى الحمام. فهل ثمة بد ممَّ ما منه بد؟ أعجبته تلك أيضا ففتح الهاتف من جديد وكتبها هي الأخرى على Linkzone.

ألقي نظرة على زوجته. بعد تسع سنوات زواج ما زال يتساءل كل صباح كيف تفادت الاختناق بالليل؟ وأنى لها التنفس والغطاء يحيط بها ككفن محكم؟ تضاريسها تحت البطانية سلسلة دورانات. يطيب له أحيانا أن يتخيل أنها ليست ممددة بجواره، أنها في الحقيقة تخرج ليلا فتهيم في المدينة مع مصّاصي الدماء وتضع مكان رأسها كرة قدم، من أسفلها كرة شاطئ، ثم إطار سيارة دفع رباعي، ثم طوليًا ماسورتين مسدودتين بكرتي رجبي، وتغطي ذلك كله باللحاف. لكنه يُستدعى بعنف من عالم الخيال بفضل شخيرها الذي يصل إلى ضريح أم هاشم وهو ليس ببعيد.

تذكر فجأة أن اليوم هو الثلاثاء وأنها لن تذهب للجامعة، فجدولها يخلو من المحاضرات. يا لحظّ طلاب مادة تاريخ الحضارات! ويا لحظّه هو التعس! حط عليه الغم وعزم على الخروج بأسرع ما يمكن.

تفرس وجهه في مرآة الحمام. هل ضاقت مقلتاه أم أن الشحم من حولهما علا فغاصتا حتى أوشكتا على الاختفاء؟ فكر في الاستحمام، فقد مر أسبوع أو أكثر، لكن الدنيا برد، ومن الأفضل أن يؤجلها لبعد الغد عندما يعود رئيس التحرير من السفر. رفع ذراعه وتشمم ما تحت إبطه فوجد الأمر محتملًا. اكتفى ببخّة من مزيل عرق وزخّة من العطر الذي ابتاعه في رحلته المدفوعة بالكامل لدولة خليجية شقيقة، شقيقة جدا وسخية للغاية.

غسل وجهه وفرّش أسنانه ومشّط ما بقي من شعره ثم ألقى نظرة أخيرة على المرآة ولم يتمالك نفسه من الابتسام. هيئة مذيع هذه أم ليست هيئة مذيع يا عالم يا هوه؟!

تحولت الابتسامة لضحكة. هل يصلح بدين نصف أصلع مثله مذيعًا؟! ولكن لم لا؟ ثمة فلان وعلان، وهو لا يقل عنهما ثقافةً ولا حضورًا ولا ولاءً للنظام! ثم إن الكتفين عريضان والعضلات ناتئة رغم الشحوم. والأسنان بيضاء مكتملة العدد ستغفر الكاميرا تباينها وتنافرها في كل الاتجاهات. أما الشعر، فصحيح أنه يقتصر أساسا على الجانبين لكن لا تزال هناك خصلة سوداء تنتصب صامدة في مقدمة الرأس كنقطة حراسة على تخوم صحراء جرداء. الوجه بيضة ديناصور حجمًا، وبيضة مسلوقة

مقشرة لونًا. بياضه شاهق شهقت له نسوة قريته الصعيدية لمّا ولد. ومن يومها وقع في وجدان أمه أنه خفيف النجم مثار للحسد. تذكر وصيتها:

"كل ما تشوف نفسك في المراية اقرا سورة الفلق تلات مرات! العين مش سايباك يا وليدي! مستكترين عليك جمالك وشبابك!"

نفذ وصية أمه وعندما عاد للغرفة لمس بركة البكور في أزهى صورها: فزوجته لا تزال تغط، والهاتف المحمول تلقى اتصالا من معد البرنامج الصباحي إياه، يقصده حتمًا ليحل ضيفًا عليهم في الاستوديو. خرج من الغرفة وحدثه واتفقا. قبل انقضاء الساعة سيكون هناك. فاصل قليلا في المكافأة كما يفعل غيره حتى لا يشك الرجل. لا يجب أن ينتبه أحد لمدى تلهفه للظهور في البرامج من هذا النوع. ولو طلبوا منه الحضور مجانا لفعل. فالمشوار طويل وما صدّق أن عرفت قدماه الطريق.

اختار البدلة الرمادية والقميص الأزرق ذا الياقة البيضاء. دفع ذراعه في الكم الذي ضاق باطراد على مدى العام المنصرم فانبعثت من تحت إبطه نفحة خبيثة تجاهلها. من نعم السماء أن التليفزيون يظهر الناس لامعين أنيقين ولا يشي برائحتهم.

لمح شاشة الهاتف المحمول تنير على الكومودينو بوصول رسالة جديدة. رقم لا يعرفه.

"عرفت إنك بتحب الصحيان بدري زي حالاتي، قلت أصبح. سعيدة إني أشتغل مع الأستاااذ المنصوري البجلاتي وأتعلم منه. لمياء النجار"

صاح رغما عنه: "يا بنت الإيه!" تمالك نفسه فورا وصفع فمه بكفّه ورمق النائمة فوجدها لا تزال كذلك. داهمه تفاؤل وإثارة لم يشعر بمثلهما منذ أمد! أخيرًا سيعمل مع مذيعة تصغره سنا وتناديه بأستاذ بل وتقول إنها ستتعلم منه. رغم رعبه من المذبحة التي سترتكبها حتمًا أمنا الغولة عنما تعرف بنبأ طردها لكنه الآن يجد نفسه مرحًّبا بالمذابح! بل يا أهلا بالحروب إذا كانت ستخلصه من الشمطاء الجاثمة على قفصه الصدري وأقفاص المشاهدين منذ عام ألفين، قبل خمسة وثلاثين عاما كاملة من اليوم!

راجع الرسالة مرة أخرى كي يتأكد إن كانت المدعوة لمياء أضافت ألِفًا واحدة أم أكثر في وسط كلمة أستاذ فوجدها أضافت ثلاثة!

نادى زوجته مرغما. إذ ليس معقولا أن يخرج دون علمها: "سميحة، سميحة."

زمجرت تحت الغطاء بما يعني أنها سمعت وأنها مستاءة لذلك.

"أنا نازل"

"هفهفههففف؟"

"الساعة داخلة على سبعة"

"هفففهفههههفففف؟؟"

"بدري آه لأني رايح التليفزيون. هاطلع في "أحلى صباح"".

وهنا أطيح باللحاف جانبا وظهر الرأس الأشعث وراح من الصوت الأجش كل أثر للنعاس:

"سيب فلوس الشغالة والمدرس"

"حاضر. هاسيب خمسمياية"

"باكو يا بجلاتي واصطبح"

صفع الباكو على الكومودينو ونزل ساخطا. يناديه أسياده بجلاتي ورجاله الأستاذ البجلاتي - ولكن أن يناديه بها أيضا الكائن الوحيد في الكون الذي يفترض أن يدعوه باسمه الأول، هذا والله كثير!

خرج من العمارة بخطوة خفيفة لا تتسق مع وزنه الثقيل. انزلق في المقعد الخلفي من السيارة فتأوّهت تحته، واتخذ قراره الذي يتخذه كل صباح - وينساه قبل الظهر - بأن يبدأ حمية جديدة.

وقبل أن يعلن وجهته للسائق الذي توفره له القناة - فهو في الجريدة مدير تحرير ليس إلا - تلقى اتصالًا من صلاح البرنس يقول إنه بينما كان يقبض راتبه من الجريدة هذا الصباح رآه شخص حشريٌّ فسأله عمّ يفعل هناك. يعني على أساس أن البرنس استقال من الجريدة وانتقل إلى أخرى منذ سنة وهكذا. بطبيعة الحال انزعج البجلاتي ولكن ليس كثيرًا. لقد أحسن البرنس التصرف؛ قال إنه يقبض مكافأة متأخرة. وحتى لو لم يبدد رده هذا شك سائله فلن يحدث شيء. إن البجلاتي يعرف ذلك الحشري جيدًا. روحه في يد البجلاتي. يريد منه أن يعين زوجته في الجريدة وأن يرفع راتبه. لن يفتح فاه. أمر البجلاتي البرنس أن يبعث بنصف ما قبض على البيت كالعادة ثم أنهى المكالمة.

قال السائق:

"صباحنا عنب يا ريس. على فين النهارده؟"

"ماسبيرو، وبعدين الجرنال، وبالليل مدينة الإنتاج "

"باشا! أنا باحجز من دلوقت ماحدش هيوصلك المولد الأسبوع الجاي غيري!"

"إنت شغال خطاط بعد الضهر يا بني؟"

"إشمعنى؟!"

"أصلك معلم في التخطيط لقدام!"

"هآاو! أمال إيه يا باشا؟ ده مولد سيدنا ابن حفيد النبي!"

"شي لله"

"وهتأكلني لحمة راس يا ريس!"

"مدد يا أهل بيت النبي! المحسنين كتير يأكلوك ويأكلوني! افتح لنا بقى شوية قرآن كده بس خد بالك! من بتوعي! بلاش المقرئين الخلايجة اللي بتشغلهم كل مرة"

"مش باسمّعك الجديد يا ريس!"

"مش طالبة وهابية يابا، آاايوه عباسط تمام قوي، علّي بقى سيكا وسيبني أتسلطن. واقَف عند أم كريم، اشتري كل الجرايد".

****

-2-

الثالثة عصرًا هو الصباح الباكر بالنسبة لـ (شكر الله) . في ذلك الوقت يستهل يومه الذي لا ينتهي قبل شروق شمس اليوم التالي.

لذا، ففي حدود الثالثة عصرا دخل مكتبه الصباحي: الحمّام. فتح الراديو على إذاعة "الزمن الجميل" التي لا تبث إلا أغاني قديمة، محمد منير، محمد حماقي، والأهم من الكل معشوقه عمرو دياب. جلس على قاعدة المرحاض وأشعل سيجارة ثم أجرى أولى مكالماته لليوم: السائق.

"هاه؟ وصلت عند الأستاذة؟". قبل أن يأتيه رد أتته أوركسترا أبواق غاضبة ثم علا زعيق السائق:

"المحور واقف يا شيكو! لسه بدري ماتخوِتش أمي!"

أنهى (شكر الله) تلك المكالمة وأجرى التالية؛ أكد له الكوافير أنه موجود وجاهز. تشكك طبعا شكر الله أن يكون هذا هو الحال، فالمعتاد أن يغيب الحد الأدنى من المصداقية في كل ما يخرج عن تلك الأفواه الملاوعة. لذا باغته متسائلا:

"يعني إنت فين دلوقتي بالضبط؟"

رد الكوافير مستاءً: "بالضبط بالضبط يعني؟ قاعد مرزوع قدام أوضة الأستاذة!"

"إنت هتشتغلني؟ مافيش كراسي قدام أوضة الأستاذة!"

"متنيل مستربع على الأرض يا شيكو. رابع بلاطة بعد قصرية الزرع. تحب أتصور وأبعت لك واطس؟"

"وليه لأ؟"

هُيئ لشكر الله أن ينهض؛ فقد قُضي الأمر وقضى حاجته. لكن الجلسة مغرية! قرر إجراء مكالمة أخيرة فعاود الاتصال بالسائق الذي - وكما هو متوقع - بادره صارخا:

"يا بني أنا لحقت؟ إنت بتكلمني كل دقيقة!"

"أيوه يعني وصلت فين؟"

"اتحركت عشرة متر يا شيكو! عليا النعمة لو كان حد غيرك اللي بيعمل معايا كده..."

أسِف شكر الله لعدائية السائق تجاهه وهو الذي يؤدي عمله فحسب. أنهى المكالمة واتصل بدلا من ذلك بالماكيير وسأله: "وصلت يا نجم؟"

تهادى له صوت الماكيير باردا بطيئا كالعادة، هادئا لحد الاستفزاز. رد مغمغما:

"يعني. تقريبا. مثلا"

"صوت مين اللي جنبك ده؟ يخرب بيتك إنت لسه شغال في مذيعة النشرة؟"

"آه يا شيكو لسه شغال. فاضل بتاع خمس ساعات. بطل قلق"

"خمس ساعات إيه؟ الأستاذة على بوابة المدينة. قصدك خمس دقايق"

"الأستاذة في بيتها يا شيكو. زي ما إنت كده في بيتكوا وتلاقيك قاعد فوق الحمام كمان. وعمرها ما بتيجي قبل الساعة تمانية. الشويتين بتوعك دول ياسطى تعملهم على السواقين اللي بتلطعهم قدام بيتها لحد ما تجهز. إنما أنا بقى ماباتلطعش!"

الوغد! شحن شكر الله صوته بأقصى نبرة تهديد ممكنة وتوعد:

"لو الأستاذة جات وما لقيتكش واقف قدامي زنهار اعتبره آخر يوم ليك معانا. أنا قلت لك أهو!"

نهض أخيرا وشد حبل السيفون. كالمعتاد أمعن في الجلوس فنمّلت ساقه، استند على الأخرى لحين يتبدد الخدر السمج وراح يغتسل. قضى ربع ساعة في هوايته الأولى: تصفيف شعره وتدليله وتعهده بالرعاية كما يستحق.

سمع زوجته وابنتيه يدخلن الشقة عائدات من المدرسة فتمهل برهة في الحمام كي يعظّم إنتاجيته الصباحية في خلوته الثمينة هذه. اتصل مجددًا بالسائق ومجددًا صدحت أبواق غاضبة وضجيج مطابق للمرة السابقة. رغم ذلك سأله: "وصلت يا فنان؟". لم يأته سوى رزع وخبط وكأن المحمول ارتطم بشيء ما. ثم انقطع الاتصال.

فهم شكر الله أن السائق على أغلب الظن قذف هاتفه عمدًا. لا بأس. خرج من الحمام وطلب من زوجته إفطاره المعتاد من الفول بالبيض. توسط الأريكة تحت نظر تمثال السيدة العذراء المنتصب على الجدار وشرع يأكل وهو يستمع بلا تركيز لثرثرة البنتين.

وافق كعادته على كل طلباتهن مفنّدا احتجاجات زوجته بأن ذلك سيفسد خطط المصيف. أجابها ببساطة: "يا ستي إحنا فين والمصيف فين؟ إحنا في عز الشتا! ربك هيرزق!"

قام فارتدى ملابسه وهو يعجب لأمر امرأته، كيف له أن يرفض طلبا لأعين صغيرة بريئة تراه مهندمًا معجبانيًا لا يبخل على نفسه بشيء؟! ملابسه من أفخر الماركات؛ Burberry، FAdobe Arabicdi، Louis Vuitton. ليست أصلية بطبيعة الحال بل وليست تقليدًا. فعلاقتها بدور الأزياء الآنفة الذكر تنحصر في استنساخ علاماتها التجارية ولصقها على الملابس، لكنها تظل مكلفة. يناديه منادٍ كل كم شهر فلا يملك من أمر نفسه شيئًا، يذوب محمومًا في أزقة العتبة والموسكي ولا يخرج إلا وقد انحسرت الحمّى وتكدست الخزانة وخوت المحفظة.

اتخذ مقعده في الميكروباص أميرًا وسط عاديين، خالدًا بين فانين، نموذجًا لمفهوم الجوهرة في الوحل. رغم سنواته الثلاثين لكن شعره في لون الفضة المسيّلة وفي نعومتها، حبال من رماد مصقولة طويلة يمشطها للوراء فتعكس قمة رأسه الضوء على الدوام من الشمس نهارًا أو المصابيح ليلًا. قد تتمرد خصلة فتتسدل على جبهته وتظل تقفز وتثب وتعلق بأهدابه إلى أن يرفعها بحركة لا شعورية، غير واعٍ لتأثير ذلك على من يراه رجلًا كان أم امرأة، تأثير يتراوح من الإعجاب إلى الحسد إلى الانجذاب.

ورغم سنواته الثلاثين لكن وجهه أملس تماما، خالٍ من كل شبهة تجاعيد، مشدود كغشاء الدّف. لم يرفع الزمن التكليف مع شكر الله كما فعل مع أقرانه، لم يحدث حتى الآن أن أخطأ الزمن فنسي خطًا من خطوطه فوق صفحة وجه شكر الله ثم مضى.

تحيّر كثيرون - أولهم زوجته التي كثيرًا ما يظلمها الناس فيظنونها أمه - في سر صفاء وجهه. أتكون خلايا جلده توقفت عن المشيخ في نقطة ما من طفولته؟ أيكمن السر في مهنته؟ لقد امتهن شكر الله وظيفة المساعد الشخصي منذ باكورة حياته العملية فاتضح أنها تلائمه كالقفاز المحكم. وقد يكون ثمة ناموس في كوننا هذا يقضي بأن يهتم المساعد الشخصي بهموم من استأجره قبل همومه هو، وقد يكون ثمة ناموس آخر يقضي بأن هموم الآخرين لا يحق لها أن تحفر آثارًا في الوجه.

له شعر شيخ ووجه طفل، وقد جعل منه هذا التناقض كائنًا مبهرًا. وله فوق هذا وذاك طبع مهذب وأدب جم وصوت خافت، اجتمعت كلها لتجعله محببًا من النفوس.

لمحه سائق الميكروباص في مرآته فصاح: "شغل يا بني عمرو دياب خلي زعيم الديابية ينبسط!"

رفع شيكو كلتا يديه وهتف: "تشكر يا رياسة!" وعلى أنغام معشوقه واصل ماراثون اتصالاته اليومي. حان الآن دور البوفيه.

"آلو أيوه يا سمعة. درينك الأستاذة جاهز؟"

"بنعصر الأناناس آهو. كريمة جوز الهند كانت خلصت وبالف عليها من إمبارح والنعمة! البكلاضة دي معقدة قوي!"

"اسمها بينا كولادا ماتفضحناش. المهم لقيت اللي ناقصك؟!"

"لقيته يا شيكو لقيته. يا ساتر ده انت داء!"

سمح لبعض الوقت بالمرور قبل أن يعاود الاتصال بالسائق الذي فتح الخط ولم ينبس بحرف.

لا آلو ولا أي شيء آخر. سأله شكر الله:

"وصلت؟"

"اتهببت"

هرع لغرفة الأستاذة فأشرف بنفسه على عمال التنظيف. طبع إيميلات الأستاذة وأفرغ رسائلها الصوتية المسجلة على هاتفها الأرضي. لم يفته ملاحظة أن ما ورد اليوم لا يزيد على أربع عشرة رسالة. وتذكر وقت كانوا يتلقون مائة! فتح صفحة الأستاذة على Linkzone واطمأن أن المتابعين لا يزالون فوق المليون. محا بعض التعليقات غير اللائقة، ببساطة كل ما يحوي عبارات على شاكلة "ماما ستو" أو "مرضعة قلاوون" أو ما شابهها. في سرّه منح جائزة تعليق اليوم لشخص يدعى (سبايكي) كتب:

"وأنا في الإعدادية عملت صفحة على الفيسبوك الله يرحمه سميتها مليون لايك عشان نطلع (فكرة) معاش. ماكنتش أعرف إني هاتخرج وأقعد في البيت سنتين والبت اللي باحبها هتتجوز غيري وتخلف عيلين ولسه الولية مطرحها!"

بقيت نصف ساعة. مرّ بغرفة الإعداد واستعلم عن ضيوف الأستاذة الذين سيعبئون وقت البرنامج لحين وصول الضيف الأساسي للّيلة: فخامة رئيس الوزراء. ثم نسق مع الستايليست ملابس وإكسسوارات الليلة كما حددتها الأستاذة.

ربع ساعة. عاد لغرفة الأستاذة ووضع منشفة صغيرة في جهاز التعقيم وضبط الحرارة على خمسٍ وسبعين مئوية - ستحتاجها الأستاذة لتنظيف بشرتها بعد المشوار الطويل من الزمالك إلى السادس من أكتوبر. ثم نقع منشفة أخرى في صحن ماء ورد وأضاف ثلاثة مكعبات ثلجًا ووضع الصحن في الثلاجة - هذا لإغلاق مسام البشرة بعد التنظيف. تأكد بالمرة أن زجاجة الويسكي في باب الثلاجة لم تفرغ بعد.

خمس دقائق. رشّ معطر هواء برائحة الفل وشغّل أسطوانة من مجموعة الأستاذة، وقع اختياره اليوم على أوبرا Figaro. وصل الكوافير والماكيير وفي أعقابهما جاء عامل البوفيه مهرولًا يحمل صينية عليها كأس البينا كولادا، ووقف الثلاثة صفًا أمام الغرفة.

دقيقة واحدة. خرج شكر الله لاستقبال الأستاذة عند الباب الخارجي. توقفت السيارة وقفز السائق ليفتح الباب الخلفي بيمناه، وفي يسراه - الأقرب لشكر الله - لمع هاتف محمول صغير وقد تهشم زجاج شاشته تماما.

ثم نزلت الأستاذة. جالت نظرتها يمنة ويسرة، نظرة وجيه يتفقد ما يملك من الحجر والبشر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-3-

منذ الصباح وهي تشعر بانقباض وكأن شيئًا فظيعًا يوشك أن يحدث؛ وكأن العالم يوشك أن ينهار. بل الأفظع: وكأن العالم يوشك أن يفطن لزيفها.

لكنها نحّت الخاطرة جانبا، فقد أتتها كل يوم بانتظام عبر العقود الثلاثة المنصرمة ولم تتحقق قط.

قبل الظهر صرفت مدرب الرياضة متعللة بمزاج متعكر ورقبة متشنجة. توجهت بعدها للحمّام وغاصت حتى ذقنها في مغطس الجاكوزي. الحقيقة أنها لم تعد تطيق من أصناف الرياضة إلا اليوجا. رحم الله جهاز الجري الذي تحول عبر السنين لجهاز سير ثم شماعة ملابس، ومجموعة رفع الأوزان التي كانت تستخدم أكثر من الهاتف المحمول والآن لم تعد يعرف لها طريق، وتمرينات البطن من أجل أن ينسدل البليزر في خطوط مستقيمة بلا انبعاجات أمام عين الكاميرا الضاغنة. قوامها في الواقع لا يزال مبهرا، عدا بعض التيبس هنا والتصلب هناك هو مقبول جدًا بالنظر لعمرها.

التقطت مرآة وتفحصت جبهتها، لم يمر على آخر بوتوكس سوى ثلاثة أسابيع ولا يجب أن تكون التجاعيد غائرة هكذا. غرابٌ حاقد غرز قدمًا بجوار كلٍ من عينيها لأعمق دركٍ أدركه قبل أن يطير إلى حيث يطير الحاقدون. أي طبيب بوتوكس يحترم نفسه لا يقبل تكرار الحَقْن قبل انقضاء ثلاثة أشهر والحمد لله أن الدكتور جرجسيان ليس من هؤلاء، فالرجل لا يحترم إلا الكريديت كارد. ستأمر شيكو أن يحجز موعدا.

أعادت المرآة للرف فارتطمت ذراعها بجدار المغطس وأحست بوجود الحمصة لأول مرة منذ شهور. مدت أصابعها بتوجس فتحسست أسفل الإبط؛ ها هي ذي: الحمصة اليابسة الحائرة المحيّرة التي لا تظهر لسواها. خفق قلبها بعنف وأحست ببرودة تجتاح جوفها. فكرت أن تذهب للطبيب من جديد، لكن أطباء السرطان في مصر عن بكرة أبيهم لم يعودوا يأخذون (فكرة عَـلَم الدين) على محمل الجد. أوشكت أن تنادي الخادمة لتتفحصها، لكنها تخيلت خيبة الأمل في عين دكتورة ضحى عندما تروي لها. أغمضت عينيها وأخذت نفسا عميقا. أحصت un. deux. trois. quatre ثم أطلقته. استدعت وقتًا جميلًا من مخزونها الذي نصحتها الدكتورة أن تبقيه جاهزًا: هذه المرة اختارت ذكرى زيارتها ووالديها حديقة كبيرة في سويسرا، كانت في العاشرة وكانا في ذروة الشباب والصحة، متدثرين ثلاثتهم بمعاطف وقفازات وطواقٍ والثلج يهطل كالقطن. تعلم أن جمال هذه الذكرى منقوص. فهي تنتهي بأمِّها تتحسس بطنها فرحًا بحركة الوافد الجديد، الوافد الذي سيقتل أمها وأباها حسرة قبل أن يقضيا نحبهما حقًا في حادث سير. لكن فكرة فتحت عينيها قبل تلك اللحظة فتوقف الشريط. فقد كانت تعليمات الدكتورة واضحة: وقت جميل. وقت لا تشوبه شائبة.

خرجت من الجاكوزي وتناولت غداء من سلطة الطماطم الأورجانيك بالأفوكادو والريحان ومعها كأس نبيذ أبيض. تأكل وحدها بلا رفيق سوى Linkzone. على شاشة هاتفها كل الناس سعداء. متجمعون. مرحون. يتباهون بحيواتهم التي لا تخلو لحظة واحدة فيها من الإثارة. صور تثير الأعصاب. قالت الدكتورة ضحى في جلسة العلاج الماضية: لا Linkzone لمدة شهر. هذا أن فكرة شكت من أن تصفحه يصيبها بوحدة تعتصر القلب. دقائق معدودة في معيته تغلف أحشاءها بورقة

ألمونيوم مثلجة تخترقها الدبابيس. قالت الدكتورة يومها شيئا من أغرب ما يمكن: تدّعي أنه خلف الابتسامات والتجمعات الكل يرتعد. الكل وحيد. ثم أضافت: "شوفي دفتر مواعيد العيادة. إحنا محجوزين سنة لقدام"

نهضت تستعد للخروج. سترتدي ملابس الهواء في غرفتها بالقناة، لكنها ستلبس الآن ما تحت ذلك. لا يمكن أن تواجه العالم بلا فرسانها الثلاثة الذين تستوردهم خصيصا من فنلندا: مشدات الصدر والبطن والمؤخرة التي تدعم جسدها في معركته الخاسرة ضد الجاذبية الأرضية، تُحوِّل خواءه لاكتظاظ، وبوصلة قطاره من الجنوب إلى الشمال. انتهت وتأملت جسدها في المرآة. من قال إن عصر المعجزات انتهى؟!

وصلت سيارة القناة. إلينترا رثة. سبق وفعلوها فما كان منها إلا أن أعادت السائق من حيث أتى وجلست في بيتها حتى أرسلوا الشيروكي المعتادة. من المنطقي لصاحب البورش أن يتنازل فيركب الشيروكي، أما وإلينترا؟! هنا ينتحر المنطق.

لكنها اليوم ستركب. ليس انصياعًا للإهانة بل مراعاة لخصوصية اليوم.

ففي حلقة الليلة تستضيف رئيس الوزراء وهو ما لم يحدث منذ أربعة أشهر. على مدى مشوارها لا يظهر رؤساء الحكومات المتعاقبة على مصر إلا في برنامجها، من يريد الحديث للشعب المصري يظهر في "والله فكرة!" البرنامج الحواري الأول في مصر بل والعالم العربي. تعللت إدارة القناة أن هذا الرجل الجديد نادر الظهور زاهد في الأضواء، وتظاهرت هي بقبول العلة رغم أنه ظهر ثلاث مرات في ولايته التي لا تتعدى الأربعة أشهر، أولها معها ثم مرتين في قناتين منافستين.

ركبت الإلينترا وهي تتأفف وأسمعت السائق ما يليق بدابته البالية. ثم اتصلت بشيكو وأسمعته ما يشابه. أمعن في الاعتذار وأقسم بحياة بناته أنها لن تتكرر، وأن السبب هو غياب مسؤول حركة السيارات المعتاد وحلول بديل لا يفقه شيئا.

أدهشها صمت الهاتف في يوم كهذا. عادة يمطرها رئيس التحرير ثقيل الظل المنصوري البجلاتي بالاتصالات لتنسيق مقابلات مع ضيوف أقل شأنا بكثير من رئيس الوزراء. فما باله خَرِس اليوم؟ ألا تكون نائبة حلت به فقصفت عمره وأراحتها وإياه؟ اتصلت هي به وأمرها لله.

والله وجاء اليوم الذي تتصل فيه فكرة علم الدين بحثالة كالمنصوري البجلاتي!

الجرس يرن ويرن ولا رد. عاودت المحاولة ثلاث مرات. لا رد!

والله وجاء اليوم الذي تتصل فيه فكرة علم الدين بحثالة كالمنصوري البجلاتي، فلا يرد!

هذا السمج. هذا الصعلوك الذي لا يعدو مدير تحرير في صحيفة خاصة. هذا الأمنجي السوقي الفج الأشبه ببلطجية الملاهي الليلية شكلا ومضمونا، لولا أن اللواء الشربيني بنفسه اتصل بها ورجاها قبول تعيينه لما رضيت أبدا.

وأخيرا وصلت. أوقف حراس مدينة الإنتاج الإعلامي السيارة ليتأكدوا من هوية الراكب. تفهمت الأستاذة الأمر؛ فهم معتادون على قدومها في الشيروكي! بمجرد أن فتحت نافذتها ورآها الحارس

أشار للسائق أن تفضّل، لم تستغرق المسألة كلها إلا دقيقة. لكنها كانت كافية لتلقي امرأة ثلاثينية بنفسها على نافذة الأستاذة المفتوحة وهي تولول:

"يا أستاذة فكرة. إحنا مستنيين من النجمة ومش راضيين يدخلونا. أبويا جايلك ومعاه الإشاعة بتاعة صدره. حالته متأخرة قوي."

تراءى خلفها مسن ضامر يرتدي جلبابًا باهتًا ويحمل مظروفًا كبيرًا عليه اسم مركز أشعة معروف، بينما تسحبه من يده امرأة في عباءة سوداء. انطلقا في الدعاء سويًا وهما يهرولان صوب السيارة؛

"إلهي ما يرقد لك جتة. إلهي يكفيكي شر المستخبي."

صاحت فيهم وفي السائق، في الجميع:

"إيه شغل الشحاتين ده؟! وإنت لسه واقف؟ اطلع فورا! إزاي يسمحوا للأشكال دي تيجي لغاية هنا وتكلمنا؟"

شرعت في غلق النافذة لكن الابنة صفعت يديها فوقها وزجّت وجهها الشاحب داخل السيارة. شفتاها مشققتان مقززتان وحجابها الأحمر مربوط بشدة بحيث يجحظ وجهها منه كبالون يكاد يفرقع. صرخت:

"ليلاتي على الله بتقولي إنك بتساعدي الغلابة. مش لسه قايلة إمبارح اللي محتاج علاج يجيني؟! حتى بالأمارة قلتي ده واجبنا!"

ضغطت الأستاذة الزر فارتفع الزجاج إلى أن اضطرت الابنة لسحب يديها. انشقت طبقات الجلد الميت على شفتيها عن قطرة دم مكتنزة في حمرة الحجاب. قلب المنظر معدة الأستاذة رأسا على عقب. صَرَخَتْ الابنة:

"منك لله ده احنا طالعين من منيا القمح وش الفجر!!"

زعقت الأستاذة:

"أشكال زبالة!"

مضت السيارة مشيعة بلعنات الفتاة وأبويها، سباب بكل تأكيد لكن حاسة السمع عند الأستاذة - لحسن الحظ - انتقائية. طالعت السائق في المرآة لتقف على رد فعله هو الآخر لكنها وجدت وجهه جامدًا خاويًا من كل تعبير. راجعت ما حدث واطمأنت أن الفتاة لم تلمسها مما هدأ روعها كثيرا. أجرت تمرين التنفس للمرة الثانية اليوم وذكرت نفسها أن هذه الواقعة لم تكن الأولى ولن تكون الأخيرة، فهناك دومًا من سيصدق الترهات التي يضطر المذيع لقولها رضوخًا لإملاءات الوكيل الإعلاني.

وسرعان ما انفرج فمها عن الابتسامة المعهودة، ابتسامة دخول مدينة الإنتاج، فهذا المكان بيتها، ملاذها الآمن. الوطن أن يهب رجل الأمن واقفًا بمجرد أن تلوح الشيروكي في الأفق. المأوى أن يهرول السائق ليفتح لها الباب. المستقر أن يخرج لاستقبالها فريق الإنتاج بعدته وعتاده.

سارت فكرة لغرفتها وسط جيش المساعدين وعندئذ رأتها، تقف خارج غرفة فكرة بنهدين منتصبين كقاذفة صاروخية مزدوجة، وعينين داكنتين متوثبتين يظللهما حاجبان حقيقيان، حاجبان من شعر بشري، لا وشم محقون في الجلد حقنًا، ووجه قبّلته الشمس، وبشرة غضة تلمس بعينيك طراوتها، وشعر أسود أملس يدغدغ خصرا دقيقا، وجذع مديد مديد، وساقين لا متناهيتين، وهيئة منيعة لا غالب لها. كرهَتْها فكرة على الفور.

بادرتها ذات النهدين:

"ده أهم يوم في حياتي"

ثم تابَعَت بينما فكرة تدخل الغرفة، وهي تخلع المعطف وتجلس في الكرسي:

"فكرة. علم. الدين. مش مصدقة إني شايفاكي وجها لوجه! باشوف برنامجك من وأنا طفلة، جدو وتيته مش بيتفرجوا على غيرك. إنتي اللي حببتيني في الميديا"

رمقتها فكرة من طرف عينها وهي تدعك وجهها بالمنشفة الساخنة فالباردة وترتشف البينا كولادا ثم تستسلم للماكيير. اعتادت المعجبات والمعجبين عبر مشوارها ولكن هذه! كيف وصلت هذه إلى هنا، إلى داخل مدينة الإنتاج؟ داخل القناة؟ داخل غرفتها؟

لكن فكرة مشغولة بما هو أهم. نفحتها الابتسامة التي تخصصها للمعجبين والتي تتألف من مزيج من التكرّم والشفقة وسألتها:

"تحبي تتصوري معايا؟ أمضي لك أوتوجراف ma chérie؟"

لكن الفتاة أجابت:

"أبدا، باسلم عليكي وبس، أنا وجيلي كله اتعلمنا كتير قوي قوي من مجرد الفرجة عليكي"

وهبتها فكرة ابتسامة ثانية مستنسخة من سابقتها ثم نسيت أمرها فورا. تحولت لشيكو قائلة:

"اتصل لي بأي حد من الإعداد حالا، البجلاتي أو أي لطخ غيره، عايزة سكريبت رئيس الوزرا وميبتنج عشان نتناقش في المحاور"

"أوامرك يا أستاذة. آلو. جمعة؟ الأستاذ البجلاتي فين أمال؟ اجتماع في مكتب رئيس القناة؟"

تبادلت فكرة وشيكو نظرة استغراب. عادة تُدعى هي لمثل هذه الاجتماعات بينما يقف المنصوري البجلاتي لدى الباب يستجدي منها ومن بقية الخارجين نصف معلومة عما دار بالداخل. واصل شيكو الحديث:

"طيب بالنسبة لمقابلة رئيس الوزرا الأستاذة عايزة السكريبت فورا و... إيه؟! بتقول إيه؟! لا ماحدش بلغنا! طيب طيب"

نظر للأستاذة وظل واجما لا ينبس بشيء. لا صوت في الغرفة سوى أوبرا Figaro. جن جنون فكرة وانفجرت فيه:

"هتفضل مبرق لي كده كتير؟!"

"مافيش رئيس وزرا. مكتبه اتصل واعتذر من شوية. وباعتين بداله..."

"كلام إيه الفارغ ده؟!"

نهضت من الكرسي فقفز الماكيير خطوة إلى الوراء وسقط كأس البينا كولادا على الأرض.

"أنا قلت مليون مرة أنا ماباقابلش وزرا. لما رئيس الحكومة مايطلعش مع فكرة علم الدين. يطلع مع مين؟!"

تأمل شيكو حذاءه وكأنه يلاحظه لأول مرة ثم قال:

"لا ما هم... مش باعتين وزير. اللي جاي ده يا فندم وكيل وزارة بس جمعة بيأكد إنه راجل قديم وفاهم واتبدل عليه تلات وزرا."

ما قاله شيكو بعد ذلك لم يسجله عقل فكرة، نظرت في المرآة فوجدت البودرة البيضاء قد ردمت ملامح وجهها تمهيدا لإعادة رسمها من جديد. لا يظهر من فكرة الآن سوى حاجب واحد سوّده الماكيير قبل وقوع الواقعة. تبدو كمهرّج في عيد ميلاد طفل، بل تبدو كمهرّج في فيلم رعب. ومع ذلك اندفعت خارجة فإذا بذات النهدين المتغطرسين لم تنصرف.

زعقت فكرة كمن أصيب بلوثة: "إنتي مين وبتعملي هنا إيه؟! عايزة مني إيه؟!!"

أجابت: "أنا بديلتك هنا في البرنامج. هابدأ أول الشهر!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-4-

اقتحمت فكرة غرفة الاجتماعات ولمياء النجار في عقبيها فحط السكون رأسا. وقعت عيناها أول ما وقعتا على المنصوري البجلاتي - الأقرب إلى الباب. بنظرة احتقار واحدة مسحت فكرة عينيه الخنزيريتين ولفائف سمنته التي انبجست في أسطوانات مكتنزة من فراغات الكرسي. يستحيل عليها وهي التي لا يتعدى وزنها الخمسين كيلوجرامًا الوثوق بشخص لا يسعه كرسيه. وبعده بمقعدين جلس محفوظ سليمان رئيس تحرير القناة وفي يده غليونه الذي لا يفارقه.

وعلى رأس الطاولة قعد رئيس القناة، له اسم بكل تأكيد كبقية خلق الله، لكنه ذهب طي النسيان من كثرة ما نودي بالباشا حتى بات هناك من يظن أن اسمه مثبت هكذا في شهادة الميلاد. بل تردد أن اللقب التصق به بسبب توارث أسلافه الباشوية جيلًا بعد جيل في فترة ما قبل 1952 - لكن فكرة تعرف أن كل هذا هراء؛ تعرف ما لا يعرفه الآخرون.

وتناثر حول الطاولة كذلك حفنة مديرين آخرين.

تنقل الجالسون بأنظارهم بين الغريمتين ولم يكن صعبًا فهم ما حدث. قال الباشا:

"مدام فكرة. ماكنتش أحب أبدا تعرفي بالطريقة دي. كنا ناويين نقول لك في الوقت المناسب".

"وقت مناسب؟! وقت مناسب يا أحمد يا شخاليلو؟! إنت نسيت أصلك ولا إيه يا حتة ريجيسير؟!"

نظر رئيس القناة حوله في ذعر وتظاهر الجلوس أنهم لم يسمعوا شيئًا. تقلص وجه محفوظ سليمان بضحكة لكنه وأدها قبل أن تولد. أي فضائح حصرية تحويها جعبة فكرة علم الدين؟! سنها الطاعن يجعلها فيما يبدو تعرف كل شاردة وواردة في هذا البلد.

واصلت فكرة الصياح مهددة:

"تستبدلني أنا؟ تستبدل فكرة؟؟ tu rêves !! ده انت تشوف خرجتك يا حبيبي قبل ما تقعّد حد مكاني. ومين؟!!"

استدارت للمياء فطالعتها من قمة رأسها لأظافر قدميها:

"البرص ده! دي بطلت تلبس كافولة أول إمبارح الضهر!"

تجمد الباشا أمام سيل البذاءات الذي لا يبدو أنه سينفد قريبا، ولم يبدر عنه سوى قطرة عرق سالت على وجنته. انبرى محفوظ سليمان بشهامة قائلًا:

"يا أستاذة إحنا مجبورين. نسب المشاهدة متدمرة! المعلنين بقالهم ست شهور مادفعوش مليم!"

"نسب المشاهدة دي بروح أمك من الضيوف العرة مجايبكم! النهارده بدل رئيس الوزارة جايبين لي حتة جربوع لو جه يسلم عليا في الشارع ما ارضاش أوسخ إيديا!"

لفكرة علم الدين هيبتها حتى في صمتها فما بالك في التياثها. تبخرت شهامة محفوظ سليمان ولاذ بالصمت هو الآخر.

لم يبق سوى واحد. ولأول مرة في تاريخ معرفتهما المشؤومة تسمع فكرة صوت المنصوري البجلاتي هادرًا وهو الذي عادة ما يهمس في حضرتها. أدنى الجالسين مقامًا وأغزرهم صفاقة وأسمكهم جلدًا قرأ الضوء الأخضر في عيون أسياده فقرر أن يزيح عنهم الحرج لعلها تكتب في ميزان حسناته. هب واقفا وهب معه الكرسي عالقًا بمؤخرته، وانطلق يصرخ وهو يلطم الطاولة بكفه السمين:

"يا شيخة روحي بلا كلام فارغ. رئيس وزارة مين ده اللي يهزأ نفسه ويجيلك؟ ويجيلك إنتي ليه؟ عشان خاطر عيونك المدخششة دي؟ الناس عايزة تطلع في برامج متشافة ياختي!"

وأخيرا انتصرت الجاذبية الأرضية في معركتها ضد مؤخرة البجلاتي فانهار الكرسي هاويًا ومحدثًا جلبة هائلة لكن الصريخ استمر عبرها:

"خدي بالك إحنا استحملناكي كتير. الناس المحترمة اللي قاعدة دي استحملتك كتير. وأخيرا قرروا يشوفوا مصلحتهم! دي قناة خاصة يا ست إنتي مش فاتحينها سبيل!"

كان يشير بإصبع كإصبع الكفتة بينما بصاقه ينهمر على فكرة. حدقت فيه برهةً ثم رفعت ببطء حاجبها المرسوم - معلم وجهها الوحيد. بدأت بهدوء لم يلبث طويلا:

"لما تكلم أسيادك يا صرصار إنت حاسب على ألفاظك. لكن أنا هاعلمك الأدب. هاربيكم كلكم! أنا مش مذيعة. أنا فكرة علم الدين! أنا هرم مصر الرابع! فضايح البلد دي عندي ولغاية أكبر راس. ياما طرمخت وداريت. je vais vous détruire. وشوف بقى هتملى الهوا إزاي النهارده يا أحمد يا شخاليلو! أنا مش طالعة!"

ظل رئيس القناة يطالعها في تحدٍ وزعق البجلاتي:

"بناقص ياختي! ألف بركة! قال يعني حد هياخد باله! أنا هانزّل مكانك إعادة لعالم البحار!"

أخرج محفوظ سليمان هاتفه متفاديا النظر في عينيها، قال بصوت حرص أن يكون مسموعا:

"دخّل الامن"

وفي الثانية التالية امتلأت الغرفة برجال متجهمين، همّ كبيرهم بمد يده صوب فكرة لكنها سددت له نظرة تجمد معها مكانه. انطلقت خارجة كالإعصار وتزلزلت الأرض تحت حذائها المدبب. ومن ورائها ضرب البجلاتي كفا بكف وقال مذهولا:

"الناس مابقاش عندها ريحة الدم!"

ثم استدارت نحوه لمياء وابتسمت كما لم تبتسم له فتاة من قبل. خفق قلبه وقال بعذوبة كأنه لم يكن يصرخ من ثانية، كأن حنجرته لم تطلق صرخة واحدة منذ ولد:

"يا أهلا وسهلا. حصل لنا الشرف!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-5-

الحِمل ليس بالخفيف وليس سهلا حفظ التوازن تحت وطأته لا سيما وأن السلم ضيق وسكانه من القطط بالضرورة معنيون. تلمست انشراح لخطواتها بين أبدان الهررة وسيقان مرافقيْها الرفيعة حتى بلغت الباب. وبعد تعليمات وتوزيع أدوار معقد بعض الشيء (من يفتح حقيبتها، من يخرج المفتاح، من يهش القطط)، بعد لأي إذن واضطراب وعلى خلفية الكثير والكثير من المواء شُرّع الباب وتزاحمت عبره ثلاثة أجسادٍ. كادت تتعثر وكادت حمولتها تسقط. امتلأ البيت برائحة تحرك المعدة وهتفت في طريقها للمطبخ:

"يا رياض. أنا جيت. تعالى قبل السمك ما يبرد"

أخرجت الطعام من أكياسه وانطلقت تضعه في الصحون، كلفت الابنة بغسيل الجرجير والبصل الأخضر وقطف عودي بقدونس من حوض الزرع في الشرفة وصنع سلطة، ونادت الابن أن يبحث عن أبيه الذي لا يُسمع له صوت.

جرح النصل إصبع الابنة فراحت تقفز وتولول، وهو ربما مسلك لا بأس منه بالنظر لسنوات عمرها الثماني. لكن الأم جذبت السكين وراحت تقرّعها وهي تتولى المهمة بنفسها؛ فأي مستقبل ذاك الذي يرجى لفتاة تعجزها سكين خرقاء؟! أحدث التثريب رد الفعل المنطقي الوحيد: ارتفعت الولولة درجات كثيرة، وانتحبت من جَرَحها غيابُ التعاطف تستصرخ أباها.

وهنا دخل الابن معلنا أن أباه ليس في غرفته ولا في الحمام ولا في الشرفة، ثم دخل فولفغانغ أماديوس موتسارت فاستنشق الهواء المعبأ بعبق السمك ثم استدار وخرج كأن الأمر لا يعنيه، وأثار ذلك كله اندهاش الجميع.

لقد أعلن رياض صباحًا أنه لا عمل يذكر في الورشة اليوم. قبل شهور قليلة كان تأكيد مثل ذلك خليقًا أن يعتد به، لكنه مؤخرًا بات يقول الشيء فيفعل عكسه. لذلك أمرت انشراح الصبي أن يطل من الشباك فلربما يكون أبوه ملّ ونزل الورشة. انطلق الابن مرة أخرى مصحوبًا هذه المرة بأخته الجريحة؛ فرقة البحث عن الأب الضالّ.

النافذة الوحيدة التي تطل على الورشة هي نافذة غرفة الكراكيب. هي في الأصل غرفة نوم ثالثة أريد لها مستقبلٌ وضاء: ستخصص مكتبًا لرياض، واحة بعيدة عن صخب الأسرة يقرأ فيها مراجعه الضخمة المكتوبة بالإنجليزية والفرنسية، تلك التي تحمل صور رجال أجانب ملتحين عابسين ثاقبي النظرة. لا، بل ستتخذ حجرة لعب تجمع الدمى والكرات والسيارات ومكعبات البناء التي تجتاح البيت طولًا وعرضًا، ثم إنها تتسع لبلاي ستيشن وكرسيين بل وطاولة مطبخ تقوم مقام طاولة تنس. ولم لا تحال صوبة لانشراح، تزرع فيها النعناع والجرجير والريحان والبقدونس وتهادي من تحب، بدلا من الأصص المتناثرة - والمتكاثرة أبدا - في المطبخ والشرفة وفوق كل سطح يصلح.

تمخض كل ذلك عن لا شيء؛ آلت الغرفة المطمع مستودعًا لكل ما ليس له مكان. تحول رحِم الرجاء هذا، دار الممكن، مقصورة الفرص، إلى غرفة كراكيب. تظل مغلقة بالأيام إذ ليس لأحد حاجة فيها

اللهم إلا أن يراد النداء على رياض عبر نافذتها.

تسابق الابن والابنة الآن نحوها فوجدا موتسارت واقفا أمام الباب في وضع التأهب. فتحاه على مصراعيه فكانت المفاجأة. ها هو الأب يقرفص في الزاوية وينحني فوق الصناديق القديمة وحقائب السفر المكسوة بالتراب. من الغريب أن يكون هنا حيث لا يدخل أبدا، ومن الأغرب أنه لم يفصح عن مكانه رغم أن تناديهم وصله بلا شك.

وفي المطبخ وقفت انشراح تقطّع البصل الأخضر الذي لا يأكل زوجها السمك بدونه، يداها تعملان بكفاءة، بدأب. وذهنها شارد مع رياض الذي انقلب كيانه منذ شهور فبات غريب الأطوار لا يعجبه شيء مما كان يحب ولا يكشف عما صار يحب، يمكث وقت الخروج ويخرج وقت البقاء، يتساءل عن جدوى حياته ثم يعود ويعتذر ويؤكد: أنتم جدوى حياتي.

تحسست بطنها وتساءلت للمرة المائة اليوم فقط: أيكون السبب انفرادها بقرار إنجاب طفل ثالث؟ (وهي - وهو - في الثامنة والأربعين لا أقل!). وللمرة المائة اليوم فقط أجابت أن لا؛ فحال رياض مضطرب منذ ما قبل ذلك. بل إن حاله المضطرب أسهم في اتخاذها القرار، ألقم نارها حطبًا جديدًا وعاظم لهفتها على استنساخ سعادة أن تتردد صرخات وليد بين جدران هذا البيت.

ووسط ذلك كله انتبهت فجأة أنها لا تسمع نداء الصبي على أبيه، بل همهمات غامضة وخرخرة موتسارت التي تعني عادة أن كل شيء - من وجهة نظره - على ما يرام. ووقع في وجدانها أن كل شيء ليس على ما يرام؛ أن تلك الهمهمات هي نذير سوء. انقبض صدرها واتجهت لغرفة الكراكيب وفي يدها السكين لا تزال. وجدت الطفلين يحيطان بأبيهما الجاثم وسط الكراكيب، يسألان ولا يجيب: ماذا يفعل؟ عمَّ يفتش؟

أخافها المشهد. أراعتها الحيرة المرتسمة علي وجه الطفلين أكثر من أي شيء آخر. خرج صوتها مرتعشا عاليًا - أعلى مما قصدت:

"بتعمل إيه هنا؟ إحنا بندور عليك!"

طالعها بهدوء فاضطرم توجسها بينما قال هو بفرحة حقيقية؛ بابتسامة انتصار:

"كنت بادور على دي!"

في يده كانت شهادة تخرجه التي يتجاوز عمرها الربع قرن، التي شيّد حياته وفتح بيته وربى طفليه دون أن يعمل بها يومًا واحدًا، التي تنتمي لحقبة لا تنتمي لها انشراح، تعود لعهد ما - قبل - انشراح. اسودّ الآن بروازها المذهب واصفرّت الورقة ذاتها وشحبت حروفها خلف الزجاج المخدوش.

ثم أردف رياض ببساطة وكأنه يستأنف حوارًا بينهما انتهى قبل عشرين ثانية لا عشرين عاما:

".وماله. عايزة تعلقيها علقيها!"

ثم نهض حاملًا اللوحة بيد والقطَّ بالأخرى وخرج مشيعًا بنظرات الجميع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-6-

الدقائق الأولى من 12 ديسمبر 2035

ثمة قصة حب تجمع فكرة بسيارتها. أسهم فيها بكل تأكيد كون السيارة پورش پاناميرا زاخرة بأسباب الرفاهية؛ كالباب الذي يفتح بلمسة من أصابع فكرة - وأصابع فكرة فقط، أو المذياع الذي يرفع ويخفض الصوت من تلقاء نفسه حسب درجة الضوضاء في الشارع، أو المقود الذي يتذبذب بين كفّي سائقه إذا اقتربت السيارة من الرصيف أكثر من اللازم.

لكن ما تعشقه فكرة حقا في سيارتها هو ذاكرتها الضعيفة. ما تجده ملهمًا فعلًا هو كيف تنطلق السيارة فتنسى ما تفوته خلفها. كاليوم مثلا: انطلقت فنسيت كل شيء عن مدينة الإنتاج الإعلامي وطريق الواحات وكأن إطاراتها لم تطأ صحراء السادس من أكتوبر من قبل، بل وكأن تلك القطعة من أرض مصر لم تخلق بعد.

ضربت اليورش لفكرة اليوم نموذجًا جديرًا بالاحتذاء عندما تبخر من وعيها فورا أفراد الأمن الواقفون لدى بوابة مدينة الإنتاج. تعرف أنت ذلك الصنف ويعرفه الجميع؛ أولئك الذين يضربون لك تعظيم سلام اليوم ويصرفون وجوههم عنك غدًا. بينما كانت فكرة تحملق فيهم في المرآة الوسطى بقلب منفطر والمقود يُعتصرُ في قبضتها كانت السيارة قد تجاوزتهم بالفعل، من منظور اليورش بقلبها المعدني غير القابل للانفطار هم الآن مجرد أجرام متناهية الصغر تضمحل باطراد حتى تضحى هباء منثورا.

انمحت من ذاكرة السيارة في ثوانٍ نصبات الشاي التي مرّت أمامها مرات لا حصر لها عبر السنين، تلك التي تديرها مراهقات هزيلات عوضًا عن أن يذهبن للمدرسة، التي تنتصب النصبة منها كالواحة الرائقة وسط الطريق الدائري بغليانه المحموم.

نعم، ما أسقط فكرة في غرام السيارة هو كيف تستوي لديها الأفراح والأحزان، كيف تدع كل شيء وتمضي.

تقود فكرة الآن بسرعة. تلوذ بشرق القاهرة من غربها. بصحراء رحيمة من أخرى قاسية. عائدة هي إلى البقعة الوحيدة التي يبقى فيها عبق من شذا والديها: شاليه العين السخنة الذي ورثته عنهما. فهو وجهتها الثابتة سواء أرادت أن تحتفل أو أن تلعق جراحها، هو خط الحدود الذي لا يمكن تجاوزه، الذي يسكن على ضفته الأخرى عزيزان لم يحب فكرة أحد مثلهما - أو ربما سواهما.

يداها ترتجفان ولا تبالي، عيناها زائغتان ولا تبالي. هي فقط تقود، راح الغضب الآن وحل محله الحبور يلفها كعباءة حنون بفضل زجاجة الويسكي التي أتت على نصفها قبل الرحلة، وجبر قلبها كسره واعتمر عمامة من الانتشاء بفضل حبة ترامادول.

شدت الرحال عند منتصف الليل دون سابق تخطيط، ولم تثنها عاصفة رملية - ستتحول لرعدية مطيرة وفقا لهيئة الأرصاد - أحالت مقدماتها الآن بالفعل سواد الليل صفرة.

ضغطت دواسة الوقود أكثر وراقبت مؤشر السرعة ينحني للمائة وعشرة، وعشرين، وثمانين. انطلق جرس تحذيري لا يتسنى له الانطلاق أبدا في القاهرة المكتظة، تنبهها السيارة أن تخفّض السرعة. يا حلوة! الوحيدة في العالم التي يهمها أمر فكرة! من يقدر ألا يغرم بسيارة كهذه؟! ضحكت. قهقهت كما لم تفعل منذ أمد.

ثم حدث كل شيء في ثوان، بينما هي تضحك وتضحك، رأسها مرتم إلى الوراء وعيناها شبه مغلقتين هيئ لها أن إنسانا يقف في وسط الطريق بالضبط. دون تفكير أدارتً المقود بحدة إلى اليسار فاليمين، أخذت تلفه وتديره حتى توقف عن الدوران قسرا. كادت السيارة تنقلب رأسًا على عقب لكنها ارتطمت بما أعاد عجلاتها الأربع إلى الأرض. مات المحرك ومات وعي فكرة، وكان آخر ما تناهى إليها رائحة شياط الكاوتشوك على الإسفلت.

بعد برهة قد تقدر بالدقائق أو الساعات أعادها لعتبات الوعي طرْق خافت منتظم راح يعلو شيئا فشيئا. سواء كان مصدر الطرْقات يبعد شبرًا أم ميلًا لا سبيل لها لتعرف، فهي لا تزال خائرة القوى مغمضة العينين نصف مغشي عليها. لكنها أحسته طرقًا صبورًا، غير متعجل. كأن الطارق يعرف أنها تحتاج وقتًا كي تعود من غياهب الإغماء.

فتحت عينيها قليلا وهاجمتها ذكرى ما حدث فتحسست جسمها. باستثناء شيء من الألم في الرقبة لا يبدو أنها أصيبت. لقد استفادت أخيرًا من عادة ربط الحزام الذي ألزمها أبوها بها منذ طفولتها في الخارج.

صفير الرياح بالخارج جنوني، والرمال تتسلل عبر فتحات التهوية رغم الفلتر المزدوج. حلق فكرة أجف من صحراوات القاهرة جميعا، شرقية وغربية، ولسانها أيبس من صفحة كتاب لم ترطبه أصابع قارئ قط.

ومع كل ذلك فالطرقات مستمرة والوعي يتعافى فيتعاظم إدراك المصيبة؛ إنها وحدها تمامًا في طريق السويس وقد نجت للتو من حادث موت، الوقت متأخر والعاصفة عنيفة.

ثم تذكرت ما كهرب وعيها فعاد يعمل بطاقته القصوى. تذكرت أجندة التليفونات. أصابها الهلع أن تكون فُقدت أو تمزقت. لكنها وجدتها أسفل المقعد وأفرجت عن نفس لم تكن تدرك أنها تحبسه. فهذه الأجندة الآن هي طوق النجاة الوحيد مما يحاك ضدها في القناة، هي أغلى ما تملك. إن ضاعت تضيع فكرة.

أحكمت قبضتها على الأجندة وكأن أحدًا سينتزعها وفجأة تزلزل زجاج النافذة بطرقة واحدة لم تتبعها أخرى وقفزت فكرة في المقعد. نظرت فإذا هي طفلة، طفلة تطالعها بوجه حزين وعينين خائفتين. شعرها مهندم وثيابها نظيفة ووجهها لا يبدو متسخًا كأطفال الشوارع.

انتاب فكرة ذعر وارتباك ورغبة غريزية عارمة في الابتعاد عن هنا. مَن هذه وماذا تفعل هنا؟ ماذا تريد؟ هل كانت مع أبويها في سيارة انقلبت هي الأخرى جراء العاصفة؟ هل كان أحد والديها هو من تراءى لفكرة فجأة وجعلها تفقد السيطرة على المقود؟ تجمدت مقلتاها على الطفلة. إنها.. إنها تشبهها.

هكذا تبدو فكرة في صورها القديمة. كان لديها فستان مثل هذا، وكانت أمها تصفف لها شعرها بنفس الطريقة. في لحظة رعونة انصاعت لسطوة الحزن في عيني البنت وفتحت النافذة.

اجتاحت السيارة فورًا نفحة هواء ساخن محملة بملء قبضة يد من الرمال. استقرت الحبات الخشنة داخل أنف فكرة وبطّنت حلقها والتصقت بجفونها. قبل أن تتفوه بسؤال رفعت البنت ذراعًا وأشارت بسبابتها لفوق دون أن تبرح عيناها وجه فكرة. ماذا؟ السماء؟ العاصفة؟ الله؟! نظرت فكرة لأعلى فلم تر سوى دوامات رمال تموج بجنون ويتخللها نور مصباح الشارع؛ بحر أصفر متلاطم.

أعادت نظرها للطفلة وهمّت بالحديث لكن رئتيها امتلأتا برائحة خبيثة مقرفة لم تمر عليها قط، فارت عصارة معدتها وكادت تتقيأ ثم رفعت الطفلة سبابتها للأعلى من جديد وبرحت عيناها وجه فكرة أخيرًا فنظرتا إلى حيث تشير. من جديد نظرت فكرة للأعلى فإذا بخيمة سوداء نحيفة قد انتصبت في عُرض البحر الأصفر - امرأة متدثرة برداء بدوي.

مرت ثانية كالدهر شاهدت فيها فكرة وجهًا أسود مختبئًا في غطاء رأس أسود ينسدل من تحته ثوب فضفاض أسود. درجات متفاوتة من السواد والقتامة والرعب.

انكفأت على السيارة تديرها وكلها يقين أن الكابوس لن يستقيم إن هي دارت. لكن السيارة استجابت فورا. أعادتها للوراء ولما حاولت تغيير عصا المحرك كي تنطلق للأمام علقت العصا من فرط انزلاق قبضة فكرة عليها ثم عادت فاستجابت. تنفست فكرة الصعداء لكنها عندما رفعت رأسها استعدادًا للانطلاق رأت ما لن تنساه أبدا. أخبرتها عيناها بما رفضه عقلها.

فقد مدت البدوية وجهها عبر النافذة نصف المفتوحة واحترق جوف فكرة بصنّة نتنة، ثم هبت نفحة ريح فانحسر الرداء عن الوجه فانكشف ويا ليته لم ينكشف، تمنت فكرة حينها لو ولدت عمياء.

حيث يفترض أن تكون العينان، الأنف، الفم. لا شيء. بساط من الجلد الأدهم الرقيق المجعد يكسو الوجه بأكمله دون أن يقطع طريقه قاطع، غشاء متصل لم يُفَضّ. قبل أن تجد صوتًا تصرخ به تكلم الكائن. حديثه مبين كالبشر دونما ثغر أو لسان، فحيح منخفض يسمع بكل وضوح رغم صفير الرياح والرعد الذي بدأ يهدر:

"لسه ما آن الأوان يا فكرة! ما آن الأوان!"

اقترب الكائن أكثر فكاد يغشى على فكرة من الرائحة التي لا تعرف لها اسمًا، هو سهْك الفناء والتفسخ والتحلل والعدم. ألصق العرق شعرها بمؤخرة رأسها وغرّى ظهرها بظهر المقعد.

عاد الفحيح ملحًّا؛ يتوق للبوح بما لا يجب البوح به:

"بابشرك إني اختارتك. أحصّنك من العدا وما يمس منك عدو شعرة!"

راح الوجه المصمت يتمطط، ينبعج، يتقلص، ينثني، ينبسط وينقبض مع كل كلمة.

"الحين روحي يا فكرة. متحصنة من كل الشرور. لين أوانك ما يؤون!"

فتح في السماء باب.

انسفك المطر صاخبا فأغرق دويّه الفحيح، وانسدل كالستار مواريًا ما يجيش في الليل. وقبعت فكرة في السيارة وقد احترق فخذاها ببول دافئ راح يتدفق في صمت وثبات، كأنه لن ينفد أبدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-7-

أختار أخلائي بعناية. من يُثبتُ لي عاما بعد عام الدرك الذي لا يتوانى عن الانزلاق صوبه، الحضيض الذي لا يمانع الانحدار إليه كي يبقى اسمه مرفوعًا وصيته ذائعًا ورصيده فوق الأصفار الستة.

أفاتحهم في اللحظة المناسبة، كفكرة مثلا. جئتها وهي تتردى من قمة الجبل الذي اعتلته سنين. ارتطامها بالقاع هو اللحظة المناسبة. استقرارها في السفح هو فرصتي. قضت حياتها تقدم لي الولاء والطاعة دون أن تدري عن وجودي شيئا، والآن حان الوقت لأرد الجميل. تحصين مؤكد من كل الشرور عدا الموت، إنْ آن أوانه انتهينا. مؤمّنة من العدا لا يمسون منها شعرة!

ها أنا ذا قد كففت عنكِ أعداءك. كففت عنك كل من - وما - يضمر لكِ السوء. وها أنا ذا أنتظر؛ أبهريني يا فكرة! أبهري نفسك بحضيض جديد، بهوة أكثر عمقا وسحقا وغورا من كل ما سبق.

لستِ الوحيدة، لست الأولى ولا الأخيرة ولن تكوني. أنتِ أحدث عضو في نادٍ عريق! عليكِ فقط أن تنظري حولك وستتعرفين على أعضائه؛ سائر أصفيائي. هذا الذي نجا بفظيعته، وذلك الذي أفلت رغم هول جرائمه، وأولئك الذين يتبوؤون منزلة لا تمس ولا يمسسهم قرح مهما عملوا، يغفر الناس بل ينسوْن بغيَهم بين ليلة وضحاها، لا تعرف العدالة طريقهم، لم تسمع بهم ولا تريد، إن تماثلوا أمامها يصيبها العمى، وإن صرخ صارخ بأسمائهم في أذنها يصيبها الصمم. أولئك - وأنت الآن منهم - أعضاء ناديّ العريق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-8-

"متأكدة إنها قالت لك (يا) فكرة؟! ولا (على) فكرة؟ يعني ندهت بالاسم وقالت يااا فكرة؟!"

أبعد المحمول عن أذنه وطالع ساعته، الرابعة والنصف فجرا. جاءه عبر فراغ الغرفة الصراخ الذي كان ارتاح منه قرابة السنوات العشر.

"قالت يا فكرة يا رياض ! يااا فكرة! ندهت لي باسمي!!"

من بين كل مشتملات القائمة التي تحوي أسبابه لبغض فكرة - وهي قائمة طويلة - كان أكثر ما يذهله دائما صوتها الذي يشبه ظفرًا يحك سبورة؛ ففي النهاية هي تسمي نفسها مذيعة. كيف يتحملها الجمهور منذ ربع قرن؟!

خفّ الضيق الذي كان داهمه بطبيعة الحال لتلقي اتصال وهو في عز النوم - والذي ترسخ عندما تبين أن المتصلة فكرة - وحلّ محله ذاك الاغتباط الخاص الذي كاد ينساه والذي لا يفرزه في رأسه سوى ثورة شقيقته.

"طب وماله؟ فرضنا. إنتي مذيعة ووش معروف، وطبيعي تكون عرفتك بمجرد ما فتحتي الإزاز"

"أنا مش مذيعة! أنا إعلامية!"

"وده بيفرق في الوش كتير؟"

"أصلا أنا ماكنتش حاطة مكياج! هتعرفني إزاي؟!"

"ليه؟ هو الفرق شاسع للدرجة دي؟!"

كعادتها منذ كانا طفلين، لا تتحمل فكرة أن يعارضها أحد. جن جنونها وصاحت:

"وبعدين هو ده كل اللي هامّك؟ ندهت لي باسمي ولا بيتهيألي؟ إنت ماسمعتش كل البلاوي التانية اللي قلتها؟"

اللهم طولك يا روح! من أين لنا بك يا طول البال!

"ما هو البلاوي التانية دي لا يمكن أبدا تكون حصلت إلا لو كنا أنا وإنتي دلوقتي في فيلم خيال علمي. ماعلش سؤال بس. إنتي كنتي شاربة قد إيه؟"

"إنت مالك إنت اذا كنت شاربة ولا واكلة! الزم حدودك يا رياض واوعى تنسى نفسك! إنت بتكلم أختك الكبيرة!"

"هو للدقة بس أختي الكبيرة هي اللي بتكلمني، أنا، ماكلمتش حد، أنا، كنت نايم!! إنتي عارفة الساعة كام؟!"

بعد لحظات صمت سمع رياض ما يشبه شهيقًا عنيفًا على الطرف الآخر. يبدو أنها تبكي أو تدعي ذلك.

"بس بس. اهدي مش كده. إنتي قوية"

نهض من الفراش وتمشى حتى شهادة تخرجه المعلقة على حائط الصالة، تبدو الآن أفضل حالا ببروازها الجديد اللامع وزجاجها الصافي المصقول، لكن اصفرار الورقة وشحوب الحروف ليس لهما دواء.

منذ تبوأت الشهادة مكانها على الحائط ورياض يقرؤها أكثر من مرة في اليوم الواحد، تارة عن عمد وتارة شارد الذهن لا يكاد يشعر أنه يفعل. الآن وزفرات أخته تأتيه عبر الهاتف راح يقرأ بكل اهتمام:

رياض علم الدين

بكالوريوس اقتصاد

جامعة كامبريدج

المملكة المتحدة

2008

استدار ثانيةً وقال وهو عائد إلى غرفة النوم: "طول عمرك قوية يا فكرة. اجمدي. أهو موقف رخم وراح لحاله. هلاوس بقى من الشرب ولا كابوس ولا مقلب قذر معمول فيكي. المهم إنك خلاص وصلتي الشاليه ومافيش قلق"

"بس أنا لوحدي وخايفة!"

هوى على الفراش وسأل بنبرة حاول أن يبقيها خالية من التبرم:

"من إيه؟ هتكون تتبعتك على المقشة بتاعتها مثلا؟"

"اتريق براحتك، أنا باقول لك ده كائن مش طبيعي!"

"أيوه مش طبيعي إزاي؟ سحر يعني ودجل وعفاريت وحاجات من دي؟"

"وليه لأ؟"

"ولا يكونش شبح؟ حاسبي الشبح اللي وراكي يا فكرة!!"

أطلقت فكرة صرخة هائلة وانطلق رياض رغمًا عنه في نوبة ضحك هستيري. أخذ يقهقه حتى انقلب الضحك سعالًا نال منه. ساد الصمت على الطرف الآخر من الاتصال وهو يسعل ويسعل ثم يشهق ليسعل من جديد. صرّ زنبرك السرير المتهالك من تحته ترقيمًا لكل سعلة، وبات الأمر كأوركسترا تتبدل بين سعال الطبلة وصرير الكمان. من حسن الحظ أن انشراح طوّرت مناعة سمعية ضد سعال زوجها عبر السنين. لكن الأمر نفسه للأسف لا ينطبق على فكرة.

عندما انتهى علقت بازدراء:

"إنت السجاير خلاص، دمرتك"

أبهره أن شقيقته الكبرى تعطي نفسها حق توبيخه وكأنها بعدها في الخامسة عشرة وهو بعده في الخامسة؛ تُبكيه تقطيبة من جبينها وتضيء يومه أصغر ابتساماتها. لكن اشمئزازها الذي لم تحاول أن تخفيه منحه الآن لذة لا تضاهى، قال:

"مظلوم يا مامي. دي جوزة مش سجاير!"

من جديد أبعد الهاتف عن أذنه وارتسمت على وجهه ابتسامة تهكم وهو يستمع لفكرة تصدح بلآلئ من قبيل:

"مافيش رجا فيك. حطيت راسنا في التراب."

حاول - وفشل - أن ينسى أن نفس الحامض النووي يجمعه بزوج الشفاه المسؤول عن كل تلك الدرر.

"ارجع لحضن بنت المكوجي يا معلم رياض."

طالع التاريخ على نتيجة الحائط. يبدو مألوفًا لسبب ما. 12/12/2035

"ولا روح يلا افتح الورشة بتاعتك وشحم لك كام عربية"

فكرة لا بأس بها! هناك بيجو 406 قابعة في الورشة منذ أسبوعين!

ثم تذكر هذا التاريخ! في مثل هذا اليوم قبل ثلاثة وعشرين عاما تزوج من انشراح؛ ابنة صاحب مصبغة الملابس التي كانت على ناصية شارعهم في المنيرة (والمكوجي أيضا وصف لا تعوزه الدقة). كان زفافهما الشيء الوحيد العاقل الذي أمكنه فعله لمواجهة عالم قميء مجنون.

"يابو صدر مشخلل. يا حشاش يا فاشل."

وجد نفسه مهتمًا فجأة بحال الحائط - أي شيء ليغلق عقله أمام ما يسمع. الطلاء بالٍ ومقشّر وفي حاجة لإسعاف سريع. عزم أن يهدي انشراح بمناسبة عيد زواجهما "وش بياض" في غرفة النوم، وفي الصالة والمطبخ أيضا إن أمكن.

"أنا غلطانة اني افتكرتك راجل وهتتجدني."

حام إبهامه فوق الزر الأحمر لميللي ثانية ثم كبسه. راقب الشاشة تموت وراح يتخيل فكرة، تحملق في هاتفها بذهول وهي تقف وسط شاليه السخنة الذي تنازل لها عن نصيبه فيه فرارًا بجلده من آخر ما يربطه بها.

أشعل سيجارة وسحب بعمق أول وأخف أنفاسها ونهض إلى البلكونة. بخرت نسائم الفجر دفء الفراش عن جسده، وتناهت إليه أصوات الحياة تدب في الحارة الغافية. وقف برهة لا يبصر الحارة بل يرى بعين عقله الشاليه. ترى هل لا تزال الموناليزا تبتسم ببلاهة في غرفة النوم والثريا تتدلى

فتلامس قمم الرؤوس؟ ثم راح يتخيل فكرة واقفة هناك وحدها والذهول مرتسم على وجهها، لعمره لقد أعياه أن يتذكر ملامح شقيقته!

أحس بثقل على مرفقه فنظر فإذا بابنه استيقظ ولحق به في البلكونة. أسند الصبي رأسا دافئة على ذراع أبيه التي أحاطه بها وهو يقول مؤنبًا:

"من السرير للبلكونة كده يا ليمو؟ خش جوا لتاخد برد"

لكنه ظل يحتضنه. سأله إن كان أيقظه بصياحه في الهاتف فأومأ الصغير برأس لا يرى منها أباه سوى كتلة من الشعر الفاحم. هذا السواد الغطيس ورثه الولد من جدته راوية، أم رياض. هكذا على الأقل كان لون شعرها حتى آخر يوم رآها رياض فيه - قبل موتها بثماني سنوات. ترى هل شاب رأسها قبل أن تموت؟ ولم لا؟ ثماني سنوات وقت طويل. لكن شيئًا ما أخبره أن هذا لم يحدث.

قال رياض:

"تعرف يا وحش؟ وأنا في سنك كنت باحلم أبقى زي جدك. إنت عمرك ما شفته، البروفيسور علم الدين. إنت بتحلم تبقى إيه؟"

"يعني إيه بوروفزور؟"

أجفل من نطق ابنه السوقي لكنه لم يعقّب. أجاب:

"يعني مدرس بس في الجامعة. ها ماقلتليش، إنت عايز تطلع إيه؟"

رفع الصبي كتفيه في حركة خاطفة ثم قال وكأن السؤال يفتقر للذكاء:

"زيّك طبعا! أجمد أسطى ميكانيكي!"

ثم دخل يوقظ أمه لتصنع له إفطارًا، وبقي رياض وحده ينظر للحارة ولا يكاد يرى منها شيئًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-9-

"أنتِ قوية" يقول رياض!

تُذبحُ فكرة سبعمائة مرة ولما تحصي سبعمائة ليلة ثقيلة نكود عاثرة يخبرونها أن زيجتها انتهت ويذكّرونها:

"لا عليكِ. أنتِ قوية!"

يذل شقيقها اسم العائلة ويتزوج من ابنة مكوجي. ثم - وكأن هذا ليس كافيا - يستبدل لقب "الأسطى الميكانيكي" ببكالوريوس الاقتصاد.

"أنتِ قوية"

يصطدم مراهق لا يحمل رخصة قيادة بوالديها فيلقيان حتفًا لن تعرف أبدًا إن كان سريعًا أم بطيئًا أم مؤلمًا أم مرعبًا، ثم يفلت من العقاب لأنه ابن لواء شرطة.

"أنتِ قوية"

والآن! فقدت عملها الذي هو هويتها، وتعرضت لحادثة موت، ورأت بأم عينيها رعبًا لا تدري حتى كنهه، لكن لا بأس! فطبقًا لرياض:

"أنتِ قوية"

انزلقت جالسة على الارض وهي لا تزال تنظر بذهول للهاتف الميت في كفها. انهمرت دموعها وصرخت داخل رأسها:

ماذا لو أني لا أريد أن أكون قوية؟!

يا ناس أريد أن أكون ضعيفة!

أتوسل إليكم. مرة واحدة فقط. دعوني أكن ضعيفة!

الضعيف يربت الناس على ظهره. يمررون له المحارم ليجفف دمعه، يدعونه لمشاركتهم فنجان شاي في غرف جلوسهم، يهرعون إليه في أنصاف الليالي ليطمئنوا أنه بخير.

شكرا يا أخي. يا ابن أمي وأبي.

وضعت الهاتف جانبًا وعلى نور الفجر المتسلل عبر الستائر رأت الشاليه كما لم تره من قبل. متى أفل تلألؤ الثريا وبريق البراويز ولمعان الأواني النحاس؟ من أطفأ سنا الرخام وأهال التراب على المزهريات؟ هكذا يبدو المكان إذن وهو وحيد، بلا أنفاس تتردد بين جنباته، بلا بعثة نظافة تسبق وصول فكرة.

نهضت فارتمت على كرسي أبيها المخملي الهزّاز. وَخَزَ أذنيها فحيحٌ وهمسٌ وحفيف ورق يابس. تراها تأتي من الخارج؟ أم أن مصدرها من داخل الشاليه أو حتى من داخل رأس فكرة؟ فتشت في عقلها عن فلول هلاوسها القديمة التي شفيت منها بعد عذاب، عندما كانت تؤمن أن عفريتًا يترصدها، لكنها - ولحسن الحظ - لم تجد لها أثرا. لعله إذن تأثير الويسكي والترامادول كما قال رياض. أتكون البدوية مطموسة الملامح تقفّت أثرها واقتحمت عليها دارها؟ خيل لفكرة أنها تراها شاخصة أمامها، خيمة نحيلة سوداء، وجهها قاتم مجعد مصمت بلا عينين ولا أنف ولا فم. ورنت كلماتها في فراغ الغرفة:

"بابشرك إني اختارتك. أحصّنك من العدا وما يمس منك عدو شعرة!"

انطلقت تبكي وتبكي. خوفًا، جوعًا، هزيمةً، وحدةً. استنزفت عقلها نحيبًا حتى أوصلته لما قبل حافة الموت بخطوة. ثم ألقت المعطف فوقها كيفما اتفق ونامت حتى انتصف النهار. ولدى استيقاظها أجرت ثلاث مكالمات لا غير.

بدأت بوزير الخارجية الأقرب إلى نفسها، تجمعهما اللغات والسهرات والسفرات ومتانة الاتصالات بالخارج. ما أكثر أن أمضى وأسرته الصيف في شقة فكرة بالري□ييرا الفرنسية. عندما تعرفت عليه كان قنصلًا مبتدئًا، نشأت صداقة عائلية جمعته وزوجته بفكرة وزوجها، لكن بمجرد طلاق فكرة قطعت زوجة الرجل كل الاتصالات وربما ظنت أن الأمر انتهى عند ذلك الحد. لكنه ظل متصلًا بفكرة بحكم العمل وما حوله.

أنصتت إليه الآن وهو يتصنّع الصدمة هامسًا:

"معقول الكلام ده يا أستاذة؟ ماعنديش خبر وحياة ولادي! قرار زي ده في إيد الأجهزة الأمنية. هي اللي ماسكة البلد في المرحلة دي. دول حتى مبوظين شغل الخارجية كله وإنتي ست العارفين!"

هي سيدة العارفين فعلا بأن نبرة صوته تلك هي التي ينظر بعدها للجالس قبالته فيغمز بعينه ويتلقى التهاني على جودة كذبه.

أما اللواء الشربيني الذراع اليمنى لوزير الداخلية فأقسم بشرفه أن لا دخل للداخلية، وكأنه يكلم طفلة ولدت أمس، ساذجة لا تدري أن النملة قبل أن تدب في هذا البلد، الجنين قبل أن يلف في رحم أمه، ذرات الغبار قبل أن تستقر، يستأذنون جميعا اللواء الشربيني.

لكن الطامة الكبرى وقعت عندما حسمت أمرها وأجرت الاتصال الذي كان ترجئه، حادثت مصدرها في الجهة السيادية التي لا تجرؤ حتى على تسميتها لنفسها.

وكان أن تلقت الرد التالي:

"ده قرار إدارة القناة. إنتي عارفة إن الإعلام في مصر مستقل"

أنهى المكالمة وتركها امرأة مجنونة.

لمن هذا الكلام؟ لفكرة علم الدين؟ أنا معكم! أنا منكم! أنا الوجه الآخر لكم! فكرة علم الدين ليست مذيعة. ليست إعلامية. فكرة علم الدين هي أمن مصر القومي! سياساتكم طبختها معكم، قتلاكم واريتُهم الثرى، ظلمكم سوقته كالعدل بعينه، استبدادكم روجتُه كالحرية ذاتها. هل انتهى دوري؟ أبهذه البساطة يسدل الستار على فكرة؟! أبهذه السهولة تستغنون عن فكرة؟

بانتصاف الليل فهمت أخيرا أبعاد ما حدث؛ لا أحد يمكن أن يفعل لها شيئا، لا أحد يريد أن يفعل لها شيئا.

لكنها "قوية"!

لم تأكل شيئا منذ أربع وعشرين ساعة. لكن من يحتاج الطعام؟!

نقبت في الخزائن حتى وجدت صندوق شمبانيا كاملًا من بقايا آخر حفل أقامته ها هنا في الشاليه، كان وزير الخارجية حاضرًا من بين مائة ضيف اختيروا بعناية. قبل خمسة أشهر باليوم بل بالساعة لم يكن هناك موطئٌ لقدم في هذا المكان!

عادت بغنيمتها للمطبخ وأخرجت كأسًا مردومًا بالتراب. أرادت غسله لكن أنّى لها بالطاقة؟ اكتفت بالنفخ فيه وبدأت حفلًا من نوع آخر: هي فيه المحتفِل والمحتفَل به في آن: يمكنك حتى القول إنها حفّلت على نفسها.

وأخيرا، بعد زجاجة شمبانيا وحبة ترامادول عرفت ما ينبغي فعله. قامت ففتحت الخزينة المتوارية خلف لوحة الموناليزا في غرفة النوم، ووجدته: الشيء الوحيد الذي لا يزال متوهجًا في هذا الشاليه المغبّر: بيريتا تسعة ميللي. الماسورة ذهب خالص أشرق بريقها في الغرفة كأن شمسًا خاصة تسطع لفكرة فقط، والقبضة أبنوس تكاد من فرط نعومتها تذوب في راحتك. أحكمت قبضتها حول مسدس أبيها وقرّبته لوجهها حتى لامس شفتيها وأخذت نفسًا عميقًا عميقًا. هذه رائحة كفّ أبيها!

ولأول مرة منذ لا تعلم متى ابتسمت من قلبها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-10-

13 ديسمبر 2035

انكب المنصوري البجلاتي على الوليمة التي مُدت أمامهم في صالة التحرير بالجريدة. ذكّره منظر البط والدجاج والأرز وصحون الزبادي والطحينة والمخلل بدعوة الحج الفاخر التي تيسرت له قبل عامين فكانت بحق ذروة تجاربه الروحية؛ قضى نهاراته نائما في الخيمة المكيفة ولياليه أمام ولائم الضأن المشوي التي استطاع إليها سبيلًا.

سمى بالله وهتف:

"مبروك يا عم مدكور! يتربى في عزكم!"

تطايرت في الهواء كلمات مشابهة من هنا وهناك. من المؤكد أن الجميع كان يحس صدقًا بالامتنان لعم مدكور، الصحفي الكهل الذي ولد أول أحفاده أمس. لكن تأتي لحظة على الألسنة يتعين عليها الاختيار: إما الشكر وإما المضغ. خيار محسوم ومعركة خاسرة.

أمسك البجلاتي بساق بطة في يد وبصدر دجاجة في أخرى. ثوان واستحال نصف وجهه الأسفل لامعًا بالشحوم. انتبه لحماسه الباقون وتبادلوا ابتسامات يعرفون أن صدر مدير تحريرهم يتسع لها. قرب أحدهم الأرز للبجلاتي وقال بصوت رخيم:

"ما تاكلش الزفر قرديحي"

انطلقت ضحكات متناثرة وتوقف البجلاتي هنيهة. قطب حاجبيه وراح يفكر في رد ملائم لكن بصراحة مسألة "الزفر القرديحي" تلك مبتكرة فعلا! نط كرشه للأعلى ثلاث نطات خاطفات ولم يُصدر صوتًا أو يتخلى عن تقطيبته، فهو عازم ألا يضحك وإن كان جسده يضحك رغمًا عنه.

ووسط كل ذلك رن هاتفه. لن يرد والحال هكذا إلا لو كان المتصل محفوظ سليمان فما فوق. رمق الشاشة وفوجئ بالاسم: "شيكو". ما الذي يريده هذا الآن؟ ألم يتب علينا الله من شيكو وبرنامج شيكو وولية نعمة شيكو؟ كان يظن أنه أخيرًا تخلص من أمنا الغولة!

منذ يومين والبرنامج متوقف. لم يُذَع مكانه عالم البحار كما كان البجلاتي ليحبذ، بل أعيدت حلقات سابقة من "والله فكرة!". وفي نفس الوقت يجري تدريب لمياء على قدم وساق. وكلها أيام وتنطلق الحملة الإعلانية لبرنامجها الجديد الذي يتوقع البجلاتي أن يكسر الدنيا. وفي مطلع الشهر ستطل لمياء على المشاهدين ويهيل التاريخ الثرى على فكرة علم الدين فتضحى كأنها لم تكن.

ثم حدث للبجلاتي أبشع ما يمكن أن يحدث على الإطلاق، ما لا يتمناه لعدو: بدأ يشبع. امتلأت معدته لكنه استمر يبتلع. وعندما امتلأ المريء أيضا فعل كما يفعل دائما: انتظر قليلًا. إن عاجلًا أم آجلًا سيمضي شيء من الطعام لحال سبيله في دهاليز البطن، وستولد فجوة يدفسها بملعقة أرز أو يعاجلها بنصف دبوس. يضمن له هذا فقه الهضم وديْدن الجسم وكل قوانين الميكانيكا؛ ما عليه إلا الانتظار.

وفي لحظات الترقب تلك مسحت عيناه الضيقتان الغرفة يمينا ويسارا، لا يعلم سوى الله إن كانتا تبصران شيئا أم أن تركيزه منصب حصريًا على جاهزية معدته لتلقي المزيد. بدا كفقمة هائلة بطيئة التنفس تراقب المكان خشية أن ينقض عليها دبٌّ قطبي.

وفجأة انشقت الأرض عن شيكو، رآه البجلاتي واقفا أمامه بشحمه ولحمه فاختلط عليه الأمر، لثانية احتار إن كان في الجريدة أم في القناة. كيف اختلط العالمان؟

"الموضوع مهم يا أستاذ بجلاتي وعايز أكلمك على انفراد"

التطبيق العملي لمفهوم هدم الملذات! وضع بعض الأرز وبقايا جلد البطة في رغيف وتحامل على نفسه فقام. اقتاد شيكو لمكتبه وطلب كوبًا من الشاي لنفسه ونظر لزائره بعداء قائلًا:

"خير؟!"

"الأستاذة قاعدة تحت في العربية"

"تحت فين؟ قدام الجرنال؟!"

"أيوه وعايزة تقابلك"

"تقابلني أنا؟! ليه؟!"

"بتقول عايزة ترجع البرنامج وتفضل لآخر الشهر وتقدم لميا بنفسها للمشاهدين"

"شوف إزاي!"

"انزل معايا واسمعها بنفسك"

وصل الشاي وأخذ البجلاتي يرتشف رشفات جهورية دون أن ينظر لجليسه أو يحدثه. ولما انتهى مسح فمه بظهر يده وأشار لشيكو أن يقود الطريق قائلًا:

"ده عشان خاطرك انت بس!"

كانت البورش السوداء جاثمة في شارع جانبي. توقّف أمامها الرجلان وتأمل البجلاتي الزجاج الداكن، هل يمن الله عليه بهودج كهذا ذات يوم؟! ثم فتح البابَ كفٌّ بيضاء مرقطة ببقع الشيخوخة. فهم شيكو المطلوب فأشار للبجلاتي بالركوب لكن الأخير قال محتجًا:

"خد بالك أنا ما اقدرش أروح في أي حتة ياشيكو أنا عندي اجتماعات والله العظيم."

عانقه شيكو - أو قبض عليه - وهو يردد:

"عشان خاطري بس. عشان خاطري."

ثم تدخلت فكرة بصوتها الرفيع فقالت:

"اتفضل يا أستاذ بجلاتي دقيقتين اتنين. مش هنتحرك ماتقلقش"

أستاذ بجلاتي؟! جديدة هذه!

جلس على المقعد جوارها وطالعها متوجسًا لكنه لم ير الكثير. فوجهها مختفٍ وراء نظارة شمسية ضخمة، وشعرها القصير المصبوغ بالأشقر يغطيه منديل، ورقبتها العجفاء متوارية خلف دعامة طبية من تلك التي يرتديها مصابو الحوادث. أحسها أقرب لحقيقتها - أمنا الغولة - من أي وقت آخر. وبدلًا من أن يسألها عما ألم بعنقها اكتفى بأن سأل الله أن يحفظه. تحدثت فكرة:

"يا أستاذ بجلاتي أنا قعدت وفكرت. وأنا آسفة جدا على اللي قلته واللي عملته. دي سُنّة الحياة. وأنا مش هاخد زمني وزمن غيري. وكل اللي باطلبه إني.. اعتبروني ماعرفتش حاجة. اعتبروني هاكمل لأول الشهر زي ما كنتوا ناويين. وأنا مستعدة بنفسي أدرب لميا! وآهي تبقى موجودة وتحضر الهوا معانا وتستفيد. ومستعدة أقدمها كمان على الهوا للمشاهدين! بس حققوا لي الأمنية دي. دي آخر حاجة هاطلبها!"

أخذ البجلاتي نفسًا عميقًا فامتلأ جهازه التنفسي برائحة جلد المقاعد الفاخر. إنه جلد طبيعي بلا شك؛ بقرة أو ثعبان أو غزال أو حتى إنسان. هي رائحة الثراء الفاحش. لم يدرِ ماذا يقول، فالمرأة تبدو مذلولة للغاية. لكن هل يُؤمن مكر أمنا الغولة؟

"يا أستاذة خدي بالك الموضوع أكبر مني. والإدارة خلاص قرروا يلغوا البرنامج خالص لغاية ما لميا تطلع أول الشهر. كلميهم!"

"ماحدش فيهم بيرد عليا! هم أكيد فاكرني باهددهم أو هارفع قضية وعلى فكرة. العقد يحميني! بس أنا كل اللي عايزاه الكام حلقة اللي فاضلين دول أطلعهم، أختم مشواري ختام مرتب. أنا عارفة إن نسبة المشاهدة مافيش، بس أكيد ظهوري كام مرة كمان مش هيدمرها أكتر يعني! وفي المقابل... في المقابل أنا هاتنازل عن كل حقوقي في العقد. أرجوك يا أستاذ بجلاتي تساعدني! Je vous implore"

أطرق قليلًا ثم قال إنه سيعود إليها بردٍّ بعد قليل. رجع لمكتبه في الجريدة وأخذ يقلب الموقف من كل جوانبه.

الإيجابي في الموضوع أن هذه الحكاية - ومنذ بدأت - جعلت منه فجأة رقمًا مهمًا في القناة. فالمسألة تمس في النهاية برنامج "والله فكرة!" الذي يرأس هو تحريره. ووقفته في الاجتماع عندما تصدى لفكرة رفعت الحرج عن كاهل الكبار. والآن. الآن إن توسط في صفقة كالتي تعرضها فكرة. صفقة ستوفر حربًا قضائية طويلة قد تكبد إدارة القناة ملايين الجنيهات. حتمًا سيرفع هذا من أسهمه أكثر وهو الذي كان نكرة حتى الأمس القريب؛ يذكّر رئيس القناة باسمه كلما التقيا!

أما السلبي في الموضوع. السلبي في الموضوع يدخل عليه المكتب الآن!

شمّ الخبر قبل أن يسمعه: عطر فرنسي غالي الثمن!

ثم سمع بأذنيه قبل أن يرى بعينيه: كعبان يتبختران كناطحتي سحاب ذهبتا في نزهة!

ثم أعلن الخبر على لسان أربعة صحفيين دفعة واحدة، تبرعوا جميعًا لاقتياد الزائرة لغرفة المنصوري البجلاتي رغم أن الشقة التي تشغلها الجريدة في مساحة علبة كبريت.

وأخيرا دخلت عليه لمياء. أجمل من شرّف مكتبه بلا ذرة شك واحدة. للمرة الثانية في نفس اليوم يختلط عالما البجلاتي، عالم الجريدة وعالم القناة. ولكن شتان بين الأولى والثانية!

"يا أرض احفظي ما عليكي! اتفضلي يا ملكة الشاشة القادمة!"

"ميرسي قوي. أنا كنت معدية ولقيت نفسي قريبة من الجرنال بتاعك. قلت فرصة أزور الصرح العظيم ده"

"صرح؟! الله يحفظك!"

"وكمان لازم أشوف الجانب الآخر من حياة أستاذي اللي هيعلمني السحر. ما هو عشان أفهم فلسفتك في إعداد برنامجي. لازم أشوفك هنا. في بيئتك الطبيعية. ولا إيه يا أستاذ بجلاتي؟"

"بلاش رسميات. قولي لي يا منصور!"

"إيه! لا طبعا مستحيل. المقامات محفوظة. إنت أستاذي!"

هذه الأهداب التي ترفرف. ماذا تقصد؟ وهذه الشفاه التي تتبسم. ما الذي تحاول أن تقوله؟

لكن الشغل شغل! وحضورها المفاجئ هذا اعتبره البجلاتي علامة أن يخبرها ما لن يعجبها.

وكما توقع هلعت لمياء. خرجت كلماتها لاهثة متسارعة:

"لا لا لا لا يا أستاذ بجلاتي. إنتوا قلتولي إن القرشانة دي خلاص غارت في ستين داهية. وإنها حتى مش هتكمل الأسبوعين اللي فاضلين!"

"وإنتي إيه اللي مضايقك؟ خليها لآخر الشهر وآهي بتعبّي هوا. وكده ولا كده في الآخر هتقعد في بيتهم"

"مش يمكن لما ترجع يغيروا رأيهم ويخلوها؟ وألاقي نفسي أنا اللي قاعدة في بيتنا؟!"

كيف لكل هذا الجمال أن يكون بكل هذا الغباء؟ أراد البجلاتي ألا يضحك تقديرا لجزعها لكن كرشه نط ثلاث نطات متتاليات وشَيْن به. نظرت له في لوم فبادرها معتذرًا:

"حقك عليا. بس إنتي مش شايفة نفسك وشايفاها؟ إنتي الحلم اللي الإعلام المصري منتظره من سنين. زهرة يادوبك لسه بتفتح. جميلة، ومثقفة، وبنت ناس. وسط وشوش مرهقة مكرمشة الصبغة هرت فروة دماغها. دي كروت اتحرقت يا عزيزتي! ومن الآخر كده الإدارة بتريّل عليكي. لو تعرفي بيتكلموا عنك إزاي ماكانش القلق عرف طريقه لراسك الحلوة دي. خدي بالك دول راصدين ميزانية إعلانات بس عشرة مليون!"

"عشرة مليون!"

"أمال إيه! إشي على المحور، وإشي على الدائري. غير الصفحات الأخيرة في الجرايد وأولها إحنا. إعلانك عندنا اتحجز خلاص ونازل بعد أسبوع!"

"يعني إنت متطمن يا أستاذ بجلاتي؟"

"وحاطط في بطني عشرين بطيخة صيفي! آهم. شايفاهم؟ أيوه اضحكي كده. وبلا أستاذ بلا بجلاتي. أنا ماباطيقش الكلمتين دول. منصوري. منصوري وبس!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-11-

"ما تدخل يا شيكو، واقف برا ليه، استريح"

رغم أنه يعمل مع الأستاذة منذ سنوات لكن اليوم يوافق أول مرة يدخل فيها شيكو يلا فكرة علم الدين. جلس على طرف الكرسي، مقعد وثير لا سبيل لشيكو أن يعرف أنه من طراز لويس السادس عشر لكنه فهم فخامته فورا. أشعلت الأستاذة سيجارة وعرضت عليه واحدة إلا أنه رفض تأدبًا. جلسا ينتظران في صمت. هي تدخن وتنظر للّا شيء كأن ألف فكرة تدور في رأسها، وهو يجول بنظره في البيت الذي هو أشبه بالقصر.

كيف يمكن أن يصف لزوجته ما يرى؟ إنه لا يعرف أسماء أي من تلك الأشياء، كل ما يعرفه أن كل مزهرية، تمثال، مرآة، مطفأة سجائر، شمعة، وسادة، مفرش، سجادة، ثريا، ستارة، نبتة زينة، يزيد ثمنها عن مرتبه في شهر أو عام.

ثم ما كل هذا البراح؟ إن "الصالون" في شقته - لو صح استخدام هذا اللفظ - يماثل ردهة الدخول مساحة. ولا يزيد مطبخهم طولًا عن طول الأريكة التي تضطجع عليها الأستاذة الآن. تشكو زوجته دوما أن صالة شقتهما لا تسع إلا طقم صالون ومائدة سفرة رغم أن أختها لديها متسع لأنتريه أيضا. فلتأت إلى هنا وسترى. واحد، اثنان، ثلاثة صالونات وواحد، اثنان، ثلاثة أنتريهات غير غرفة الطعام الملكية التي يلمحها عبر باب سنديان جرار نصف مغلق.

ترى كيف الحال في الطابقين العلوي والسفلي حيث يؤدي هذا السلم المزخرف بالحديد المشغول المذهّب؟ وتراه ذهبًا حقيقيًا أم قشرة فقط؟ وما هذا العبير الغامض الذي يسري في المكان كله؟ أهكذا سيجد رائحة الأمجاد السماوية؟ وأي صوت هذا الذي يترقرق إلى النفس فيريحها من عناء الوجود؟! يبدو كخرير ماء! آه، إنها نافورة! مختفية هناك خلف دوران السلم! نافورة في البيت! وما تلك الـ.. الـ.. الأجسام التي لا يعرف لها اسمًا، قطع أثاث بيضاوية ومربعة ومستطيلة، بنية أو سوداء أو بيضاء، مزخرفة بأناقة وجمال، لا يفهم لها وظيفة محددة. وظيفتها أن تكون جميلة فحسب.

كل ما في القصر يصرخ: "عزّ. خير. مال. مال كثير وقديم"

رن هاتفه فقفز في كرسيه. كان قد نسي والرب أنه ينتظر اتصال المنصوري البجلاتي. نظر للأستاذة فرآها وضعت السيجارة جانبا ومدت عنقها تجاهه وعلقت عينيها عليه.

بعد أن أنهى المكالمة نظر لها وابتسم ابتسامة عريضة.

"أمان! طالعين الليلة هوا! حمد الله على السلامة يا أستاذة، الإعلام المصري كله كان مضلم!"

أفرجت فكرة عن نفسها الحبيس وسمحت لعينيها أن ترمشا وقالت بابتسامة صغيرة:

"كنت متأكدة إنهم هيوافقوا"

"أوامرك للحلقة يا أستاذة!"

"إيه رأيك. باقول ناخد أجازة من السياسة شوية"

"هو ده الكلام! الناس ملّت من السياسة وما عادتش طايقاها"

سألت فكرة بلا اهتمام:

"والله؟"

"أيوه يا أستاذة أمال إيه! أنا ماحدش بيشوفني في منطقتنا إلا وبيقولها لي. الأخبار خلاص راح عليها. دلوقتي المنوعات والاجتماعيات هي الموضة الجديدة"

"طيب. إيه رأيك في المشاكل النفسية، القلق التوتر الاكتئاب، أمراض العصر"

"يبيع زي الفل!"

"خلاص. وأنا عندي خبيرة هايلة نستضيفها. دكتورة اسمها ضحى. متحدثة ممتازة. خد رقمها أهو وهي مش هتتأخر"

"تسلم إيدك يا أستاذة الأساتذة!" أردف وهو ينهض:

"أطير أنا بقى أحضّر الدنيا. ونص ساعة بالكتير والعربية تكون قدام الفيلا."

"الشيروكي يا شيكو. الشيروكي"

"رقبتي يا أستاذة!"

تردد قليلا في الانصراف وراح يتأملها. للأستاذة وجه غريب - وهو ما لا يعني أنه غير جذاب: كل ما في الأمر أن الفك العريض والأنف الدقيق والخطين الغائرين على جانبي الفم والعينين المستديرتين تتطلب من الناظر لحظةً - أو ربما عشر لحظات - كي يقدّرها. ودّ شيكو الآن لو يقول إن الوجه النحيف أصلًا بات هزيلًا وإن لون الأستاذة لا يعجبه وإنها تبدو مرهقة جدا وما تحت عينيها أسود جدا. لكنه خشي أن يعد هذا تجاوزًا لحدوده. بل إنه لم يجرؤ أن يسأل عن سر دعامة العنق مكتفيًا بتمني السلامة.

بقيت فكرة مكانها تراقبه إلى أن أغلق الباب وراءه. فكرت أن عليها أن تنهض هي الأخرى لتستعد. لكنها تذكرت أنه لا داعي لأي استعدادات اليوم. فالمطلوب أمر واحد لا غير. مدت يدها لحقيبتها الملقاة بجوارها على الأريكة وتأكدت أن المسدس بالداخل.

هذا كل ما تحتاجه لحلقة اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-12-

ومضة نور تسبح في فضاءٍ مظلم، جزيرة تتلألأ في عُرض بركة حبر. أريكة من الجلد الأبيض السخي، وطاولة منخفضة عريضة من خشب الجوز سوادها بني، وأرضية من المربعات نصف الشفافة، بكبسة زر يضيء المربع تلو الآخر في متتالية ألوان: أزرق فأحمر فأخضر فأزرق فأحمر فأخضر إلى ما لا نهاية.

أمام الجزيرة عتمة تخفي مدرّج جمهور لا يظهر منه الآن أحد، جمع لا قيمة له ولن ينال نصيبه من الضوء إلا عند الضرورة. وكذلك خلف الجزيرة: ظلام يخفي جيش عمال، ذاك يبقى نصيبُه من الضوء صفرًا أبديًا.

وحدها الأستاذة فكرة تجلس تحت الأضواء، مصابيح خارقة مسلطة عليها من كل جانب. يتصدر مقعدها المشهد فيتضاءل جانبه كل شيء آخر. هو أشبه بكرسي العرش، ظهره في طول رجل بالغ. قمته قوس واسع يضيق بانسيابية رشيقة كلما اقترب من المقعد. ويحدد الظهر إطار ذهبي تطابق زخارفه القوائم الأربعة، أما نسيج الكرسي فقطيفة رمادية فاتحة، تكاد تكون بيضاء. وتتناثر عليه أحجار كريمة عاكسة للضوء بكل الألوان.

ترتدي الأستاذة اليوم زي الحظ الذي تلجأ إليه في الملمات: البدلة الكريستيان ديور الحمراء، وتتحلى بطقم ماس لا يخرج إلا في الملمات ايضا: قرط وعقد وخاتم وسوار يحمل كل منها الأحرف الأولى من اسمها بالفرنسية: F.A.D.

لم تعدل اليوم خصلات شعرها القصير حتى آخر لحظة، بل اكتفت بالتحديق في عين العدسة الباردة وهي تنصت للعد التنازلي بصوت المخرج:

"عشرة.. تسعة.. تمانية.. سمايل يا أستاذة!"

لكن الأستاذة لا تبتسم اليوم، تضن حتى بابتسامة الهواء البلاستيكية.

" خمسة. أربعة.." أصيب المخرج بالذعر فهتف رغم أنها تسمعه:

"هي مالها النهارده يا جماعة فيه إيه؟!.. اتنين. واحد. هوا!.. كيو!"

وقبل أن تنير الكاميرا بجزء محسوب من الثانية رسمت فكرة علم الدين ابتسامة الهواء البلاستيكية آنفة الذكر على وجهها وقالت:

"مشاهديّ الأعزاء... أهلا بكم في... والله فكرة!"

بإشارة من مدير الاستوديو هدر تصفيق حاد من الجمهور الذي تم انتقاؤه بعناية. مقابل مائة وخمسين جنيها عليك أن تجلس ساعتين وتصفق أو تضحك أو تتأثر حسبما تؤمر، الشرط الوحيد أن تكون جذابًا، ذكرا كنت أم أنثى، لا بد من إيهام المشاهدين في المنازل أنهم وحدهم القباحى.

واصلت فكرة بالنبرة الهادئة التي دائما تبدأ بها، التي دائما تعقد العزم أن تلتزم بها لآخر الحلقة:

"وحشتوني قوي الحقيقة. غبت عنكم يومين لظرف خاص. بس الحقيقة إنهم عدوا عليا كأنهم سنتين. الحقيقة أنا حابة الليلة دي أبعد عن السياسة شوية."

في الجاليري أطبق الصمت وتهامست فتيات الإعداد:

"شيك قوي النهارده. الخسسان صغرها جدا. وشعرها يجنن. الصبغة دي اسمها أشقر فراولة"

ومن ورائهن جزت لمياء النجار على أسنانها واسترقت نظرة للمنصوري البجلاتي الذي وقف بجوارها متظاهرًا أنه لم يسمع شيئًا.

لم تمر دقيقة واحدة لكن صوت الأستاذة أخذ يعلو بغير قصد منها كما يحدث كلما اندمجت:

"شبعنا أخبار. كل ليلة بنهري . الوزير ده عمل والوزير ده سوى. الحكومة قصرت. الحكومة أنجزت. الليلة دي راحة. بريك. إيه رأيكوا إننا هنتكلم عن الإنسان. الإنسان المصري عامل إيه وحاسس بإيه. روابطنا الاسرية أخبارها إيه؟ حضرتك وانت بتتفرج دلوقتي. سواء في بيتك أو في مكتبك او قاعد على القهوة. قلقان من حاجة؟ خايف من بكرة؟ حاسس إنك لوحدك؟ بيتهيأ لك إن ضهرك مكشوف؟"

كانت تتحدث وهي تشير بكلتا يديها بحركتها المعتادة، تنفش أصابعها العشرة بحيث يبدو كل كف كنجم بحر متشنج. سكتت قليلا ريثما تدور الكاميرا وسط الجمهور الذي أعطاه مدير الاستوديو إشارة التفكير العميق المتفق عليها (قطب جبينه وأطرق برأسه وعقد ذراعيه أمام صدره). ثبت المخرج المشهد على فتاة مكتحلة العينين حمراء الثغر أسندت وجهها بين الإبهام والسبابة وبدا عليها التركيز.

ثم أردفت الأستاذة وقد خرجت طبقتها الصوتية عن السيطرة فبلغت الدرجة القصوى، درجة الظفر - على - السبورة كما يصفها رياض:

"جايز منكم هيقولوا لا. إحنا مسنودين الحقيقة بأهالينا وصحابنا، ومتدفيين بجيراننا وحبايبنا. كويس جدا، لو إنت من دول احمد ربنا! لإنه إيه رأيكوا، للأسف أغلبكم هيقول: أيوه، أنا لوحدي، ماحدش حاسس بيا. ماحدش بيطبطب عليا. كل ما أشكي يقولولي: إنت قوي. إنتي قوية."

قطع المخرج على شاب في الجمهور بلحية مشذبة وسلسلة ذهب وهو يومئ برأسه تصديقا.

"عشر ثواني للفاصل يا أستاذة. ستاندباي كاميرا كرين!"

"النهارده دي إجابة أغلب المصريين لو اتسألوا السؤال ده. وده اللي بتأكده الاحصائيات وهنتكلم فيه بعد الفاصل مع ضيفتي الكريمة. وصديقتي العزيزة. استشاري الطب النفسي الدكتورة ضحى عبد الله. انتظرونا"

ارتفعت موسيقى "والله فكرة!" التي استقرت في وجدان المشاهدين منذ ربع قرن لم تتغير خلاله، وأنارت مربعات الأرضية بمتتالية الألوان، وتشابكت دوائر الضوء التي ألقتها مصابيح ضخمة على رؤوس الجمهور في رقصة ضوئية محمومة، واستعرضت كاميرا الرافعة ذلك كله في حركة ماسحة سلسة.

وفي الجاليري تبادل الجميع نظرات إثارة مشوبة بالاندهاش. شيء ما في الأستاذة اختلف ويصعب تحديده، ثم نادى المخرج للمنصوري البجلاتي الذي يقف في نهاية الغرفة مع المذيعة الجديدة - والتي بدت الآن حانقةً لسبب ما:

"الأستاذة ملعلعة الليلة يا كبير! ماشفناش الأداء ده ليه بس آخر خمس سنين!"

وحده شيكو كان قلقًا، صب كوبًا من المياه المعدنية الفوارة واتجه به للأستاذة وهو يتمتم لنفسه:

"فيه حاجة غلط. فيه حاجة غلط. قوي!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-13-

أخضر شارع في الجيزة هو محل نزاع تاريخي بين المهندسين والدقي؛ إذ يتفاخر سكان كل منهما أن الأشجار الوارفة التي تظلل جانبي الطريق من اللبخ والبوانسيانا وأم الشعور - وبعضها أقدم من دول ذات سيادة - إنما هي في الواقع تابعة لحيّهم.

وفي أكثر بقعة مورقة في الشارع النضير سار رياض الآن بتمهل يعكس رضاءه عن مهمة أنهاها بنجاح. ثمانية وأربعون عاما لم تشهد حرمانًا يذكر من الملذات لم تفعل بهيئته الكثير، فباستثناء بداءة ترهل في البطن وباكورة جيوب حول العينين وتقويسة تنتهجها ذراعاه خلال السير كما يليق بأسطى ميكانيكي مثله، يظل رياض وسيمًا بفضل جينات جيدة قهرت - حتى الآن على الأقل - ريشة الدهر.

وإلى جانبه سار رجل في مثل عمره تقريبًا، يرتدي بدلة وفوقها معطف صوف كحلي ويبدو أنيقًا كما يليق بصاحب مكتب استشاري للمحاسبات، ويبدو كذلك مسرورًا لسبب ما. قال على خلفية من حفيف الأوراق من النوع الذي لا يسمع إلا في هذه الأمسيات الشتوية الباردة:

"اتفضل بقى يا باشمهندز، أنا أعرف حاتي هنا مالوش حل! نتعشا سوا ويبقى عيش وملح. أنا تعبتك معايا النهارده"

ابتسم رياض لكنه قال:

"اعفيني الوقت اتأخر، أصلي بابيّض عقبال عندك وسايب الشقة تضرب تقلب عشان أجيلك"

نظر الرجل في ساعته وقال محتجا:

"الساعة ماجاتش عشرة! إنت النهارده أنقذتني من ورطة! كنت خلاص مجهز الفلوس ولولاك ماكنتش هاعرف إن العربية عاملة حادثة. وأنا اللي باحسب نفسي خبير! طب أقول لك، تعالى بينا بس نقعد على القهوة دي شوية. تعالى يا راجل!"

ضحك رياض على استحياء، هو في حقيقة الأمر في أمس الحاجة للجلوس مع هذا الزبون تحديدًا، بل كان يتحين الفرصة المناسبة لمفاتحته في مسألة غاية في الأهمية. قبل الدعوة قائلا:

"قهوة إيه؟ هي دي قهاوي الذواتي دي؟"

جلس الاثنان يحتسيان الشاي ويتبادلان الحديث حول "العروسة" التي كاد الزبون يبتاعها بمبلغ ضخم لولا فطنة رياض. أطنب الرجل في الثناء على أمانة رياض ومهارته، والشكوى من ندرة أمثاله، ثم أن يكون علاوة على كل ما سبق مهذبًا، لا يتلكأ في عمله، ويبدو مستمتعًا راضيًا قانعًا فوق كل ذلك، فهذا هو الإعجاز بعينه. في مواجهة هذا كله ظل رياض ساكتًا يفكر في أن كل كلمة إشادة يتفوه بها الرجل تصعّب على رياض قول ما يريد. ثم استجمع شجاعته وتكلم قائلا:

"أنا عايز أشتغل في مكتبك"

حط الوجوم على الرجل ولم يدر إن كان ما سمعه قيل بالفعل.

“لا مؤاخذة ماخدتش بالي، تقصد إنت ولا حد من معارفك؟”

“أنا معايا بكالوريوس اقتصاد من انجلترا!”

“إيه؟ إمتى؟ إزاي؟ إنت؟!”

“إزاي زي الناس، وإمتى سنة 2008”

“أمال حكاية الميكانيكا دي تبقى إيه؟”

“هو يعني.. مثلا.. تقدر تقول.. تقريبا كده. هاه قلت إيه؟”

“بصراحة. يعني حضرتك متخرج من سبعة وعشرين سنة؟ إنت عارف الخريجين الجداد نفسهم مش لاقيين شغل، وكمان إنت فاجئتني حبتين بس تمام تمام، تبقى تحضر سي □ي على مهلك كده، وشهادات خبرتك، وربنا يسـ...”

أخرج رياض من جيبه الخلفي أوراقًا مطوية، قال وهو يفتحها ويناولها للرجل:

“الورق جاهز، بس شهادات خبرة ماتلاقيش. أنا ما اشتغلتش بالبكالوريوس بتاعي قبل كده، طول عمري ميكانيكي!”

طالع رياض الرجل بابتسامة واسعة لم يملك الأخير إلا مبادلتها بأخرى وإن كانت أقل اتساعًا. ثم صاح رياض بغتةً:

“نزل شطرنج واتنين شيشة هنا يابني!”

بكياسة تحسب له فكك الرجل الاندهاش الذي انتصب على وجهه بينما عقله يسجل أن هذه ستكون أول مرة يلاعب فيها ميكانيكيًا دورَ شطرنج.

في الخلفية انطلقت موسيقى تيتر برنامج “والله فكرة!”. لوى رياض فمه ونظر لمحدثه فوجده قد لاحظ. قال:

“يا بيه أنا نفسي أفهم! الجماعة الإعلاميين دول أكتر ناس بتتشتم في مصر، وهم الصراحة يستاهلوا، فساد وغباء وجهل، كلهم بلاوي. إنما تيجي تقعد على قهوة في حتة راقية زي دي، يعني الناس المفروض بتفهم! تلاقيهم زي عندنا، أول ما يبدأ الإعلامي من دول يطرش طراشه علينا يعلّوا الصوت ويقعدوا يسمعوا زي البهايم!”

رفع مستمعه حاجبيه تعجبا وقال:

“والله أنا باقول زيك كده دايما، مراتي في البيت مشغلة القرف ده ليلاتي وبتقضي الحلقة كلها شتيمة في المذيع من دول وتدعي عليه وعلى تخريبه في عقول الناس، طب اقلبي القناة! اقفلي التليفزيون خالص! أبدا! هي القعدة كده فرجة وشتيمة! تقولش إدمان يا أخي!”

انتشر البيادق على الرقعة وتراصّت الفيلة والقلاع وبدد دفء المقهى برودة الليل وعلت كركرة الشيشة وعلت معها ضحكات الرجلين. المزاج الحسن الذي يحسه رياض منذ ولد المساء حلّق به الآن فوق السحاب، أحس أن كل شيء ممكن، أن الوقت لم يفت بعد، أن المستحيل مفهوم خزعبلي.

****

وفي الخلفية كانت فكرة علم الدين تصدح بهستيريتها المعتادة:

"... ماحدش حاسس بيا.. ماحدش بيطبطب عليا.. كل ما أشكي يقولولي: إنت قوي. إنتي قوية!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-14-

راجعين هوا يا جماعة ستاندباي! هدوء في الجاليري من فضلكوا!"

أخفض المخرج صوته بعض الشيء وهو يردف:

"نجمتنا. إيه اللي ورا ضهرك ده؟ باين معايا في الكادر. سلك المايك ده ولا إيه؟ يا شباب الصوت، حد يشوف لي إيه ده"

لكن فكرة دفست ما يقصده المخرج وراء ظهرها ثم جلست فوقه قبل أن يصل عامل الصوت. ولما جاء لم يجد شيئا في غير مكانه. همس للمخرج في الجهاز المحمول:

"ما كانش المايك يا ريس، أنا حاجتي مربوطة كويس مكانها. يمكن موبايل الأستاذة"

"راجعين! عشرة. تسعة."

ارتفعت موسيقى التتر وأخذت فكرة نفسًا عميقًا وحاولت أن تبتسم وهي تحدق في العدسة لكن فمها ارتعش. ولما تكلمت خرج صوتها أيضًا مرتعشًا وغالبت رغبة مفاجئة في البكاء:

"مرة تانية بارحب بيكم وبضيفتي، أهلا دكتورة ضحى"

"أهلا بيكي يا أستاذة فكرة. أهلا"

"عايزين نتكلم عن الشعور بالوحدة. وسؤالي الحقيقة إزاي الناس كلها بتشكي الأيام دي مع إن وسائل الاتصال بيننا الحقيقة زادت ماقلّتش. يعني اللي عايز يسأل على حد دلوقتي يتحير، يكلمه في التليفون، ولا يبعت له رسالة، ولا إيميل، ولا Linkzone.."

"سؤال جيد جدا والإجابة في ثنايا السؤال نفسه. بمعنى، المحك هو الرغبة في التواصل، مش القدرة على التواصل، لأن لو انعدمت كل الوسائل اللي حضرتك عددتيها دي - زي ما كان الحال في الماضي مثلا - برضو اللي عنده الرغبة هيوجد طريقة يوصل بيها للي بيحبهم. فالقدرة موجودة، لكن هل الرغبة موجودة؟ ده السؤال"

التفتت فكرة للجمهور ووجهت لهم الحديث:

"إيه رأيكوا أضرب مثال واقعي. حصل لي شخصيا، وأعلنها النهارده على الملأ، النهارده عيد ميلادي يا جماعة."

رسم مدير الاستوديو ابتسامة واسعة على وجهه فابتسم بعض أفراد الجمهور وضحك البعض الآخر. وشرعت الدكتورة ضحى تقول:

"كل سنة وإنتي..."

لكن فكرة قاطعتها وأكملت وهي تنظر بعد للجمهور:

"النهارده عيد ميلادي التمانية وخمسين."

شهق الجمهور شهقة جماعية بلا أي إشارة من مدير الاستوديو، وفي الجاليري كتمت إحداهن ضحكتها وانطلقت التعليقات المذهولة:

"إنتي سمعتي اللي قالته؟!"

"تمانية وخمسين!!!"

"كنت فاكراها أربعين وباقول عليها عجوزة!"

"دي من قدماء المصريين!"

أشارت فكرة بكفيها من جديد كنجم البحر عن اليمين والشمال وسألت الجمهور:

"تفتكروا جات لي كام تهنئة من معارفي وصحابي وحبايبي؟ وهم كتير على فكرة! جوا مصر، وبرا مصر، ما اعرفش عددهم!"

جالت بنظرها يمينا وشمالا ثم قالت للكاميرا.

"إيه رأيكوا. ولا واحدة. صفر صحيح. كل سنة أنا اللي باحتفل، أنا اللي باعزم الناس، ياما اتعزم في أعياد ميلاد فكرة علم الدين اللي يسوى واللي مايسواش"

علت شهقة جماعية أكبر من سابقتها، وفي الجاليري سأل المخرج رئيس التحرير:

"هو فيه إيه يا بجلاتي باشا. الكلام ده شغال معاك ولا إيه؟"

لكن المنصوري البجلاتي كان مشغولًا بحمد الله أنه قط لم يدع لحفلات فكرة، وهو ما يستثنيه الآن من تصنيف من لا يسوى.

أخفضت فكرة يديها واستدارت في الكرسي ووجهت حديثها للضيفة:

"ولما قلت أجرب مين هيفتكرني من نفسه، ما افتكرنيش حد الحقيقة!"

احمرّ وجه الدكتورة وتلعثمت وهي تحاول أن تعثر على إجابة دبلوماسية في مجابهة حوار لم تتوقع صراحته:

"هو.. طبعا.. أولا اسمحي لي أحييكي على شجاعتك في الاعتراف بسنك. ده شيء نادر لواحدة ست، وبالذات إعلامية زي حضرتك"

انطلقت صفقة خجولة من أحد أركان المدرج ونظر مدير الاستوديو حوله بارتباك ثم صفق هو الآخر فارتفعت الأيدي تصفق بثقة.

لكن فكرة لم تعطهم فرصة. رفعت صوتها كي يصل للجميع:

"دي مش شجاعة. دي الحقيقة. هو اللي يقول الحقيقة يبقى شجاع؟! إيه الزمن الأغبر ده؟!"

ثم نظرت للضيفة وضيقت عينيها وأمالت رأسها قليلا كأنها تقيّمها وقالت:

"دكتورة سنك كام؟ إنتي مش أصغر مني بكتير."

ارتبكت الطبيبة وتنقلت نظرتها من الجمهور للكاميرا لفكرة. مسحت عرقًا ظهر تحت أنفها لكنها لم تضطر أن تجيب، فقد ملأت فكرة الصمت صائحة:

"الستات اللي قدي وقدك كتار قوي على فكرة! إنتوا عارفين إن الستات العواجيز.. العواجيز بجد.. هم الشريحة الديموغرافية الأسرع نموا في العالم كله؟! ومع ذلك إحنا مالناش مكان، ولازم اللعبة تتلعب بالقواعد اللي حطها المجتمع، بس ده خطر!! وأنا قدامكوا أهو، عشت عمري كله بالعب اللعبة بقواعد حطها غيري. لكن استفدت إيه؟ إيه رأيكوا لما احتجت الناس تقف جنبي مالقيتهمش!"

التفتت لضيفتها وصاحت:

"يا دكتورة ضحى الخيانة بقت في دمنا، الولاء ده خرافة، النذالة والمصلحة بتحكم علاقتنا بالآخرين. إمتى آخر مرة حد سأل عليكي لوجه الله؟"

ارتسم الضيق على ملامح الضيفة وقالت:

"من غير ما نشخصن النقاش. بوجه عام نصيحتي لكل واحد يتعرّض للي حضرتك بتوصفيه ده إنه يبادر هو، يهتم باللي حواليه، لو زرعنا حب هنحصد حب!"

"بلا زَرَعَ بلا حَصَدَ!!! كلام فارغ!!! كلام تليفزيونات!!!"

ارتفعت الهمهمات من المدرج وصرخ المخرج في سماعة مدير الاستوديو:

"سكّت الناس دي فورا!"

لكن الأخير رد:

"مش قادر أسيطر يا ريس! الأستاذة بتقول كلام غريب! قول لي إنت أعمل إيه؟!"

نظر المخرج للمنصوري البجلاتي وصرخ:

"الشغل ماينفعش كده يا ريس!"

لكن البجلاتي اكتفى بالتقدم خطوتين ووضع يديه على وسطه السمين دون أن يقول شيئا. فهو حديث عهد بالتليفزيون ولم يتعرض لمواقف فجائية من قبل. ثم إنه هنا - في موقعه هذا - لمهمة محددة بتكليف من أجهزة محددة للرقابة على موضوعات محددة، أي أنه لولا لمياء لم يكن ليحضر حلقة الليلة أساسًا وهي التي تتناول بلاهةً من قبيل "الشعور بالوحدة".

من ورائه وقفت لمياء وعلى وجهها ابتسامة صفراء، تفكر أن برنامجها - بعد فضيحة كهذه - سيبدأ غدًا لا مطلع الشهر.

ثم همس المخرج في سماعة المذيعة مستجديًا:

"يا أستاذة فيه إيه بس؟ تحبي نطلع فاصل؟"

لكن الأستاذة خلعت السماعة من أذنها أمام الجميع وألقت بها جانبًا وواصلت:

"أبادر بمين وأهتم بمين؟ دول يمصوا دمك وياخدوا مصلحتهم وبعدين يدوكي بالشلاليط. أنا كفرت بالحب! أنا كفرت بالحياة!"

كان اللعاب يتناثر من فمها كالقذائف، والعرق يسيل على جبهتها وهي تصيح وتركل الهواء.

ابتسمت الضيفة بإحراج وقامت بمحاولة بطولية - وفاشلة - لتحويل الموقف لمزحة:

"حضرتك متشائمة قوي الليلة دي. هنعقّد المشاهدين كده!"

جنّ جنون فكرة فانتفضت واقفة وصرخ الظفر - على - السبورة:

"متشائمة؟!"

قال أحدهم في الجاليري:

"إيه اللي وراها على الكرسي ده؟"

ثم انطلقت صيحة شيكو:

"اقطع الهوا!!! اقطع الهوا!!"

ارتبك المخرج لكنه رد صائحًا هو الآخر:

"وجه كلامك لرئيس التحرير وحل عني يا شكر الله! كاميرا واحد صلح مكانك ورجّع لي المذيعة في الزفت الكادر!"

واصلت فكرة مخاطبة الضيفة:

"بقالي قد إيه يا دكتورة باتعالج عندك ومافيش أمل؟ إيه رأيك العيب مش فيا؟ العيب في المجتمع! تقدري تعالجي المجتمع يا دكتورة عشان أخف أنا وأبطل تشاؤم؟!"

صاح شيكو مجددا:

"يا منصوري يا بجلاتي! أنا باحملك المسؤولية لو الهوا ما اتقطعش فورا!"

استدارت فكرة للكاميرا وخاطبتها مباشرة:

"لكن خلاص! أنا عرفت الحل اللي يخليني أتحكم في حياتي! أنهيها بإيديا ولا أسيبش نفسي تحت رحمة حد! مين يعاشركم يا منافقين، يا فاسدين يا مصلحجيين، أنا اللي هانتصر. ماحدش هينتصر على فكرة. ما اتخلقش اللي ينهي فكرة!"

أفاق المنصوري البجلاتي من ذهوله وقال بصوت يرتجف:

"انهي البرنامج"

وأمر المخرج مساعده:

"اتصل بالتنفيذ حالا يستلم مننا الهوا!"

وبينما هذا هو الحال في الجاليري انحنت فكرة والتقطت المسدس فتراءى للجميع لأول مرة. على الفور ساد هرج ومرج، هبّت الضيفة من مقعدها راكضة، وتدافع أفراد الجمهور على باب الخروج يصرخون، وترك العمال مواقعهم والمصورون كاميراتهم وفر كلٌ بجلده.

غرق الجاليري في صمت رهيب ونهض أفراد الإخراج والإعداد والإنتاج فوقفوا يحملقون في الشاشة بأعين جاحظة وأنفاس محبوسة بينما مساعد المخرج يلهث في الهاتف الداخلي:

"يا تنفيذ! استلم الهوا! أبوس إيدك يا تنفيذ استلم الهوا!"

****

وعلى بعد ثلاثين كيلومترا باتجاه الشرق، في مقهى على حدود الدقي والمهندسين، سكت قرع النرد ورزع كاسات الشاي علي الصواني وتجمدت بيادق الشطرنج وقلاعه وانتفض الزبائن يضجّون باللا - تصديق، بالإثارة. أخيرا لحظة تليفزيونية تستحق المشاهدة.

سقط خرطوم الشيشة من يد رياض. عض على لسانه حتى سال الدم.

وأصبحت فكرة وحيدة تمامًا في البلاتوه. نظرت في بؤبؤ العدسة وبيد مرتعشة رفعت المسدس لرأسها وضغطت الزناد. رنّت الرصاصة وهوت الأستاذة؛ نيزك يرتطم بالأرض ويشهد تشرذمه الملايين. ومن خلفها نشعت بقعة حمراء.

تجمد المشهد ثانيتين ثم ارتفع تيتر البرنامج مشفوعًا بموسيقى هادئة ولوحة تقول:

"برعاية..."

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-15-

14 ديسمبر 2035

أُذن للفجر وانشراح لا تزال متسمرة مكانها في وسط الصالة منذ ساعات لا تدري عددها. تتعب فتجلس فلا تطيق الجلوس فتعود لتقف وتتنقل بين القنوات بجهاز التحكم عن بعد. ووقف الطفلان يحتضنانها ويطالعان التليفزيون بأعين تدمع حينًا وتجف حينًا. يبكيان عمةً لم يلقياها قط.

ارتسم حزن دفين على وجه مذيع قناة "إكس بي سي" وتهدج صوته الرخيم وهو يقول: "ننعي للمشاهدين.. لمصر كلها.. للعرب.. للجماعة الصحفية العالمية.. الأستاذة الكبيرة الرائدة التي قادت الرأي العام عبر عقدين كاملين.. الأستاذة فكرة علم الدين" قال الطفل لأمه:

"كلمتي بابا؟"

أجابت:

"مغلق يا علم الدين قلت لك! شكله فصل شحن"

وفي قناة "الدنيا" قال الخبير النفسي للمذيعة التي انهمرت دموعها واحمرّ أنفها وورمت جفونها:

"واضح جدا إن المرحومة كانت بتعاني من الاكتئاب.. وهي قالت بنفسها لضيفتها إنها كانت بتتعالج عندها.. فده واضح جدا.. وآخر ما قالته الشكوى المريرة من الوحدة والنفاق المجتمعي.. واضح جدا.. رسالة مهمة جدا"

وفي قناة "الشمس" اضطجع المذيع ذو البدلة الفاخرة وربطة العنق الحرير وزر القميص الذهب في مقعده وكعادته مسح الفراغ أمامه ذهابًا وإيابًا بيديه وأعلن:

"أما اعترافها بسنها الحقيقي قبل ما تدوس على الزناد بلحظات.. فدي سمات الشخصية الرابطة الجأش اللي لا تنصاع للقوالب والأنماط الاجتماعية التقليدية.. خسارة فادحة في الواقع!"

وفي قناة "القمر" تنهدت المذيعة ودقت بأظافر مدببة مصبوغة بالأحمر القاني على مكتبها فصدر صوت كعدو الخيل. تقلصت شفتها العلوية قبل أن تتساءل بغضب وصل حد الاشمئزاز:

"كام واحد حواليك ممكن يكون بيفكر في الانتحار وإنت مش دريان؟ فكرّ كده! استعرض معارفك! تخيل لو صحيت بكره لقيت جارك انتحر، ولا أمك ولا أخوك ولا زميلك في الشغل.. بذمتك هتقدر تبص لنفسك في المراية؟! طب هيجيلك نوم إزاي؟! ساعتها هتحتقر نفسك والشعور بالذنب هيخنقك!! عشان كده أنا النهارده باطلق هنا في برنامجي حملة: حبّوا بعض.. حسّوا ببعض"

وفي قناة "الإيمان" انتفخ عرق في جبهة الشيخ واحمرّ وجهه وتشنجت سبّابته وهو يهتف: "الانتحار حراااامٌ حرام.. والمنتحر كاااافرٌ كافر.. يظل حراما ولو ارتكبه مين! ويظل المنتحر كافرا ولو كان مين!"

لكن المذيع قاطعه:

"اسمح لي يا فضيلة الشيخ إحنا جايلنا آلاف الرسائل المتعاطفة مع الأستاذة فكرة .. أقرا لك نماذج.. صديق للبرنامج بيقول مين ده اللي عنده حق يكفر الآخرين.."

جحظت عينا الشيخ وصاح:

"لا يمكن."

"ورسالة تانية بتقول نصا: يعني الست موتت نفسها وكمان بتكفروها.. فكرة علم الدين بطلة وشهيدة.."

ازداد جحوظ عيني الشيخ وصرخ:

"أنا لن أسمح."

"ماعلش اديني فرصة، وكومنت أهو واصل حالا بيقول حان وقت تطوير الخطاب الديني.."

هنا قام الشيخ من مكانه هائجًا وهتف وهو يخلع عمامته ويقذفها في الأرض:

"دي مش طريقة! الحق أبلج والباطل لجلج يا أخي! إنتوا هتلعبوا في ثوابت الدين؟! أنا منسحب!"

وفي قناة ستار ذاتها التي كانت تعمل بها فكرة، تجمد البث على لوحة بيضاء يقطعها في الركن العلوي شريط أسود مكتوب عليه: "يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي".

صاح علم الدين:

"بابا جه!"

التفتت انشراح بحدة فإذا بمقبض الباب يدور. ثم دخل رياض، رجع إليها منهكًا شاحبًا مبعثر الشعر. سدد لزوجته نظرة طويلة متعبة ثم فتح ذراعيه؛ يحتاج من يعانقه. انصهر أربعتهم - خمستهم - في حضن واحد صامت طويل. وبعد برهة أحست بجسد زوجها يسكن وبارتجافته تخبو فعلمت أنه تماسك. رفعت رأسها من على كتفه وطالعته بإشفاق وكادت ترجو له البقية في حياته لكنه وضع أنامله على شفتيها وتمتم:

"جات سليمة"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-16-

ألم أقل لكِ إني كففت عنك السوء؟! ألم أقل إنه لن يصيبك شر إلا الموت؟ والموت لم يحن أوانه يا فكرة! لم يحن! الآن انطلقي! لا يقف أمامك شيء! محصنة من العدا لا يمسون منك شعرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-17-

متابعة الناس أجمعين لما حدث كوم ومتابعة دكتورة ضحى عبد الله له كوم آخر. ليس فقط لأنها شهدت اللحظة مع فكرة في البلاتوه، ولكن لأن فكرة علم الدين مريضتها منذ سنوات.

لقد لاحظت بطبيعة الحال منذ اللحظة الأولى اضطراب تنفس فكرة وجحوظ عينيها وهزالها، لم تفتها إيماءاتها المتشنجة وجلستها المتوترة وأظافرها المدببة وهي تغوص في راحة يدها، لكنها لم تتوقع للحظة واحدة أن يصل الأمر لمحاولة انتحار.

ما الذي يقوله ما حدث عنها هي، عن دكتورة ضحى عبد الله؟

أي إخفاق مدو محرج محبط صادم هذا؟ إنها لحظات كهذه التي تندم فيها ضحى على امتهانها الطب، فلحظة واحدة كتلك تنسف ذكرى أي نصر قد تكون أحرزته طيلة سنوات عملها، تنسيها كل حالة شفيت على يدها وكل مريض أرسل لها بطاقة شكر بعد أن استعاد بفضلها السيطرة على حياته.

بوازع من تأنيب الضمير إذن توجهت ضحى لزيارة فكرة في المستشفى وقد عقدت العزم ألا تكشف عن هويتها، ستقول فقط إنها صديقة، أو معجبة، فبأي وجه تعلن للأطباء هناك أنها هي الطبيبة النفسية المتولية علاجها منذ سنوات؟

لكن شقيق فكرة ما لبث أن رآها وعرفها من أول ثانية. بادرها قائلا:

"حضرتك الضيفة اللي كنتي معاها على الهوا مش كده؟ أنا لقيت في شنطتها روشتة بتاريخ قديم مطبوع عليها اسمك؛ دكتورة ضحى عبد الله؟"

لا مجال للإنكار. مضى قائلًا:

"ياريت رقم موبايل حضرتك. فكرة بتوصف حاجات غريبة بتحصل لها. تهيؤات الظاهر. أنا عايز أقعد معاكي وأحكي لك اللي أعرفه، وفي نفس الوقت أفهم منك هي مريضة بإيه بالضبط"

لم تقل الدكتورة ما كان يجب أن تقول: لم تقل مثلا إن سماع ما لديه جيد ونافع لكن المريضة ذاتها يجب أن تتحدث وأن تكون لديها رغبة في العلاج. ولم تقل كذلك إنها لن تكون قادرة على إفشاء أي من تفاصيل مرض فكرة للأسباب المعروفة والمتعلقة بسرية العلاقة بين المريض وطبيبه.

من بعيد لمحت كونسولتو أطباء يسيرون نحوهما ولم يعد يعنيها سوى أن تتصرف قبل أن يقدمها رياض لهم. غمغمت بما يعني أنها ترحب بالحديث مع رياض ثم أعطته بطاقة أرقام هواتفها وانصرفت بأقصى سرعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-18-

21 ديسمبر 2035

تحين لحظة في ذروة الليلة تنسي التواقين المشتاقين ممن يموج بهم المكان أن الشمس تتقاعد كل غروب ويحل محلها القمر. ومعهم الحق؛ فعوضًا عن شمس واحدة تشتعل فوق الرؤوس مئات الشموس الصغيرة المعروفة تجاريًا بمصابيح الهالوجن، وبدلا من سماء الليل الدهماء اكتسى الأفق بقماش الخيامية الزاعق المزركش بالفضي العاكس والأحمر الدامي والأصفر الرنان، وقد قايض الطلاب بسكون الليل زنَّ البواجير في صحن المسجد وخارجه ونداءات الباعة على زبائنهم والنسوة على عيالهن وقرع الدفوف لضبط إيقاع الراقصين بالأسياخ وشدو ساقي الأرواح الآتي عبر المكبرات، وفاحت من حملة المباخر وعربات الكبدة وجلسات الشيشة بل والحشيش أوركسترا روائح متشابكة تصعق جهازك العصبي بشحنة كهرباء فتستيقظ مما يتبين لك أنه كان سباتًا طويلًا. انقلب الليل نهارا كما يليق بالليلة اليتيمة لمولد ساطع الغرة الذي أحال بهاؤه القمر شمسا، غياث اليد بسام الثغر عبق الكف طيب العنصر حلو الشمائل سهل الخليقة حافظ الوعد ذروة العز، ذاك الذي بجَدِّه الأنبياءُ قد خُتموا.

أصغى المنصوري البجلاتي لصوت سليل المنشدين يغني:

يا آل طه عليكم حملتى حسبت . إن الضعيف على الأجواد محمولُ

كان يقبع في ركن قصي من منطقة المذبح بالسيدة زينب وسط جمع محدود انتقته فردًا فردًا سيدة أعمال خيّرة استحقت عبر السنين لقب "كبيرة مريدي بدر التمام". قبل لحظات فقط رفع الصبي صواني لحم الرأس والكرشة والأرز بخلطة الكبد والكلاوي ووضع أمام الضيوف صحون أرز باللبن ازدردتها الأفواه فورًا فنزل المزيج الهلامي بردًا وسلامًا على الأحشاء المتّقدة.

دخل البجلاتي في نصف غيبوبة هي ذروة اللذة الروحية التي ينتظرها من العام للعام، معدته مفاعل نووي تعتمل بداخله الملذات. وحملق أمامه في خط مستقيم ينظر للا شيء ويبدو متيقظًا وهو أبعد ما يكون عن اليقظة. وفي مرمى بصره تمامًا جلست مضيّفته تبتسم في خفر بنت العشرين وهي التي تغازل الستين وتسترق إليه النظرة تلو الأخرى لتتأكد أنه لا يزال يرمقها فإذا به لا يزال. عدلت حجابها العجيب الذي هو امتداد لثوبها لا ينفصل عنه، اختارت خضرته بعناية لتماهي لون العشب في غيطان إقطاعيتها، ولقد لفّته بحيث تحيط الوردات الخضر بالوجه في طبقات متتالية فتضخم رأسها مرات ومرات وبدت في عين البجلاتي - الثملة بلا مسكرات - كلفائف حبة كرنب طازجة. نالت النشوة من العاتكة المعطاءة البذول تحت سطوة ما اعتبرته إعجابًا خاليًا من المواربة عاريًا عن كل شبهة اعتذار، فأطلقت ضحكة أنثوية كانت كفيلة بإفاقة البجلاتي الذي اعتدل في جلسته وهز رأسه يمينًا ويسارًا كمن يطرد الخدر وغمغم بعبارات شكر وثناء يعلم أنها منتظرة، وردت هي مجاملاته بأغزر منها لكن البجلاتي كان قد فقد الاهتمام بالفعل.

فقد راحت السكرة وأتت الفكرة. و"فكرة" هي من يشغل باله منذ ولد الليل، بل طيلة أسبوع مضى على تلك الليلة التي التاثت مصر قبيل انتصافها. من حينها لم يفتح صحيفة أو موقعًا إلكترونيًا أو صفحة Linkzone أو يشاهد برنامجًا أو يسمع إذاعة في أي ساعة من ليل أو نهار إلا وكان الحديث عن فكرة، ومحاولة انتحار فكرة، وشجاعة فكرة، ويأس فكرة. أذهله نفس ما أصاب لمياء في مقتل: أن الخطاب ليس خطاب فضيحة، بل خطاب يتأرجح بين انبهار وإعجاب وشفقة واحترام. لكن لكل مقام مقال والمقام غير مناسب. كره أن تفلت من بين أصابعه هذه الأجواء الربانية النفيسة من تحت رأس أمنا الغولة فأخرج هاتفه المحمول وكتب على Linkzone:

في حضرتك يا سَجّاد، يا ذا النفثات، يا من ينتهي إلى مكارمه الكرمُ. يا سيد العابدين يا علي!

ضغط زر النشر ففوجئ بأن هاتفه منقطع الاتصال بالشبكة وهو ما يفسر صمته من ساعات.

وعندها امتدت يدان فظتان للجالس بجواره فشدته من ملابسه وارتمى صاحبهما وهو يلهث في الكرسي الذي خلا. نظر البجلاتي فإذا هو رجله المخلص صلاح البرنس الذي أتاه يطوق عنقه بجميل في شكل خبر جلل. فأعمدة الإدارة يتواترون الآن على مقر القناة ويبدو أن اجتماعًا بربطة المعلم على وشك الانعقاد، ويقال إن قرارات خطيرة ستتخذ لا يعلم عنها أحد شيئًا، ويظهر أن البجلاتي وحده المستثنى مما يجري. قبل أن ينتهي البرنس من سرد كل ما لديه كان البجلاتي ينطلق. رمى التحية على الجالسين مشاعًا وحمل بطنه الهائلة كمن يحمل ريشة وهرول يبحث عن سائقه مشفوعًا بحسرة من استنطقت نظرته وعْدًا تبين أنه محض خيال.

وبعد ساعة تلقى خلالها حفنة مكالمات من لمياء تجاهلها جميعا وصل لغرفة الاجتماع فإذا بهم جالسون حول الطاولة، صمتهم ينطق، كأن شخصًا مات حالًا أو كأن شخصًا سيولد حالًا. ولما سدد له رئيس القناة نظرة تنم عن الاحتقار ثم لم يتبعها بأمر مباشر للبجلاتي بالمغادرة دلف الأخير وجلس في أول مقعد شاغر. استأنف مدير التسويق من موقعه في نهاية الغرفة شرحًا بيانيًا كان منهمكًا فيه قبل أن يصل البجلاتي:

"زي ما كنت باقول لحضراتكوا، الرسم البياني اللي على اليمين بيوضح إن نسب المشاهدة في كل البرامج اتضاعفت خمس مرات من الليلة إياها، والرسم البياني اللي على الشمال خلاصته إننا تلقينا عشرين طلب من معلنين راغبين في رعاية "والله فكرة!" بعد ما كان عندنا معلنين وساعات واحد، يعني.. يعني زيادة تسعمية في المية!!! ودي طفرة ماحصلتش في تاريخ الإعلام كله!!"

غرق الجميع في وجوم تام وتعلقت أنظارهم برئيس القناة الذي تمتم بعد برهة:

"إعجاز! مش معقول!"

تشجع رئيس تحرير القناة محفوظ سليمان فأخرج غليونه من فمه وقال:

"أنا لمست ده بنفسي يا باشا. الرأي العام كله متعاطف مع فكرة وشايفها بطلة وشجاعة وماحصلتش!"

وقال مدير الشؤون المالية:

"دي فرصتنا. أنا في أمس الحاجة لضخ كاش موني فوري في خزينة القناة. الناس ماقبضتش من أربع شهور. حضراتكوا شايفين بنفسكوا. إحنا كلنا كده."

جال بنظره في الغرفة ليشمل بحديثه كل الموجودين، ثم عندما لاحظ البجلاتي اكتفى بمطالعته من فوق لتحت قبل أن يسترسل:

"ماحدش فينا استجرى يدخل مدينة الإنتاج النهارده إلا بالحرس الشخصي! ده الموظفين معتصمين تحت المبنى دلوقتي. والله أعلم هنروّح بيوتنا إزاي!"

وعقّب رئيس الشؤون القانونية:

"ده غير الديون المتلتلة! النهارده إحنا مرفوع علينا أكتر من سبعين قضية من ديّانة جوا وبرا مصر. وأنا استنفذت فرص التأجيل في ييجي نصها!"

ومن جديد تكلم محفوظ سليمان:

"أنا شمشمت على حالة الأستاذة، هي طلعت من المستشفى بقالها كام يوم وحالتها زي الفل، معنويًا وبدنيًا"

سأل مدير الشؤون المالية:

"وعرفت منين؟!"

"كلفت حد يكلم أخوها ذات نفسه!"

ارتفعت الحواجب حول الطاولة ذهولًا أن تكون لفكرة علم الدين أسرة وأقارب وأشقاء كبقية البشر. استطرد سليمان:

"أنا رأيي نمضي مع المعلنين قبل ما يغيروا رأيهم، ونستثمر الضجة اللي حاصلة قبل ما تروح في الغسيل زي كل حاجة تانية!"

أفلت الكلام من فم البجلاتي قبل أن يعي أنه يتكلم:

"طب و..؟!"

أوشك أن يسأل عن مصير لمياء النجار لكن شيئًا ما ألهمه أن أول من سيتفوه بهذا الاسم في هذه الغرفة سيعلَن الخاسر في لعبة ما. وجدهم كلهم يرمقونه في انتظار أن يكمل سؤاله، وأشعرته ابتسامة محفوظ سليمان التي اخترقت دخان الغليون بأن الأخير يقرأ أفكاره.

عدّل البجلاتي البوصلة إذن وأكمل سؤاله قائلا:

"طب والبرنامج هيرجع من إمتى؟"

هتف رئيس القناة:

“من بكرة لو أمكن! بس ده مين الوقح أبو وش مكشوف ده اللي يجرؤ يروح يكلم فكرة بعد كل اللي حصل؟!”

انهمك محفوظ سليمان في تسليك غليونه، وانكب مدير التسويق على تنظيف أظافره، وتظاهر مدير الشؤون المالية أنه تلقى رسالة هاتفية، وحدّق مدير الشؤون القانونية في السقف كأنه يتعرف على هذا المفهوم العمراني لأول مرة.

نظر رئيس القناة صوب البجلاتي وطرقع بإصبعيه كمن يستذكر شيئا ثم قال:

“البجلاتي مش كده؟ المنصوري البجلاتي؟”

“خدامك يا باشا! أنا مستعد أكلم أستاذة فكرة!”

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-19-

22 ديسمبر 2035

قد يكون المرء مغمض العينين ويقظًا. وقد يكون مغمض العينين ونائمًا. لكنه في الحالتين يستحيل أن يرى شيئًا مما يدور حوله. وإذا بدت الجملة السابقة بديهية جدًا فهذا لأنها كذلك فعلًا. وإذا بدت زائدة عن حاجة هذا النص فهي ليست كذلك بكل تأكيد.

إذ إن فكرة علم الدين جلست في هذا الضحى الديسمبري في مقعد عنابي اللون مخملي الملمس مريح الهيكل مجاور لسريرها. كان نور شمس الشتاء الرحيمة يتخلل الستار الحريري وكان البيت ساكنًا إلا من زنة مكنسة كهربائية تدور في غرفة بعيدة. عنّ لفكرة أن تغمض عينيها قليلًا عسى أن تهرب من واقع عنوانه الفشل بألوانه. انكسار في العمل وإخفاق في الحب وهزيمة في المعركة ضد الزمن يكللها جميعا تعثر مخزٍ ذريع مروّع في الانتحار.

لكنها استمرت في الإبصار.

لم تسعفها عيناها المقفلتان؛ لم تحجبا واقعًا مريرًا ولا نقلتاها لآخر سعيد. خانتها جفونها فكأن لم تكن: ها هي الستائر، وها هو الفراش، وها هي طاولة الزينة وها هي المرآة.

فتحتهما بأسرع ما أمكنها ونظرت حولها في جزع. هل تخيلت ما حدث للتو؟ هي هلوسة بلا شك ولكنها جديدة النوع!

هل ينضم الجنون الآن لقائمة مصائبها؟

تذكرت ما قاله الطبيب قبل أن يأذن لها بالخروج من المستشفى: رعشة يدها وقِدَم الزناد أنقذا حياتها واقتصرت الخسائر في إصابتين مثيرتين للرثاء: صمم مؤقت في الأذن اليمنى وجرح سطحي في الكتف الايسر، فيما عدا ذلك فالمشكلة مشكلة تروما، صدمة ما بعد محاولة الانتحار.

أحست بقواها تخور وببقايا الطاقة في بدنها تتبخر وتملكها إرهاق مضنٍ وحاجة فسيولوجية لا سبيل لمقاومتها لإغماض عينيها من جديد رغم رعبها من مغبة أن تفعل. أخذت جفونها تتثاقل وتتقارب وأخذت هي تقاوم وتنازع ولكن إلى حين. فسرعان ما تلامست الجفون من جديد؛ ومن جديد لم يتوقف الإبصار. هذه هي الغرفة، النافذة، السجادة، طاولة الزينة. وإذا كان الأمر ليس سيئًا بما فيه الكفاية فالأدهى أنها عندما حاولت أن تفتح عينيها هذه المرة إذا بجفونها تمتنع وكأنها ملتصقة بغراء خارق. وفجأة، أظلم المشهد بوجه تجسد أمامها. وجه قاتم مكرمش، مصمت بلا ثغور، أخذ ينبعج ثم يتمدد ويعود فينقبض، ثم همس الوجه بفحيح ثعبان وبلهجة بدوية هَرِمة:

"لسه ما آن الأوان يا فكرة! وللحين محصنة من كل الشرور. وما يمس منك عدو شعرة! الحين روحي. لسه أوانك ما آن!"

اقترب الوجه الشاذ من وجه فكرة حتى لم يعد يظهر من الغرفة شيء. أحست بطعم رائحته النتنة يمتزج بلعابها ذاته. أرادت أن تنهض لكن ظهرها متسمر في المقعد كما أن جفونها متسمرة

ببعضها البعض. فتحت فمها كي تصرخ لكن صوتها سجين.

سمعت الباب يفتح ورياض ينادي: "فكرة سامعاني؟ فكرة. فكرة."

وكأن لمسة أخيها أبطلت سحرًا ما، ذاب الغراء وتحطمت الأصفاد فهبّت واقفة تلهث وتدير رأسها كالملتاثة:

"مش معقول. مش معقول. هي راحت فين؟!"

استغرق الأمر وقتًا حتى هدأت بما يكفي لشرح ما رأت وسمعت لرياض الذي لم يَبدُ - لخيبة أملها - مصدومًا. قال بهدوء:

"ده توتر طبيعي بعد اللي حصل. هي فين الورقة اللي الدكتور اداهالنا وإحنا ماشيين؟"

تلفت حوله ثم التقط ورقة من فوق طاولة الزينة تحمل اسم المستشفى عنوانها "ردود فعل محتملة". صاحت فكرة:

"ده شوية كلام أهبل! الدكتور ده شكله جاهل!" لكن رياض شرع يقرأ:

"قائمة بأعراض يتوقع حدوثها: صداع، دوخة، إمساك، إسهال"

"إمساك وإسهال!! اتفضل يا سيدي!"

"اضطرابات في النوم، ألم عضلات"

"صدقتني؟ كلام أهبل!! c'est de connerie!"

"اضطراب في التفكير! پانيك أتاكس! خوف غير مبرر! فلاش باكس! شفتي بقى؟! اضطراب وخوف وپانيك!"

"لا لا لا! هي الآخرانية دي يا رياض!! فلاش باك! أنا شفت الموقف ده قبل كده. تقريبا يعني. وحكيت لك ساعتها، ساعة الحادثة!"

"اسمعي يا حبيبتي يا فكرة. أنا بقالي أسبوع وأكتر دلوقتي سايب بيتي وأهلي وحالي ومالي."

"وورشتك!"

"وورشتي."

سدد لها نظرة تقدح بالشرر قبل أن يردف بصوت خفيض:

"برافو عليكي! طب ما إنتي عاقلة أهو ومركزة وبتعرفي تلقحي كلام! أنا سايب ورشتي - يا هانم - عشان الدكتور قال لازم يكون فيه حد معاكي لأن احتمال تكرري محاولة الانتحار. لكن لو إنتي مستمرئة الوضع ده وهتعملي لي فيها مجنونة. يبقى العباسية أولى بيكي يا حبيبتي! عن إذنك أنا دلوقتي عشان عندي عربيات عايزة تتصلح!"

اتجه للباب بخطوات واسعة لكن فكرة جذبته من ذراعه وتوسلت إليه:

"ما تسيبنيش! أنا آسفة! أنا مرعوبة ووجودك مهون عليا كتير. وأنا شاكرة ليك ومش هانسالك وقفتك دي طول العمر."

وقف مكانه وتنهد فأردفت:

"اسمعني خمس دقايق بس وأحلف لك إني مش هاتكلم في الموضوع ده تاني. اقعد يا رياض، اقعد يا حبيبي je vous Adobe Arabic supplie!"

جلس على طرف السرير وجلست هي قبالته على المقعد وقالت:

"الست دي. الشيء ده اللي طلع لي ساعة الحادثة. قالت إنه لسه أواني ماجاش، ودلوقتي كررت نفس الكلام"

"وحضرتك بقى فهمتي إيه؟"

"ما اعرفش! ورحمة بابا ما أعرف! بس الجملة اللي قالتها دي: بتاعة الأعداء مش هيئذوكي والكلام ده. قالت بالضبط: العدو ما يمس منك شعرة"

تجمد الكلام في فمها بغتة وجحظت عيناها وهي تردف هامسة:

"رياض! المسدس! الطلقة ماقتلتنيش!"

"هنرجع للجنان الرسمي! يا بنتي المسدس ده أثري، كُهْنة! فضل مرمي في الخزنة سنين! الزناد كان معصلج من ركنته!"

"نفس كلام الدكتور. وزاد عليه إن إيدي كانت بتترعش فالطلقة طاشت"

"عليكي نور!"

"ده التفسير السهل، بس الدكتور مايعرفش اللي حصل! مايعرفش عن الست اللي بتظهر لي!"

"باقول لك إيه، هو فيه حد بيموت لو أوانه لسه ماجاش؟!"

"لكن هو فيه حد بيسمع الكلمتين دول بودنه ويشوف بعينيه اللي أنا شفته ده؟ بص يا رياض، سيبك من الموت، الأجل يخلص ساعة ما يخلص. أنا اللي يهمني حكاية إني محصنة دي. سهل قوي نختبر الموضوع، يا إمّا العدا وياما أكترهم يخلصوا على بقيتي وأنا في لحظة الضعف دي."

"إيه ده. فكرة علم الدين عندها أعداء؟ يا شيخة قولي كلام غير ده، ده إنتي ست بلسم!"

تجاهلت سخريته وأكملت:

"يا إما لو فرضنا إني قمت تاني، وقفت على رجليا من تاني، تبقى معجزة يا رياض! يبقى فعلا الكلام صحيح! وساعتها بقى أنا ممكن..."

تركت بقية جملتها معلقة وسرت ابتسامة على وجهها فقال رياض:

"إيه؟ ساعتها هتعملي إيه؟"

"قول لي إنت تعمل إيه لو عرفت إنك محصن من الأذية؟"

هنا رن جرس هاتفها المحمول وظهر على الشاشة اسم شيكو. قال رياض:

"غريبة، ما شيكو ده مرزوع هنا من بدري، بيتكلم في التليفون ليه؟"

أضاف وهو يتناول الهاتف:

"على فكرة بييجي كل يوم. الوحيد اللي صاحب واجب من معارفك! آلو؟ أيوه الأستاذة صاحية. واحد اسمه إيه؟ إيه الأسامي العفاريتي دي؟! ويطلع مين بجلاتي ده اللي طالب يقابلها؟"

أنصت قليلا ثم أنهى المكالمة وقال باندهاش:

"رئيس تحرير برنامجك موجود تحت مع شيكو. وبيقول عايزينك ترجعي البرنامج وإدارة القناة موافقة على أي شروط!"

التقت النظرتان: نظرتها مفعمة بالرعب، بالإثارة، تصرخ: ألم أقل لَك؟! ونظرته مفعمة بالثقة: ما يجول بخاطركِ لا يمكن أن يكون صحيحًا.

ثم كأن صفو ثقته تلبد بغيمة شك وهمس صوت ضئيل في رأسه: وماذا لو كان صحيحًا؟!

غمغم بارتباك أنه سيدعها ترتدي ملابسها ووقف في الردهة ليتمالك نفسه. كمن أوشك أن يروح ضحية قطار أخطأه بفارق بوصة. ما الذي أصابه هذا قبل لحظة؟ هل كاد يصدق ترهاتها هو الآخر؟ فتش في محفظته حتى وجد البطاقة التي تحمل أرقام الدكتورة ضحى عبد الله، الوحيدة التي يمكن أن تستدعي فكرة من جديد لعالم العقلاء. أخرج هاتفه وأجرى الاتصال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-20-

"إذا كان للخوف لون فحياة فكرة قوس قزح"

يطيب للقاصّة التي ضلت طريقها للطب النفسي أن تمزج بين عالميها ما تسنى لها المزج. تستعين بأحدهما على الآخر. تنسج رواياتها بخيوط من بوح مرضاها تارة، وتنقب عن علاج مرضاها فيما تكتب تارة أخرى؛ تفتش عن مفاتيح الحل في ثنايا نصوص تخطها بيدها فتتكشف هنالك فقط جوانب ظلت دفينة حتى استخرجها القلم. المشرط والقلم كلاهما يزيل الحجب ويكشف المستور للجرّاح أو الأديب.

منذ هاتفها رياض علم الدين صباحًا وهي غائصة في ملف أخته المتخم بالأوراق. ملف سمين يليق بمريضة قديمة لديها قابلية فريدة للإصابة بشتى أنواع الفوبيا. سمِّ ما شئت من أصناف الخوف ستجد فكرة قد ذاقته من قبل. جولة سريعة في ملفها السمين هذا تخبرك أن فكرة منخرطة دوما في معركة بقاء سرية ضد قطعة أو أخرى من قطع جيش الرهبة.

ما وصفه رياض من هلاوس بصرية وسمعية وحسية قد تؤشر لأي من عشرات الأمراض: من السكيتزوفرينيا إلى الديمنشيا والديليريوم. يستحيل التشخيص عن بعد هكذا، وهو ما أكدت الدكتورة عليه خلال المحادثة. ثم إن الدكتورة تعلم عن فكرة تعاطيها المخدرات الترفيهية ومعاقرتها الكحوليات. وكيف هي يا ترى جودة نومها هذه الأيام؟ رداءة النوم وحدها قد تسبب الهلاوس. التقطت القلم ثانية وواصلت الكتابة:

"يخاف بنو البشر فيتسارع نبضهم وتبرد أطرافهم وتلمع قطرات العرق على جباههم. ثم هناك ذلك الذوبان الذي يصيبهم في قعر البطن؛ عندما تنصهر أحشاؤك وتتحول مشاعرك وآمالك وماضيك وحاضرك بل وكُنهُكَ ذاته إلى حساء. لكن (فاء) تنفرد بأنها تبصر لون خوفها. تراه جليًا وتصفه لي بكل سهولة؛ أخضر كالحسد في عين زوجة زميلي، أبيض كالطيف الذي يسكن مرآبي، وردي كجفني بعد ليلة تفكير في ظلمة مستقبلي.

في حقبة ما تلون الخوف بزرقة سماء ما قبل الفجر. كانت (فاء) حينها مصابة بفوبيا الجن، تنام والبيت مضاء بكامل غرفه، تبقي صوت القرآن مسموعًا والتليفزيون مفتوحًا والباب مشرعًا والبخور سابحًا في الهواء ورغم ذلك تستيقظ موقنة أن جنيًا وطأها في الليل. تؤخر الذهاب للحمام - مرتعهم - حتى تكاد مثانتها تنفجر وتخشى أن يتسمم دمها بالبول المتسرب إلى مجراه. تتردد على من تعرف يقينًا أنهم دجالون وتخصص لهم مبالغ شهرية ثابتة، لكم كانت مكلفة تلك الحقبة الزرقاء! لو خطت فوق ماء مجهول المصدر تمكث أيامًا بانتظار المصيبة التي ستقع بفعل السحر الذي سكب في طريقها عمدًا.

ثم انقشعت الزرقة وحل صفار بلون المرارة، كانت تلك فوبيا الجريمة. لم تعد تخشى الجن بل كانت لتضحك لو أنك اقترحت أن تلك الطقطقة في منتصف الليل هو عفريت يستأذن في الدخول، كانت لتنهرك وتفهمك إنما هي بكل تأكيد خطوات سرّاق قاتل سيذبحها بسكين صدئة، مجرم لا يكترث لأن

تسمع تسلله عجوز تعيش وحيدة اللهم إلا من خادمة نائمة على أحسن التقديرات ومتواطئة على أسوئها. ثم تفاقم الأمر وأضحت كل خادمة سفاحة أو مساعدة سفّاح فتخلصت من جنس الخدم نهائيا - عصيبة كانت تلك الحقبة الصفراء! أصبحت (فاء) ترفض أن تأكل أو تشرب ما لم تصنعه يداها، قاطعت المطاعم وعُرف عنها فيما اضطرت أن تقبله من دعوات أنها لن تشرب إلا ما يفض خاتمه أمام ناظريها."

قلّبت الدكتورة أوراق الملف إلى أن وصلت لواحدة عنونت:

Carcinophobia

واصلت الكتابة:

"ثم تفجرت الأرض بحمم بركانية لطخت الدنيا بحمرة فوبيا السرطان. صارت تتلمس ثدييها كل ساعة. تتشاغل عنهما فيندلع في رأسها صوت يؤكد أنها لا تخدع أحدًا بتصنعها تصفح تلك الصحيفة أو مشاهدة ذلك الفيلم، كذبابة لزجة يزنُّ الصوت بأن تلك الوخزة اللحوح في الحلمة اليمنى جاءت لتبقى، أنها لن تذهب لمجرد أن (فاء) تتجاهلها. يوسوس الصوت الوقح - الذي لا يراعي كون (فاء) على الهواء أو في خضم اجتماع تحريري - أن ذلك الثقل الرهيب في الإبط الأيسر هو ورم زنة نصف كيلوغرام. وعلى مدى الحقبة الحمراء اعتادت السهر لتقرأ عن السرطان حتى تنهار وتهوي في سبات لا يقدر على زعزعته أعتى عتاة الحقبة الزرقاء من الجن أو الصفراء من الإنس. لكن ما كان يزعزعه في كل مرة حرقان أسفل تدويرة الثدي، ما كان يستدعيها من أحلامها سخونة منبعها نقطة غائرة تحت سطح الحلمة. تزور الطبيب فينطق بالحكم: بريئة من كل ضُرّ. فما يكون منها إلا أن تخرج من عيادته لتلج العيادة المجاورة.

من حس الحظ أن المرحلة الصفراء كانت قد ولّت وذهب الشك في الخادمات إذ أصبح وجودهن فجأة مسألة حياة أو موت؛ أضيف لمهامهن الثابتة تحسس ثديي (فاء) كلما اقتضت الضرورة، وإن لزم الأمر فليضطلعن بذلك كل ساعة.

ومن حسن الحظ كذلك أن فوبيا اللمس - التي تزامنت مع كل ما سبق - لم تعق فحص الثدي المنزلي. فساعة أن تنادي (فاء) الخادمة وتسلمها ثديها وتنتظر حكمها وهي تحلل نظرتها واختلاجة صوتها تحريًا للصدق أو الكذب كان محركها حينئذ ذلك الجزء العملي في العقل الذي يقبل استثناءً الاستسلام للمسة أناس كالطبيب والكوافير والماكيير بأن يعلّق فوبيا اللمس مؤقتا ثم يعيد الأمور لطبيعتها.

وما هي طبيعة الأمور؟ "

وضعت الدكتورة قلمها ومسحت وجهها بكفيها لتطرد عنها الإرهاق، فقد أوشكت أن تنتهي. التقطت من الملف ورقة عنوانها:

Haphephobia

وبجواره كانت قد كتبت بالقلم الرصاص:

A very specific trigger/incidAdobe Arabict

تأملتها قليلا ثم استأنفت الكتابة:

"أن يلمس (فاء) أحد هو الرعب بعينه، هو العذاب ذاته. وسواء أتت اللمسة بقصد أم لا، تظل البقعة الملموسة تغلي كقِدر غاضبة لأيام بل وأسابيع. حتى أن (فاء) لم تعد تعتبرها فوبيا. لقد تجذرت في نفسها كطبيعة أصيلة. سألتُها ذات مرة: وما لون تلك الحالة؟ أجابت: لا لون. لا أحدثكِ عن حقبة هنا، أحدثكِ عن أسلوب حياة.

تقديري أن الأمر بدأ مع زواجها. كانت في الثلاثين؛ ناجحة، ثرية، يراها الناس بالتأكيد امرأة تامة. لكنها في الحقيقة كانت بنتًا شرقية عادية، لم يحدثها أحد في أمر العلاقة الزوجية ولم تعرف كيف ستتعامل مع الأمر لكنها لم تجد مبررًا للجزع؛ فما يسري على الأخريات سيسري عليها. لولا أن هذا - لسبب ما - لم يحدث. طرأ عطل ما ولم تأخذ الطبيعة مجراها. نفرت من لمسة زوجها من أول دقيقة ولم يُهزم هو، سلك مسلكًا أحادي الجانب - التعبير العلمي هنا بالقطع هو الاغتصاب. وبعد سنتين ملّ الزوج وأعلنها طالقًا."

وضعت الدكتورة قلمها وأضافت الورقة لمحتويات الملف وأعادته مكانه على الرف. لقد سردت الحقائق الجافة بالأسلوب الأدبي الذي يرتب أفكارها ولم يعد بمقدورها فعل المزيد. لن تبوح لرياض أو غيره بحرف واحد مما يحوي هذا الملف. وليس أمامها الآن إلا أن تنتظر إلهامًا من السماء أو - وهو الأسهل - اتصالًا من فكرة.

لكن رجاءها لن يتحقق، لن تتلقى دكتورة ضحى اتصالات من فكرة بعد اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-21-

25 ديسمبر 2035

جلس محفوظ سليمان ورئيس القناة في مكتب الأخير أمام الشاشة السبعين بوصة التي تتدلى من السقف بسلسلتين من الصلب، بانتظار أن تبدأ أولى حلقات "والله فكرة!" بعد عودته في حلته الجديدة. عبر الأيام الأخيرة شنت القناة حملة دعائية شرسة للبرنامج، بوسترات في الشوارع الرئيسية بالمحافظات السبع والعشرين، صفحات كاملة في الصحف القومية والخاصة، سلسلة لقاءات مع الأستاذة في برامج التوك شو المصرية والعربية بل وفي قناة فرنسية وأخرى أمريكية. أقصى استثمار ممكن لعاصفة الدعاية المجانية التي لم تخبُ منذ حاولت فكرة علم الدين الانتحار على الهواء مباشرة. ولم لا؟ فلا القناة تدفع لمتعهد الإعلان، ولا المتعهد يدفع للصحف، والمسألة كلها تتم طبقًا للفلسفة الاقتصادية العبقرية المسمّاة "الدفع الآجل"، وهو التعبير الأنيق عن المفهوم المصري الصميم الذي يطلق عليه "الشُكُك".

اكفهرّ وجه رئيس القناة وهو يتجرّع فنجانًا من الاسبريسو المرّ، أبدًا لم يحب طعمه لكن زوجته تصمم أن من يحتسونه وحدهم يستحقون الانتماء لفئة علية القوم. ثم انطلق برومو البرنامج بالصوت الرخيم المعتاد:

فكرة علم الدين

تفتح ملف الفساد في الخارجية المصرية

نسأل وزير الخارجية

(تتقاسم صورته الشاشة مع صورة الأستاذة)

أين ذهبت منحة المليار دولار لتطوير سفاراتنا في إفريقيا؟

(تتابع صور لأبنية متهالكة عليها أعلام مصرية بالية في مدن تبدو إفريقية)

حقيقة تقاضي أموال من المصريين العالقين في سوريا وليبيا واليمن مقابل إعادتهم لأرض الوطن

(يتحدث شخص رثُّ المظهر في قهر: كنت شغال فواعلي في ليبيا. الحكومة بصّمتني على ورقة قبل ما أركب الطيارة إن حق التذكرة أسدده في مصر. يا إمّا أتحبس!)

ونتصل بالخط الساخن الوهمي لوزارة الخارجية

(تظهر صحفية تمسك بالهاتف في غرفة أخبار وهي تتنهد وتقول: النمرة مابتجمعش!)

وجديد البرنامج.

مسابقة والله فكرة!

جائزة قيّمة لمن يجيب على السؤال التالي:

سفارة مصرية في بلد عربي تغلق أجهزة التكييف في درجة حرارة تجاوزت الثمانين مئوية كي تجبر المواطنين على المغادرة قبل إنهاء معاملاتهم،

وتسحب أجهزة الموبايل منهم قبل الدخول لتمنعهم من تصوير ما يدور بالسفارة،

في أي بلد تقع هذه السفارة

تابعونا

حملق رئيس القناة في الشاشة مفزوعًا وصاح في سليمان:

"إيه التهريج ده يا محفوظ؟ مش معقول أبدا كده. من إمتى بنتحدى الحكومة بالمنظر ده؟! هي فكرة علم الدين هتعمل فيها ثورجية على آخر الزمن؟"

"ما هو دي الشروط اللي وافقنا عليها، مضيت سيادتك على تعهد إن مايكونش على الأستاذة أي رقابة تحريرية. وآدينا هنتفرج الحلقة دي، ولو الكلام مش ماشي. عادي! نلحس التعهد!"

رن هاتف سليمان فنظر في الشاشة وقرر بعد هنيْهة تردد أن يرد:

"أيوه. ماله راخر مذيع النشرة؟ يعني إيه مش عايز يشتغل يوم أجازته؟! تعبان دي عند أمه! قول له لو ماجاش هيتخصم منه ربع شهر! بتقول إيه؟ هو ماقبضش أساسا من ست شهور؟"

ارتبك قليلا ونظر لرئيس القناة الذي طالعه دون أن يطرف له جفن. التقط محفوظ الرسالة وصاح بصرامة:

"قول له يوم ما يقبض بعد عمر طويل هيلاقيهم ستة إلا ربع. عالم مابتراعيش أكل عيشها!"

بدأت الحلقة وملأ وجه فكرة الشاشة، بدا نضرًا على غير المعتاد، وصار شعرها أكثر صفرة من أي وقت مضى. أشعل سليمان غليونه واضطجع في كرسيه.

افتتحت المذيعة الحلقة بعبارتها الخالدة:

"أهلا بكم في حلقة جديدة من.. والله فكرة!"

سمحت للتصفيق في الاستوديو أن يطول هذه المرة أكثر من المعتاد، كانت بسمة الظفر على وجهها أوضح من أن تخطئها الأعين، وأخيرا رفعت يدين متعطفتين مدججتين بالمجوهرات فمات التصفيق.

"بيقولولي الزملا إن وزير الخارجية مش جاي. أنا الحقيقة ضحكت!"

ثم رفعت رأسها لأعلى وشرعت تضحك بالفعل. بعد لحظات تمالكت نفسها وأردفت:

"بس إيه رأيكوا عندي ليكوا قنبلة: الوزير هييجي! سيادته هينورنا. ويآنسنا. ويرد على تساؤلات البرومو واحد واحد. ماعنديش أدنى شك في ده!"

سكتت وابتسمت بتهكم وحدقت في قلب العدسة ثم أعقبت بما يشبه الهمس:

"عارف ليه يا سعادة الوزير؟ لإنك لو ماجيتش أنا هاذيع الشريط اللي عندي ليك. ومش هاسألك إنت فاكره ولا لأ، ومش هاتظاهر إني بافكر معاليك بيه. لأني الحقيقة واثقة إنك فاهم أنا باتكلم عن إيه. نخرج فاصل!"

ارتفعت موسيقى التتر فهرع محفوظ سليمان إلى هاتفه المحمول يطالع المواقع المختلفة. صفحة قناة ستار في Linkzone حظيت بخمسة آلاف لايك جديد في الدقائق الفائتة فقط، وحساب البرنامج على Twitter ارتفع بمقدار ألفي متابع، ومواقع الجرائد كلها تداولت ما حدث بعناوين مثيرة:

"فكرة علم الدين تهدد وزير الخارجية بشريط قديم"

"قناة ستار تفتح ملف فساد الخارجية"

"عودة قوية لبرنامج والله فكرة!"

شرع هاتفه في الرنين بلا توقف، صحفيون ومسؤولون ووكالات أنباء أجنبية كلهم يحاولون الوصول إليه باعتباره رئيس تحرير القناة. لم يرد على أي منها.

تابع في انبهار الإعلانات وهي تصدح بجنون، ثمانية عشر معلنا جديدا ازدحمت بهم الفواصل في برنامج "والله فكرة!". أما رئيس القناة فجلس هو الآخر مذعورا، يتلقى اتصالًا ويتجاهل آخر كحارس مرمى يتلقف كرة وينحني كي يدع التالية تمر فوق العارضة. سمعه سليمان يتتعتع بعبارات من قبيل:

"معاك حق تماما يا فندم. أنا أؤيدك في كلامك ده. أنا زي جنابك مصدوم ولن أقبل..."

أنهى رئيس القناة آخر اتصال وصرخ في سليمان:

"الحلقة دي تتوقف فورا. هتودونا في داهية الله يخرب بيوتكوا!"

استشعر سليمان خطورة الموقف من رجفة صوت الرجل، وأدرك أن أي حديث عن الزخم الدعائي الحاصل لا قيمة له. أمسك بالهاتف ليعطي تعليماته بوقف الحلقة لكن باب المكتب انفتح فجأة على مصراعيه واقتحم المنصوري البجلاتي الغرفة وهو ينهج ويتصبب عرقا كمن صعد السلم قفزًا ثم قال بين لهاثه:

"معالي وزير الخارجية وصل!"

هبّ الرجلان واقفيْن. صاح رئيس القناة:

"هو فين؟!"

وهتف سليمان بلهجة آمرة:

"قول له يتفضل يا حمار!"

لكن البجلاتي أجاب:

"في الاستوديو يا افندم.. معالي الوزير دخل الاستوديو وبيركبوا له المايكات!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-22-

في البار نصف المظلم الذي يسبح في هوائه دخان السجائر الفضي جلس البجلاتي متململًا. فلولا الصاروخ الجالس بجواره والصوت الأجش الذي يقهقه في أذنه عبر الهاتف لنهض من فوره فغادر هذه الأجواء التي لا يجد نفسه فيها. طرقعت لمياء أصابعها الرفيعة فانعكس ضوء حلبة الرقص على الأحمر القاني الذي طلت به أظافرها الصناعية. أسرع إليها نادل أحسه البجلاتي متعجرفا رغم ابتسامته فطلبت لمياء كأسي مارتيني. ثم نظرت للبجلاتي وأشارت متسائلة: ماذا يقول لك محدثك؟ أجابها بالإشارة هو الآخر أن لا شيء: هو يضحك فحسب.

وهذا بالفعل ما أفنى اللواء الشربيني فيه دقيقة كاملة من زمن المكالمة، يضحك ويضحك ويضحك. ولما أمسك أخيرا - كما يمسك في النهاية كل الضاحكين - أوضح بصوته الغليظ:

"أصل بصراحة وزير الخارجية ده عمره ما نزل لي من زور. خد بالك ده أحرج معالي الوزير في اجتماع مجلس الوزرا اللي فات!"

"أحرج مين؟! الباشا بتاعنا؟! معالي وزير الداخلية؟!"

"تصور!! قال إيه.. هم بيلمعوا صورة مصر في الخارج وإحنا اللي بنشوهها!"

"دي وقاحة منه يا سعادة الباشا!"

"عِمالة وانت الصادق! خد بالك: البلد دي مش عايزة حنتفة وسهوكة وتلميع صور! البلد دي بتخوض حرب شرسة ضد الإرهاب! وكلمتنا في الآخر تمشي على الكل! ساعة ما يكون الأمن القومي في خطر لا يعلو صوت على صوتنا!"

نزل حديث الرجل ترياقًا على نفس البجلاتي المرتعدة. وجد الجرأة ليسأل في تذلل:

"يعني الحلقة ماحرمتناش من رضا سيادتك السامي يا فندم؟!"

انطلق الضحك الأجش من جديد وقال اللواء:

"لا يا واد يا بجلاتي. ماتتحرمش يا خويا. وتحياتي للأستاذة فكرة. معلّمة!"

انتهت المكالمة فناولته لمياء كأس المارتيني وهي تقول بدلال:

"شكل الكلام عجبك يا منصوري!"

ابتلعت الابتسامة ملامح البجلاتي بشكل شبه كامل واستدار في مقعده ليواجهها ويملأ رئتيه برائحة القرفة بالنعناع بالخوخ التي تنبعث عن جسدها. وضع الكأس على المنضدة المنخفضة أمامه - فهو ولله الحمد لا يقرب المحرمات. قال:

"عيون منصوري! عجبني وبس؟ ده الدنيا خلاص كانت اسودت في عيني! إنما الحمد لله، الأسياد راضيين!"

تبخر الدلال واعرضّ صوت لمياء وجحظت عيناها وانتفخ ودجاها:

"راضيين يعني إيه؟ فكرة مكملة؟ وأنا أروح فين يا بجلاتي؟ أدور لي على شغلانة تانية ولا إيه بقى إن شاء الله؟!"

"لا لا لا! ماتخافش يا قمر! دي هوجة ومصيرها هتخلص. خدي بالك إنتي عقدك ممضي وأمورك طَيْبَة على رأي إخواننا الخلايجة! اللي أمنا الغولة فيه ده حلاوة روح مش أكتر!"

وعلى وقع موسيقى غرائبية لم تمر على أذن البجلاتي من قبل تدخل على القلب الوحشة لا الاستئناس، وعلى خلفية رقص غامض يشبه الراقصون فيه ثعابين تتلوى بضجر أكثر من أي شيء اخر، مضى البجلاتي يهدئ من روع لمياء وهو يعلم أنه في الواقع لا يملك من الأمر شيئا، ومضت هي تصغي وتتساءل سرّا إن كان محدثها في الواقع يملك من الأمر شيئا.

****

في نفس الوقت وعلى غير بعيد من البار، في مبنىً فارع رشيق مجاور لماسبيرو، كان وزير الخارجية يجلس مهمومًا. يدخن سيجارًا سمينًا ويتأمل انعكاس مصابيح القوارب السياحية والفلوكات على مياه النيل التي تترقرق عبر نافذته البانورامية، بينما أقرب مساعديه يوشوش في أذنه:

"معاليك متضايق ليه؟ الست ماجابتش سيرة الشريط في اللقاء، ومن ساعتها مافتحتش بقها"

تنهد الوزير ولم يقل شيئا فتكلم محدثه مجددا:

"وبعدين معاليك قبلت الحوار بناء على اتصال مكتب رئيس الوزرا. التعليمات كانت واضحة وجنابك نفذتها بحذافيرها ورحت القناة! يعني مش ممكن يكون فيه أي تحسس تجاه معاليك في رياسة الوزرا!"

"الصحافة يا أخي زي ما تكون ما صدقت! جنازة يشبعوا فيها لطم. ماعادش لهم سيرة غير وزير الخارجية وشريط وزير الخارجية! وأكيد في رياسة الوزرا هيسألوني هم كمان عن الشريط!"

"ما تآخذنيش جنابك. الشريط ده. مليطة بالجامد قوي يعني؟"

"دي حفلة كانت عاملاها في الشاليه بتاعها. ويجوز الواحد كان تقّل شوية في الشرب أو اتبسط له حبة. كلام فاضي يعني!"

"ولا أي حاجة خالص! لو الحكومة رفدت كل وزير يطلع له شريط بالهيافة دي كان زمانها بتعمل تعديل وزاري كل يوم. وبعدين يا فندم لو سمحت لي. ذاكرة مصر زي ذاكرة ذبابة الفاكهة بالضبط. أنا هافكر في أي حاجة نقولها عن الشريط الأهبل ده وثِق إنه زي النهارده بعد أسبوع الموضوع هيكون اتنسى. غير كده حضرتك اتصرفت بأليق ما يكون، رحت بشجاعة لغاية عندها، وقلت لها بالحرف أنا لبيت دعوتك عشان ده حق المشاهد عليا، وتجليت معاليك قوي وإنت بتقول: إحنا خدامين الشعب مش حكامه!"

انبسطت أسارير الوزير ولم يقاوم الابتسام: "خدت بالك إنت؟"

“طبعا! إحنا بقينا بنكبّر برا! وبعد الدخلة الجامدة دي جاوبتها على كل أسئلتها بمنتهى الصدر الرحب. باقول لجنابك إنت خرجت من الحوار ده منتصر، وده اللي جماعتنا في الصحافة والإعلام هيرسخوه في اليومين الجايين”

“أموت وأعرف بس! مين اللي زاقق فكرة علم الدين عليا؟!”

“دي واضحة زي الشمس! هو فيه غير حبايبك بتوع الداخلية؟ مستحيل يفوتولك وقفتك قصادهم في اجتماعات مجلس الوزرا!!”

انصرف الوزير إلى بيته وقد اطمأن لحد بعيد. وبمجرد أن ارتدى منامته واعتمر طاقيته وخلع نعليه وقرفص في السرير رن جرس الهاتف، كان المتصل صحفيًا نافذًا وثيق الصلة بالوزير. قال:

“أنا حبيت أقول لك قبل ما الخبر ينزل وبالمرة آخد منك كلمتين. قرار إقالتك صدر من دقايق. عندك تعليق؟"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-23-

26 ديسمبر 2035

لم ينتصف النهار بعد وها هي المشاجرة الثانية تندلع أمام "الورشة المصرية للميكانيكا - لصاحبها الباشمهندز رياض" كما تقول اليافطة. فبعد الزبون الذي عاد بسيارته ولم يمر ربع الساعة على استلامها معلنا أن العيب هوَ هوَ، ومطالبًا بكل مليم دفعه، وقفت زبونة الآن تثور وتفور، تهدد بالنيابة وتنادي أمين الشرطة وتنذر بالقضاء وتتوعد ببلاطجة من الصعيد. فقد أودعت سيارتها لديهم منذ ردح من الزمن وكلما أتت تعودها تجد أحشاءها مفككة ومصفوفة حولها، لا هي عوفيت ولا هي في وضع يسمح باستردادها.

قد يكون تلويح الزبونة بكل الأوراق المتاحة وغير المتاحة لأخذ حقها قد أفقدها شيئا من مصداقيتها في عيون صبية الورشة، لكنهم رغم ذلك تحلقوا حولها يطيبون خاطرها وإن خان عباراتهم التوفيق. فالسربنتينة تالفة، ولقد أُرسل في طلبها بالفعل لكنها شاحَّة من السوق، ثم إن الكرنك يرفض التعشيق مع الكامة، والبوچيهات تتطلب الإحراق لتخليصها من رطوبة ألمت بها، والحساس مقبول نوعًا ولكن يستحسن تغييره، ومنظومة المياه بها انسداد يحتاج كريستوفر كولومبوس شخصيًا لتحديد مكانه، ولوغاريتمات أخرى لم تفهمها الزبونة وبالتالي لم تُجد في تبديد غضبها.

احتد الاشتباك وتبادل الطرفان ألفاظًا ما كان يجب أن تقال، ولولا أن الزبونة أنثى لتحول التلاسن إلى تلاحم. وفي خضم هذا الجنون وصل رياض يتأبط برواظًا كبيرًا ملفوفًا بورق بني. طالع الزبونة بتبلد واستمع لصبيّه وهو يبرر ما حدث بغياب رياض المتكرر عن الورشة على غير عادته، ما شجع العاملين أولاد الـ... على التكاسل.

رد رياض:

"التمانية وعشرين اللي مصارينها طالعة دي؟"

"هي بعينها يا باشمهندز!"

"طيب يلا يا حبيبي إنت وهو. في ظرف نص ساعة تكون اتقفّلت ورجعت عروسة من تاني. ما تآخذيناش يا مدام. أصل كان عندي ظروف"

وأي ظروف! خمسة أبواب سدت في وجه رياض في الأيام الأخيرة، خمس صفعات على الوجه وخمس ركلات في البطن وخمس لكمات في الصدر. خمس فرص تلألأت في فراغ روحه المظلم كنجمات سيرشدنه على الطريق، ثم أفَلَت.

خمسة رجال وعدوه فأخلفوا، منهم ذاك الذي أضاع معه رياض ليلة مشؤومة في لعب الشطرنج انتهت بأن شهد بنفسه آخر أقربائه الأحياء تحاول الانتحار على الهواء!

كم كان غبيًا عندما صدق أن لمثله فرصة! فما هو إلا ميكانيكي يزحف نحو الخمسين، قرر بغتة أن يستعيد حياته القديمة فيعمل بشهادة تخرجه ويسير على درب أبيه ويتيح لأولاده حياة عاشها من قبل

ثم نبذها عامدًا متمردًا. لكن قراره لا يساوي شيئا، فالكون ليس أسيرًا لنزواته.

ذهبت الزبونة بعد أن شددت أنه سيجدها ها هنا أمامه قبل أن تمضي الساعة. واتخذ رياض موقعه على كرسيه الخشبي أمام الورشة يتنفس هواءً مشبعًا برائحة البنزين. ضرب بعينيه للأعلى فإذا بحب حياته الكبير تراقبه من بين أصص الريحان المرصوصة على النافذة. لو كان بيده لكانت انشراح الآن تطالعه من شرفة قصر يليق بأميرة لا تزال متربعة فوق عرش قلبه منذ اعتلته ذات يوم قبل نصف حياة، لا من شباك غرفة الكراكيب!

بتحديقة وزفرة وثنية فم واعوجاجة عنق أعلمته أنها رأت وسمعت كل شيء، وأنها مستاءة من إهماله مصدر رزقه، وأنها لن تسمح لليوم أن يمر دون أن تتلقى تفسيرًا لحاله الذي انقلب رأسًا على عقب. وصله منها كل هذا دون أن تنبس بحرف فنفحها غمزة بعينه كانت كفيلة أن تنتزع بسمتها انتزاعا. لكنها ما لبثت أن تظاهرت بالعبوس وتقهقرت للداخل. وبمجرد أن أغلقت الشيش قام حاملًا البرواز إلى داخل الورشة، أنزل صورة كبيرة لكارل ماركس كانت تتصدر الحائط وتأملها شاردًا: يا من ضيعت في أوهامك عمري! ها هو عنكبوت قد نسج في زاوية صورتك بيتًا مثقلًا بالتراب، وها أنت ذا، تحملق في منتظرًا أن أزيحه بالنيابة عنك. ستنتظر طويلًا يا رفيق! قطع أفكاره سؤال مساعده:

"ألّا بصحيح يا باشمهندز. هو الأخ يبقى مين؟"

أجاب وهو يناوله الصورة ليخفيها بالداخل:

"ده جوز خالتي!"

شرع يفض الغلاف عن اللوحة الجديدة. تحلق العمال يخمنون: هي آية الكرسي، بل هي سورة الفلق، لكن رياض أجاب أن لا هذه ولا تلك، بل هي شهادة تخرجه - "النسخة العربي".

جاهد نفسه بقية اليوم كي يسترد حماسه للعمل، أليس من صميم الماركسية أن وجع الجسد هو الترياق الوحيد لمعاناة العقل؟ لكنه عجز عن طرد الشعور الغريب الذي لم يعد غريبًا بأن كل هذا لا يعنيه، لا يخصه، فهذه ليست حقيقته. رياض علم الدين ليس الميكانيكي الذي يعيش في منطقة شعبية ويطمح ابنه، قرّة عينه، أن يصير أسطى حرفيًا مثله. رياض علم الدين الحقيقي يحمل بكالوريوس اقتصاد من انجلترا، ارتاد في طفولته مدرسة فرنسية، أمضى عطلاته في سويسرا مع والديه، نشأ محاطًا بالثقافة والكتب والرقي. أي شيطان ملعون هذا الذي زين له أن يضرب بعرض الحائط كل شيء؟ أي رومانسية تلك التي صورت له أنه يضرب "المؤسسة" بينما هو في الواقع يدمر حياته؟ أي نعم القبح سائد، صحيح التمييز متفشٍ، ضد الفقراء والنساء والأميين والأقليات، ضدك أيا كنت ما لم تكن ضابطا أو قاضيا أو طبيباً. ما لم تكن "شيئا ما" إلى جانب كونك مواطنا. لكن ما دخله هو بالموضوع؟ ما الذي أنجزه بتدمير حياته؟ هل أحال القبح جمالا؟! هل ألغى الطبقية وأعلى دولة القانون وساوى بين الجنسين؟!

رن هاتفه فإذا بها فكرة، منتشية بإقالة وزير الخارجية بعد أن خذلها في محنتها ككل الآخرين. حسنا. وماذا تريد منه هو الآن؟

"الله! مش شمتان في المؤسسة؟! مش ده ممثل للسلطة القمعية الفاسدة؟ مش هي دي أفكارك طول عمرك؟"

"بس إنتي ماعملتيش ده عشان هو ابن المؤسسة، ولا القمع والفساد أصلا عاملين لك مشكلة! كل اللي بيحركك شهوة الانتقام!"

"طيب يا رياض! وأنا اللي باتكلم أفرحك! الحلقة الجاية وزير الداخلية! الداخلية يا رياض!"

انعقد لسان رياض فلم يدرِ ما يقول. قالت هي:

"je sais! incroyable!"

أنهت المكالمة وتركته مذهولا؛ بغض النظر عن نبل أو خسّة دوافع فكرة. حلقة كهذه تستحق المشاهدة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-24-

27 ديسمبر 2035

طالع فكرة في المرآة وجه جديد. لقد مُنحت وجهًا جديدًا. ومجانًا بلا بوتوكس. امتلأت التجاعيد وشحبت بقع الكبد السوداء واستقام خط الفك كالوتر المشدود. لكن هذا ليس كل شيء؛ ففي وجهها الآن معرفة لم تكن موجودة من قبل. في عينيها ومضة فهمٍ تشي بمستوى أعلى من الإدراك؛ وكأن غموضًا ما قد انقشع.

لأول مرة منذ أمد تبصر شيئا يرضيها في مرآتها. يليق بها وجهها الجديد. هذه ملامحها إذن بعد أن أشرقت داخلها حقيقة لا تدري كنهها بالضبط، فكل ما تعلمه أن مفاهيم باطلة كثيرة عاشت عمرها تصدقها بداهةً ثبت خطؤها. فمثلًا:

من قال إن الخرافة وهم؟ إن الأسطورة خيال؟ إن الخزعبلات إفك يفترى؟

لمَ لا يكون هناك واقع آخر، واقع موازٍ متوارٍ خلف حجاب رقيق، لا يتراءى لنا إلا لو انكشف عن أبصارنا غطاؤها. قد يولد معظمنا ويموت دون أن يتحقق لهم ذلك، لكن هذا لا يهم، فالواقع مثبت وحقيقي وعجزنا عن إبصاره لا ينال من مصداقيته. إذا سقطت شجرة في جزيرة معزولة لم ولن يطأها بشر فأحدث ارتطامها دويًا هائلًا لم يسمعه أحد وتزلزت الأرض بذبذبات مخيفة لم يحسها أحد، هل ينفي ذلك سقوط الشجرة؟!

تراقصت في مخيلتها وجوه بعض ممن تعرف هكذا بلا ترتيب: رياض، والداها، البجلاتي، لمياء، دكتورة ضحى، شيكو، محفوظ سليمان. كيف ستتغير ملامحهم إن انكشف عنهم هم أيضا الغطاء؟ ماذا ستقول نظراتهم؟

لقد تراءت لها مرتين تلك البدوية التي تعرف أنها ليست بدوية، التي تجزم أنها ليست بشرًا في الأساس. في كلتا المرتين كانت فكرة قاب قوسين أو أدنى من لقاء حتفها: حادثة سير ومحاولة انتحار. أيجعلها ذلك مرسالًا من العالم الآخر؟ جنديًا في كتيبة الموت؟ أهو حانق على فكرة الآن؟ اعترتها رعشة واهتزت صورتها في المرآة. لقد أغضبت كثيرين في حياتها، لكن أن تُغضب مرسال الموت فهي بكل تأكيد سابقة لا تود أن تسجل باسمها.

لكنها أو لكنه - أيا كان الضمير المناسب لهذا الـ"شيء" - ليس غاضبًا بدليل أنه حصن فكرة من الشرور جميعًا. ألهذا أفلتت من الموت في حادثة السير؟ ألهذا أخطأت الرصاصة طريقها؟

أهي لعبة يلعبها معها مرسال الموت؟!

بطبيعة الحال هناك - دائما - التفسير الآخر: أن تكون فكرة تهلوس! ويعلم الله أنها لن تكون المرة الأولى! تعرف أن الأجدر بها الاتصال بالدكتورة ضحى لكن شيئًا ما يخبرها أن هذه المرة مختلفة عن سابقاتها. المسألة ليست هلاوس ولا مخاوف، فهي في مجابهة شيء خارق لن تعذب نفسها في

إقناع أحد بوجوده. ولو أفنت عمرًا في شرحه لطبيبتها النفسية التي تعرف تمامًا تاريخها المرضي الشائك لن تصدقها أبدا.

أنهكها التفكير وأصابها بصداع وحانت أخيرًا اللحظة التي وجب فيها النهوض. وفي المساء عندما توجهت للقناة وراح شيكو يجوب غرفتها في دوائر كأسد حبيس أمرته:

"قول اللي محشور في زورك وخلصني"

"باقترح نأمن نفسنا بضيف احتياطي لحسن وزير الداخلية مايجيش ونلبس في الحيط"

"هييجي"

"من غير مقاطعة! بس أنا برضو محضر بدائل. ضيوف تُقال جاهزين بإشارة من صباعك"

كانت على وشك أن تؤكد له مرة أخرى أن وزير الداخلية سيجيء عندما اجتاح المدعو المنصوري البجلاتي الغرفة فبدا المكان وكأنه فقد فجأة نصف مساحته. دخل بخطوته الخفيفة التي لا تتسق مع بطنه الهائلة وبرائحة عرقه النفاذة. بدا مرتبكًا كما يبدو دائمًا في حضرة الأستاذة. لم يُدعَ للجلوس ولم يجلس. تكلم بسرعة كمن يريد أن ينتهي من مهمة ثقيلة:

"الداخلية عايزة نسخة من الأسئلة اللي هنوجهها لمعالي الوزير"

"هنوجهها بالجمع؟"

"اللي هتوجهيها أقصد يا أستاذة!"

"آه. pardon . مافيش أسئلة"

"يعني إيه؟"

"مش محضرة أسئلة محددة! هابقى أسأل اللي ييجي في بالي!"

تململ في وقفته وطالع شيكو ثم الهاتف ثم الساعة ثم شيكو من جديد قبل أن يقول بنبرة يبدو أنه اعتبرها مقنعة:

"يا أستاذة فكرة. ده حتى البرومو مش بيقول حاجة. خدي بالك عكس برومو الخارجية تماما!"

مد كفه الغليظة في جيب سترة بدت جديدة ورديئة في ذات الوقت ثم أخرج قصاصة وقرأ بصوت عال:

"الليلة. فكرة علم الدين تحاور وزير الداخلية. ملفات ساخنة وأسئلة صريحة. تابعونا"، ثم رفع عينيه من جديد وقال مستجديًا:

"فهمنا إيه إحنا بقى بالصلاة على النبي؟!"

حسنا، سمعت فكرة الرجل يقول بعظمة لسانه إنه لا يفهم. من حقها الآن أن تعتبر رأسه الضخم خاوِيًا، وضيق عينيه سمة الخسة والغباء عوضًا عن العمق والدهاء. ومن منظورها فقد استحق ما

سيناله: لم تفعل شيئا سوى أن أفهمته أن طمأنة أولياء نعمته أمر يعنيه وحده، أنها اشترطت عدم التدخل في برنامجها تحريريا، وأن الشرط قد قبل وهو ما يجعل سيادته رئيس تحرير روحه فحسب، وأن خطوتها التالية ستكون التخلص منه رسميًا وأن ترأس هي تحرير برنامجها بنفسها، إذ لا يشرفها أن تعمل مع مخبر يسوّق نفسه كصحفي.

دائمًا كانت فكرة تعتبر المنصوري البجلاتي تافهًا؛ قد يكون دمية ومرتزقًا وما شابه لكنه غير مؤذٍ. بيد أن النظرة التي سددها لها قبل أن يخرج صافعًا الباب كانت نظرة أذىً خالص، كراهية محضة. لم يكن المنصوري البجلاتي يومًا حليفًا، لكنه صار الآن عدوًا.

وإنه لمن حسن الطالع أن فكرة محصنة من العدو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان أنور محتشمي شخصًا أكبر من الحياة وأشمل من الواقع. صار له في منصب وزير الداخلية خمس عشرة سنة، أي أنه احتفظ بمنصبه بينما رؤساء الجمهورية يتبدلون الواحد تلو الآخر حتى صاروا أربعة. وليس ذلك فقط، بل إنه انتصب كالوتد في مواجهة عشرات التعديلات الوزارية التي عصفت بحكومات كاملة.

ثم إنه أول مدني يُسلم حقيبة الداخلية رغم أنه لم يسبق له العمل في منظومة الأمن على الإطلاق. لقد بدأ حياته في صفوف الحزب الحاكم، ثم تدرج في مناصب هامشية ونال عضوية البرلمان حتى استيقظ الناس ذات صبيحة على نبأ تعيينه نائبًا للرئيس. كان اختيارًا مذهلًا لحدّ أن قيل حينها إن الرئيس - آنذاك - انتقى ذلك النكرة عمدًا كي يخرس ألسنة المعارضة والرأي العام المحلي والدولي بنائب لن يشكل خطرًا حقيقيًا عليه.

وبعد أربع سنوات قضاها محتشمي في ذلك المنصب لم يُسمع له فيها رأي واضح ولا نُقل عنه موقف قاطع، غادر الرئيس دنيانا في مؤامرة حيكت خيوطها بغموض. أغدقت الدولة بالأوسمة على الرئيس بعد اغتياله، ولعل أرفع تكريم ناله كان لقبًا قلبيًا منحه إياه الشعب هو ببساطة "الرئيس الشهيد".

ولمّا استقر الغبار وتجاوزت الأمة فجيعتها جاء رئيس جديد لا يحبذ مسألة النائب تلك ولا يأبه لمعارضة ولا لرأي عام دوليًا كان أم محليًا.

لكن السيد محتشمي لم يقبع في بيته ولا كانت تلك نهايته بل العكس؛ لقد كانت بدايته الحقيقية وميلاده الثاني. فقد هبط بالمظلة على مقر الداخلية العتيد في شارع الشيخ ريحان - وزيرًا لا أقل.

لم يتوقع له أحد الاستمرار طويلا؛ فهو منعدم الخبرة. وإن كان ذلك وحده غير كاف فحقيبة الداخلية شؤم لا يدوم حاملها في موقعه كثيرا، بل يكون أول كبش فداء كلما ثارت زوبعة وتطلب الأمر تسكين الشعب. لذلك امتزج السخط في صفوف قيادات الداخلية بقدر غير ضئيل من الاستهانة. لكن ما حدث بعد ذلك لم يخطر في أحلك كوابيس لواءات الداخلية.

مذبحة بمعنى الكلمة.

لقد كشف محتشمي عن وجه آخر مفترس فتخلص في غضون أربع وعشرين ساعة من أول صفَّين من قيادات الوزارة. بدأ عهده بشعار التطهير وزج في السجون بعشرات من صغار الضباط بتهم انتهاك حقوق المساجين والتربح - الفساد بأنواعه. وبدلا من أن يوغر ذلك صدور الباقين ضد محتشمي أثار رعبهم؛ دانت الوزارة عن بكرة أبيها له بالطاعة والانقياد، الأمن الوطني، الأمن العام، القوات الخاصة، الشرطة، الأمن المركزي. امتثل الكل للقيادة الجديدة ورضخوا لسياسة الحديد والنار.

لذلك كله، ولأن السيد محتشمي مخضرم بما فيه الكفاية، فقد كان يعرف أنه من حين لآخر يجب أن يخرج على الناس فيتحدث إليهم. كان كأغلب الساسة يرى الإعلام شرًا لا بد منه، وكانت نظريته أن معشر الصحفيين أشبه بقطيع كلاب؛ تُلقي لهم حفنة عظام فينشغلون عنك بها، وتُطلق أحدهم على من

تريد فينبح عليه أو يعقره نيابة عنك ويعفيك من المهمة، وتتلطف عليهم بصحبتك من آن لآخر فيشتد وفاؤهم لك.

لم يكن محتشمي قلقًا من محاورة فكرة علم الدين. فهي بنت النظام وكاتمة أسراره. وإذا كانت قد تسببت في إقالة غريمه وزير الخارجية فهو ممتن لها! ثم إن رَجُلَهم في القناة - ذلك الذي يدعى البجلاتي أو العجلاتي أو الزناتي - أحضر نسخة من الأسئلة لم تخرج عن توقعات الوزير. جريئة بعض الشيء، ربما. لكن هذه قواعد اللعبة بموجب ما اعترى المجتمع من نشوء وارتقاء. فقد بات الإعلام يتظاهر بطرح أسئلة متناهية الشجاعة فيتظاهر المسؤولون بتقديم إجابات متناهية الصراحة. فمثلًا:

س: ما ردكم على الاتهامات بإساءة معاملة المساجين؟

ج: إذا أثبتت تحقيقاتنا صحة هذا الكلام فسنتعامل بحسم وحزم (هكذا تقال) مع كل من يثبت تورطه.

يستحيل بهذا الشكل اتهام الإعلام أو المسؤول بالتقصير. نهاية سعيدة لكل الأطراف.

ومن حين لآخر يلزم التذكير بأن البلد تواجه إرهابًا أسود (هكذا تقال) وهو مخرَجٌ عبقري من أي فخ هنا أو هناك.

بهذا الاطمئنان، بتلك الثقة، توجه السيد أنور محتشمي معالي وزير الداخلية في موكب مهيب لمدينة الإنتاج الإعلامي، ثم عرجت قافلته على مقر قناة ستار، ثم ترجل سيادته بخطوته البطيئة فدخل الاستوديو.

حتى لو لم تتعرّف عليه سيقع في قلبك توقيره فور رؤيته؛ نحيل فارع كجبل مكلل بالثلج، متّئد الخطوة، ثاقب النظرة، شحيح البسمة، خفيض الصوت، جليل السحنة.

صافح فكرة علم الدين واتخذ مقعده أمامها. تبادلا دعابة أو اثنتين حول قوة المصابيح وأجهزة التكييف بما يثبت أن البلد لا تعاني أزمة طاقة، ثم بدأ الحوار.

مر الجزء الأول على خير، صدّ محتشمي سؤالًا عن التعذيب في الأقسام، وراوغ ببراعة في سؤال ملابس خبراء المفرقعات الواقية التي تبين أنها غير واقية، وانتبه جيدا لما بين السطور في سؤال عن واقعة اغتيال مجند فوق كوبري أكتوبر، فالمجند أمر بمغادرة موقعه ما أتاح للإرهابيين زرع العبوة الناسفة، ولما عاد فُجرت عن بعد فتشرذم جسده إربا صغيرة تطايرت كقصاصات الورق الملون التي ينثرونها في الأعياد قبل أن تستقر في بطون أسماك النيل. سألته فكرة:

من أمره بمغادرة موقعه؟!

وترجمة ذلك كما فهمها محتشمي:

هل الأمن المركزي مخترق؟!

أفادها والمشاهدين بأنه تبين أن الاتصال الذي تلقاه المجند كان شخصيًا، ويبدو أن الشهيد غادر موقعه لغرض لا علاقة له بالعمل وهو ما يخالف قواعد الخدمة، ما أحدث ثغرة أمنية مكّنت الإرهاب الأسود

من تحقيق غرضه الدنيء. وأردف بربع ابتسامة هي كل ما يسمح به مركزه:

"عموما ربنا يتقبله في الشهداء. وعسى يكون اللي حصل عبرة لأبنائنا المجندين. وقت الخدمة لا يصح تلقي مكالمات شخصية أو مغادرة الموقع لأي سبب شخصي"

-"الاتصال ماكانش من إدارة قطاع الامن المركزي لمنطقة الجيزة زي ما المتحدث باسم الداخلية قال في كل القنوات يومها؟!"

رد بصرامة هادئة بينما ذهنه يسجل ضرورة إقالة المتحدث باسم الداخلية قبل أن يطلع النهار:

"ده ثبت خطؤه يافندم. الاتصال كان شخصي."

تحت قناعه الدمث أغاظه ان تُراجِعَه المذيعة رغم لطف المراجعة، لكنه ارتاح لمّا أدرك أن فكرة ستدع المسألة تمر. طالعته هنيهة ثم انفرجت ملامحها في ابتسامة عريضة. تحولت للكاميرا وقالت:

"مستمرين في حوارنا مع معالي وزير الداخلية. وبعد الفاصل مفاجأة!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-26-

تبادل رياض وانشراح نظرة استغراب، كانا جالسين أمام التليفزيون والشقة نصف مظلمة تغط بنوم الطفلين. أخفضت انشراح الصوت فخفّ صخب إعلانات الرقائق والعقارات والجهات الخيرية التي تشتري دقائق بث نفيسة من أجل إقناعك أنها مفلسة.

سألت زوجها وهي تطوي ساقًا وتضطجع فوقها:

"هو إيه اللي أختك بتعمله ده بالضبط؟! الله يرحم أيام ما الوزير من دول كان بيقعد قدامها يتدلع ويتبغدد. وهي تزايد على عظمته وجماله ودلاله ويبقى ناقص تهشتكه على حجرها!"

أطلق رياض ضحكته التي كادت تُنسى وقال:

"دي باينها هتقلب الترابيزة بحق وحقيقي. بيني وبينك كنت فاكره كلام! كنت باحسبها هترجع تتمسح فيهم تاني!"

تمطى موتسارت وتبختر صوب رياض ثم تسلقه وجثم فوقه، ثم سدد الهرّ لصاحبه نظرته المعهودة التي تجعله في كل مرة يبدو كأنه يتساءل: من أنت؟ أو بالأحرى ما أنت؟ هل أنت نيترات البوتاسيوم؟ أم شهر مايو المقبل؟ أم دور كوتشينة لا يريد أن ينتهي؟ وبعد برهة بدا أنه أُلهم الجواب فأخفض رأسه وانطلق يخرخر بينما راح رياض يمشط فراءه بأنامله ويتابع الإعلانات بعينين نصف مغمضتين.

تأملت انشراح المشهد برجاء يشوبه الخوف؛ هل تسمح لنفسها بالاطمئنان أنه كان مجرد فصل تعس في زيجتهما ذلك الذي انتهى للتو؟ فصل غثّ سقيم قضاه رياض إما نائما أو عابسا ينوء بهمّ الدنيا ويعدد أخطاء حياته لكل من لديه استعداد للإصغاء؟ لن تطمئن حقا إلا لو توقف رياض عن تجاهل حملها. فالطفل القادم ابنه مثلما هو ابنها، وليس إنصافا أن تقل البهجة بقدومه عنها بقدوم سابقيْه وكأن خزّان الحب نضب على حظه. يوجعها أن رياض لم يسألها عما قاله الطبيب رغم علمه أنها زارته صباحا. أوشكت أن تعاتبه، لكنها في اللحظة الأخيرة آثرت أن يدوم صفاء الجو. صفاء. كلمة جميلة واسم أجمل. لو جاءت بنتا ستسميها صفاء، وسترجو أن يكون لها من اسمها نصيب فيعيد قدومها الصفاء الغائب عن هذه الأسرة. أشارت نحو التليفزيون وقالت لا لغرضٍ إلا لسماع زوجها يثرثر كما كان يفعل قبل تبدل الحال:

"الظاهر إنهم أذوها بجد. ومش هتهدا إلا لما تاخد بتارها من اللي تخلوا عنها"

"وانتي الصادقة. الظاهر إنها مصدقة روحها. مقتنعة إنها متحصنة ولا تقهر والكلام الفاضي ده. ما أنا حكيت لك!"

تمطّى رياض وعزم أن يقاوم النعاس حرصًا على مواصلة المشاهدة. أشار لعامود الكتب المنتصب على الأرض كالمسلّة وقال لزوجته:

"باصيلي بقى The Wealth of Nations اللي جنبك ده . آليوه بتاع الجدع أبو باروكة بيضا. آدم سميث. واعملي لنا طقم شاي تاني من إيدك الحلوة خلينا نصحصح حبتين. كله هيبقى خير"

ناولته انشراح الكتاب بتقطيبة جبين. وهل يأتي من وراء رجل يرتدي باروكة بيضاء خير؟! ****

عادت لمياء تمارس العادة المشينة.

عادت صاغرة خزيانة مثلما يعود الخطّاء لإدمانه المحرم، لكنها عادت. كانت أقلعت أعوامًا حتى ظنت أنها عوفيت، ظنت أنها نسيت أخيرًا ذلك المذاق اللاذع لخيبة الأمل: نكهة امتزاج الخلايا الميتة بالجلد الحي والدم وبتروكيماويات الطلاء والقاذورات المعجونة في ذلك كله في فمها.

والحديث هنا هو عن قرض الأظافر، تلك اللذة الفتاكة بالمظهر، المهلكة لكل ذرة ثقة بالنفس.

يعود اكتشاف لمياء أن لخيبة الامل مذاقها الخاص لأيام الطفولة. كانت كلما اعتراها ضيق أو حرج أو ملل ترتفع أصابعها هكذا من تلقاء نفسها لفمها، وتعكف أسنانها على مهمة تمزيق أظافرها إربا. والآن ها هو المذاق يعود فيترسخ في خلايا لسانها؛ ففي ساعة كهذه لن يثني لمياء شيء عن قضم أظافرها ومضغها وابتلاعها إلى أن يفسد طلاؤها الذي كبدها مبلغًا باهظًا وتلتهب أناملها وتحترق بوخز قروح يسيل عبرها الدم.

كانت تفعل ذلك وهي تجلس وحيدة في غرفة الأخبار - فقد هرول الجميع إلى الجاليري ليتابعوا سير الحلقة من هناك. نظرت حولها بقرف. عليها أن تجلس وسط تلال الأوراق والجرائد وأطلال الفول والطعمية والكشري وسلال المهملات الطافحة ومطفئات السجائر الزاخرة وأجهزة الكومبيوتر الطنانة وتحت أضواء مصابيح نيون بائسة تعزز رغبة المرء في إيذاء نفسه. مر كل هذا الوقت ولم تخصص لها غرفة بعد! كلما سألت قيل لها إنه لا يوجد غرف شاغرة؛ في ظنها كانت الإدارة تعوّل على رحيل فكرة علم الدين بحيث ترث لمياء البرنامج والغرفة في صفقة واحدة.

حملقت في شاشة التليفزيون الأثري حيث تتلاحق الإعلانات، أحصت واحدًا وعشرين معلنا ولمّا ينتهي الفاصل بعد.

تتذكر جيدًا كيف كان هناك معلن يتيم - أو ربما اثنان عندما ينتعش العمل - فيضطر التنفيذ لملأ الفواصل ببروموهات عن بقية البرامج. كم اختلفت الأمور!

راجعت هاتفها مرة أخرى على أمل أن يكون محفوظ سليمان قد رد على رسائلها واتصالاتها فلم تجد شيئًا. والجديد أنها لم تجد شيئًا من المنصوري البجلاتي وهو الذي يلاحقها عادة طول اليوم كل يوم. على كل حال لم تكن لتجيب البجلاتي إن اتصل، لقد توقفت عن قبول مكالماته منذ تأكد لها أنه صعلوك لا يملك خيوط اللعبة، بل لم تعلق في أصبعه فتلة واحدة على سبيل الخطأ من تلك الخيوط.

إنها تجاهد الآن للنفاذ لمن هو أعلى، ولكن كل الأبواب موصدة. وها هي الآن. تأتي للقناة فلا يكترث لأمرها أحد. والأدهى ما حدث اليوم وهي تدخل المبنى. تلك الساقطة النكرة - مونتيرة تقف وسط حشد من المونتيرين - التي رمقتها بوقاحة من قمة رأسها لأخمص قدميها بأداء مسرحي يصرخ: "كم أحتقرك!" وسارت لمياء مشيعة بضحكات هؤلاء الغنم بعد أن كانوا - فتيات وشبابًا - يتسابقون لالتقاط الصور التذكارية معها باعتبارها قنبلة الإعلام المقبلة!

ولِمَ يكترث لأمرها أحد؟ أليس الوزراء داخلين خارجين على القناة للقاء "الأستاذة"؟

جلست تحت المصباح النيون تزدرد أظافرها وتبتلع البتروكيماويات والقاذورات وتلعق نزف القروح وتطالع الإعلانات وتفكر. متى حدث كل هذا؟

كيف انقلبت الآية بين عشية وضحاها؟

كيف عادت فكرة من غياهب الهزيمة والضعف واليأس الذي بلغ حد الانتحار؟ كيف وثبت من عثرتها ورجعت - حرفيًا - من العالم الآخر؟

لو لم تكن لمياء تفهم لظننت أن في الأمر سحرًا ما!

* * * *

"لا عال.. عال.. هي بس تخف نبرة التحدي اللي في صوتها دي حبتين"

"دي شوية حركات قرعة لزوم الصراحة والراحة والذي منه. إنما حاضر يا فندم، أوامر معاليك"

"هتقول لها يا بجلاتي؟!"

"هاقول لها طبعا يا فندم! هاقفل مع سيادتك وأجري ألحقها قبل الفاصل ما يخلص".

وفي سرِّه دعى الله أن يسامحه على هذا الكذب المبيّت. فليس لديه أدنى نية أن يسدي لأمنا الغولة توجيهات من هذا القبيل ولا من غير هذا القبيل، إذن لمزقته بأسنانها أمام أكابر القناة وأحاقرها.

"لا عال عال. ومعالي الوزير شكله مبسوط. خد بالك أنا باقراه من نظرة عينه! إيه بقى المفاجأة اللي بعد الفاصل؟"

"أهي شوية حبشتكنات لزوم الإعلانات يا سعادة الباشا. مافيش مفاجآت ولا غيره، مافيش حاجة هتخرج عن المحاور اللي سلمتها لجنابك وأنا مسؤول قدامك"

أنهى اللواء الشربيني المكالمة مرتاحًا، واعتصر البجلاتي عينيه وجفف عرقًا تجمّع تحت أنفه وفوق حاجبيه وانهمر من تحت إبطيه وهو يتمتم شاكرًا للستّار ومتوسلًا ديمومة ستره. لقد جازف بالكثير عندما سلم مكتب الوزير نصًا وهميًا لأسئلة الحوار التي رفضت فكرة كشفها. وهل كان أمامه سبيل آخر؟ هل كان بمقدوره مثلا أن يتصل باللواء الشربيني فيقول: آسف والله. المذيعة لن تفصح عن أسئلة اللقاء؟ أي جنون هذا؟ إذن فما الغرض من زرعه في القناة؟ ما الفائدة من إقحامه مجال الإعلام والصحافة من أصله؟ لا بد أن يثبت لهم كل دقيقة أن وجوده حتميّ حيوي ضروري جامع مانع لا غنى عنه. وإلا طار عنقه أدراج الرياح.

عبر الباب الثقيل سمع هتاف المخرج:

"يلا.. راجعين من الفاصل.. ستاندباي.. عشرة.. تسعة.. تمانية.."

دفع الباب ودلف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-27-

"معالي الوزير.. في سنة 2020 يعني من خمستاشر سنة، كنت حضرتك نائب رئيس"

انفرج فمه عن ربع الابتسامة المعهود وقال وهو يرفع كفا ترقّشه بقع الهِرَم:

"ياه. الكلام ده فات عليه كتير"

"لكن دي سنة محفورة في ذاكرة مصر كلها. سنة اغتيال الرئيس الشهيد!"

هز رأسًا وقورة وهمهم:

"رحمة الله عليه. شهيد الواجب والوطن!"

"النهارده هننتهز وجودك معانا وهنفتح الحقيقة الملف ده"

لمعت الحيرة في نظرته الثعلبية لكن فكرة لم تعطه فرصة للرد، تحولت للكاميرا وقالت:

"في قرية صغيرة اسمها ميت أبو النور في آخر أصقاع الدقهلية. الحقيقة إحنا بعتنا فريق من البرنامج هناك. إيه رأيكوا هنتفرج سوا"

ضغط المخرج زرًا فاختفى الاستوديو بمن فيه واخضرّت الشاشة. مسحت الكاميرا بتمهل حقلًا واسعًا ترقّطه بقرة هنا وحمار هناك. ثم بدأ العويل، سُمعت شهقات العجوز قبل أن تظهر، ثمانينية ضامرة أحناها الدهر، تفترش الأرض في كوخ من الخشب على أطراف الحقل وتحتضن صورة كبيرة في برواز بخس لشاب يبدو في العشرين أو نحوها.

تتضرع وسط النشيج:

"خمستاشر سنة ما اعرفش عنه حاجة. مصطفى ضنايا وآخر خلفتي. اللي قده اتجوزوا وخلفوا. ما اعلمش يابني فين أراضيه!"

ركزت الكاميرا على وجه الشاب في البرواز، نظرته فارغة؛ لا تقول شيئًا. نظرة تفقدك عقلك لو أنك حدقت فيها خمسة عشر عاما متتالية باحثًا عن إجابات.

ثم تحول المشهد لرجل بدين يرتدي جلبابًا كالمزارعين ويقف في عشة متواضعة، تكلم وهو يلصق فمه في الميكروفون ويستميت لانتزاعه من يد حامله:

"أخويا الاصغر مني طبعا يبقى ملازم أول مصطفى عبد الحميد عطية. واخد بالك."

يئس من انتزاع الميكروفون فأخفض يديه وعقدهما أسفل بطنه وأردف:

"كان شغال في حراسة الريس طبعا سنة ألفين. الريس اللي اتسمّ. نسيت اسمه. الريس الشهيد آه. واخد بالك. ومن ساعة الاغتيال طبعا أخويا فص ملح وداب. لا شفناه ولا عارفين له طريق جرة. آخر مرة

كلمني وكلم أمي طبعا قبل الاغتيال بتلات أيام. وقال إنه فيه حاجات مهمة هتحصل في البلد. واخد بالك. وإنه خايف. وإنه مش هيقدر ييجي قريب. بس قال هيبقى يتكلم. ولا اتكلمش!"

تتبعت الكاميرا حركة يده وهو يستعرض متعلقات أخيه: "دي فرشته. ودي طبعا بدلته الميري التانية كان سايبها هناهو، واخد بالك. وديكها شوية خلجات وطبعا بُلغته. ماحدش بيقرب لحاجته. أمي طبعا مستنياه يرجع. لو كان عايش يبقى عنده تسعة وتلاتين سنة. سألنا عليه في كل حتة. أقسام ومستشفيات وإعلانات في الجرانين. ماسبناش طوبة إلا وقلبناها. واخد بالك. وعملنا محضر في القسم. وطبعا مش لاقيين له أتر"

يتحول المشهد مرة أخرى للكوخ وللثمانينية الباكية، تحتضن البرواز فوق ثدييها الخاويين وكأنها تقبر ابنها في قفصها الصدري. أخذت تتأرجح للخلف والأمام وتنتحب: "منى عيني أشوفك قبل ما أموت يا ضنايا يا مصطفى يا حبيبي"

اقتربت الكاميرا من متاهة الأخاديد على وجهها ثم تجمدت على عينيها، راحتا تعتصران دمعة متمنعة حتى انبجست أخيرا، سمينة بالقهر وحبلى بالحسرة. ترددت الدمعة في ركن المقلة قليلًا قبل أن تجد طريقها بين الأخاديد.

ومن جديد عاد المخرج إلى الاستوديو ومن فيه، تأملت فكرة ضيفها برأس مائلة وحاجبين مرفوعين، ولما لم يتكلم قالت:

"يا ترى حضرتك تعرف ملازم أول مصطفى عبد الحميد عطية؟"

مسح جبهته بمنديل وسأل بدوره:

"يا ترى حضرتك تعرفي كام بلاغ مفقودين بيتعمل كل يوم؟"

"بس ده كان فرد في حرس الرئيس الشهيد و..."

قاطعها بعصبية:

"أيوه أيوه سمعت التقرير. يستحيل أفتكر كل الناس اللي كانت شغالة في القصر. الكلام ده عدى عليه كتير قوي!"

نظر في ساعة معصمه ثم جال بناظريه في الاستوديو كمن يهمّ بالمغادرة وبدأ يقول:

"متهيألي كفاية."

لكن فكرة قاطعته بنبرة رقيقة على غير العادة:

"إحنا خلصنا! فاضل عندي مادة واحدة!"

استدارت للكاميرا وقالت في عجلة:

"شغل الشريط"

والشريط صامت تماما. تسجيل بالأبيض والأسود رديء كحال تسجيلات مطلع الألفية، من تلك التي تلتقطها كاميرات المراقبة. تظهر فيه غرفة نوم عادية وإن كانت كبيرة نوعًا، منمقة للغاية، يتصدرها سرير عريض ومنضدتان على جانبيه، وخلفه ستار مسدل، وفي أقصى اليسار خزانة ضخمة لا تظهر كاملة.

في زاوية الشاشة اليمنى السفلية عداد وقت رقمي تتقلب فيه الأرقام بسرعة الثانية، وإلى أن وصلت الثواني لعشرين كانت الغرفة خالية. ثم ظهر في أقصى اليمين شخص يكثر من الالتفات حوله. سرعان ما تبين أنه ملثم بمنديل أو شيء من هذا القبيل، رغم أن رداءة الصورة ما كانت لتظهر ملامحه لو كان وجهه مكشوفًا. ليس به ما يميزه سوى طوله ونحافته. اقترب بخطىً حذرة من السرير وتوقف عند المنضدة. أخرج شيئًا من جيبه وعبث به بكلتا يديه؛ قارورة على ما يبدو. أفرغ محتوياتها في إبريق ماء على المنضدة ثم خرج من حيث دخل.

التسجيل كله بالكاد يستغرق دقيقة عادت الكاميرا بعدها للاستوديو من جديد لتنقل مشهدًا مفاجئًا: فالمذيعة والضيف قد وقفا يتصايحان بكلام متطاير لا يكاد يُفهم.

أمكن تفسير بعض من صياح الوزير:

"دي مؤامرة! فيه أمر منع نشر! أنا أحبسك!"

وأمكن تبين بعض من صياح المذيعة:

"مصادري لا أفصح عنها! ما اتخلقش اللي يهدد فكرة!"

استمر هذا الهرج بضع ثوان ترقرق في أعقابها تتر النهاية هادئًا رائقًا ثم ظهرت لوحة تقول "برعاية.."

****

وفي منتصف تلك الليلة اشتعلت مصر بقرار رئاسي بإقالة وزير الداخلية السيد أنور محتشمي من منصبه الذي أمضى فيه خمسة عشر عاما، وإحالته للنائب العام للتحقيق في جريمة اغتيال رئيس مصر الشهيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-28-

الفكرة هي الهبوط لا الصعود. الوجهة للأسفل لا للأعلى. أهديتك جاروفًا لا سلَّمًا. الغرض تعميق الهوة لا تسلق جدارها. بيني وبينك عهد أبرمه معي تاريخك والثمن هو تعاظم مجدك. أما وقد أخليتِ بالعهد فأحذرك! سأنزع عنك حصانتي! ولن ينجيكِ مني إلا الموت يا فكرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-29-

28 ديسمبر 2035

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي كان رياض يقود سيارته كالمحموم؛ تنزلق أصابعه من على المقود، رأسه يدور ومقلتاه محتقنتان. لم ينم أكثر من ساعة أو اثنتين طوال الليل.

كان متجهًا لفكرة التي أطارت النوم من عينيه ومن عيون مائة وأربعين مليونا آخرين.

لقد خابرها هاتفيًا بطبيعة الحال بمجرد انتهاء الحلقة. لم يعرف كيف يحتوي فرحته بما شاهده للتو - فقد انتشى بالمهانة والفضيحة والخزي والعار الذي ألمّ بغول الداخلية أنور محتشمي بعد أن قرّ في وجدان المصريين أنه غير قابل للرحيل، أنه إله الفساد في حوض المتوسط وشمال إفريقيا، أنهم سيموتون ويموت أولادهم وهو بعده في السلطة مثلما ولدوا وهو فيها.

في غمرة إعجاب رياض وانبهاره، في خضم الحفل الهاتفي الذي أقاماه بصيحاته وضحكاتها حاول أن ينبهّها للخطر المحدق بها الآن، فما فعلته فكرة لا يعدو انتحارًا آخر، أكيدًا هذه المرة، أشد فتكا من تسديد طلقة للجمجمة. لكنها أسكتته قائلة إنها تعلم ما تفعل وإنه لن يقع مكروه. أراد أن يأتيها من فوره فقالت إنها الآن ستنام وهو ما أبهره أكثر؛ فكيف لعينيها أن تغمضا في ليلة كهذه؟! ثم أردفت أنه بمقدوره إن أراد أن يصحبها في مشوار النيابة، لقد جاءها استدعاء رسمي وعليها المثول أمام النائب العام في تمام التاسعة صباحا.

أمضى ليلته يتحول من قناة لأخرى ومن موقع إنترنت لآخر، لم يعد لمصر حديث سوى فكرة علم الدين، تأجج Linkzone بذكر الرئيس الشهيد، من كانوا رضَّعا وقت اغتياله غيروا صورهم الشخصية لصورة الزعيم الذي رُدَّ من الموت. يذكر رياض جيدًا كم كان الرجل محبوبًا، اقتربت مصر في عهده الذي استمر أربع سنوات إلى نموذج التعددية ومفهوم كرامة الإنسان أكثر من أي وقت قبل ذلك أو بعده. لكن صاروخ شعبيته انطلق حقًّا بعد أن قُتل.

ويذكر رياض جيدا لحظة أن بلغه نبأ الاغتيال، كان حينها واقفًا أمام قبر أبيه وأمه في البساتين يبحث عن مشاعر. حزن أو غضب أو حب أو أسف أو حنين. أي شيء سيعدُّ أفضل من الخواء الذي يملؤه. كان قد مضى شهر على مقتلهما في حادث سيارة وكانت تلك أول زيارة منه.

ها هو ذا، يقف كتائهٍ جلبته قدماه إلى هنا بالخطأ، يطالع نبتة غضة انبجست في عناد عبر شق في بلاط الضريح معلنة التمرد على إقفاره، تتشبث عيناه بخضرتها ورقّتها وعبثيتها، عسى المنظر يبدد الهول الذي يتراءى له؛ فلعمره إنه يكاد يبصر عبر البلاط الجثمانين الممددين أسفله ويذوق حموضة تحللهما على لسانه ويسمع الذباب الأزرق يطنّ في قوقعة أذنه. ظل يحاول بلا جدوى أن يجد شيئًا يقوله لأمٍّ وأبٍ لم يرهما منذ ثماني سنوات ولم يسعيا لرؤيته طيلة ثماني سنوات عندما اندلع الجنون بالخارج، أناس يهرولون ويتنادوْن، نسوة تلطم الوجوه وتشق الجيوب، وصوت مذيع ينفجر من أكثر من مذياع في نفس الوقت فترتطم الموجات الصوتية المتطابقة في منتصف الطريق مرجعة صدىً أصاب رياض في نخاع عظامه.

خرج حينها يستفهم فقيل له:

"الريس مات.. بيقولوا الإسلاميين سموه!"

وقبل أن يسجل عقله معنى الكلمات لمح من بعيد پورش سوداء يعرفها جيدا لأنها سيارة أبيه. لقد اختارت فكرة اليوم بالذات الذي هو ليس جمعة ولا خميسًا ولا الأربعين لتزور أبويها هي الأخرى. غادر في عجالة، لا يشغله شيء إلا الفرار من مواجهة فكرة.

وها هو الآن، يقود سيارته متجهًا لبيت فكرة ويقلب بين المحطات الإذاعية. سيذهب اليوم في التاريخ المصري الحديث كالعيد القومي للمحللين الاستراتيجيين، غصّت بهم البرامج وأفردت لهم ساعات البث، يحللون وينظّرون ويفتون ويتصورون ويستشرفون ولا-يستبعدون. تتراوح مقولاتهم بين التساؤل عن دوافع فكرة ولماذا صمتت طيلة هذا الوقت ولماذا قررت التحدث الآن، وبين المطالبة بدولة القانون الحقيقية التي لا تستثني أحدا وإن كان محتشمي نفسه، مرورًا بالكثير والكثير من الحديث عن الرئيس الشهيد وإنجازاته وإرثه الذي ضيعه مَن بعده.

وعلى سبيل الفصل بين محلل وآخر تذيع المحطات بهستيريا تصريحًا مقتضبًا أدلت به فكرة - أو صرخت به كظفر يصرخ على سبورة - لجحافل الصحفيين الذين تزاحموا على سيارتها وهي تغادر القناة في الواحدة صباحا:

"هي دي رسالة الإعلام. الناس لازم تعرف. وأنا مستعدة أواجه التبعات في سبيل رسالتي".

وصل رياض في نحو الثامنة فوجد مهرجانًا بالخارج، دستة أشخاص ما بين رجل وامرأة يقفون أمام الفيلا أو يقرفصون على سلّمها. تلمّس موطئًا لقدميه بينهم وصعد السلّم مشفوعًا بنظرات الاستغراب كأن وجوده هو الذي يحتاج إلى تفسير. توقف هنيهة قبل أن يلج الباب فأحصى خمس سيارات ملاكي إلى جانب سيارتي أخته، وأربع حافلات ميكروباص تحمل أسماء صحف وقنوات تليفزيونية ليس من بينها "ستار"، فتح نافذةَ إحداها شخصٌ بدا وكأنه أمضى ليله في موقعه هذا، صاح بنعاس مناديًا على رياض: "كابتن. حضرتك تبقى مين؟"

تجاهله ومضى للداخل حيث استقبلته فكرة بابتسامة الظفر التي لا تريد أن تنمحي من وجهها منذ أيام. كانت منتصبة في وسط القصر ترتدي بدلة كحلية وقميصًا أبيض وحذاءً عالي الكعب، وكان شعرها مصففًا ووجهها فائقًا ملونًا بالأصباغ وعنقها مزدانًا باللآلئ. وكان شيكو واقفًا بجوارها يعبث بهاتفه المحمول. تقدم لمصافحة رياض واكتفت هي بإيماءتها المعتادة - فقد لاحظ رياض عندما استُؤنفت العلاقات بينهما أنها لم تعد تصافح أو تلمس أحدًا. أشارت للأريكة حيث جلس أربعة رجال يرتدون بدلات غامقة. قالت:

"الأساتذة المحامين متطوعين، ومصممين ييجوا معايا!"

أتت الخادمة تحمل فنجان قهوة أخذته فكرة وقدمته بنفسها لرياض:

"بسرعة عشان المعاد. pas de temps"

غزت رائحة الكافايين خلايا مخ رياض وقال قبل أول رشفة:

“مستعجلة على إيه؟ إنتي هتتسجني!”

“مش هاتسجن”

تجاهلها وصاح من فوق رأسها:

“ماريا! حضري لها شنطة وماتنسيش علب السجاير!”

ثم أخفض صوته موشوشًا:

“السجاير في السجن أبرك من الفلوس!”

التفتت وراءها وصاحت:

“ما تحضريش حاجة يا ماريا”

ارتشف رشفة أخرى وتأملها قليلا ثم قال:

“عمرهم ما هيتخلوا عن الراجل بتاعهم. أنا برضو اللي هافهّمك؟!”

لكنها اكتفت بالابتسام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-30-

لم يمض وقت طويل بين وصول رياض وبين خروجه وفكرة والآخرين، ورغم ذلك فقد تضاعف في تلك البرهة القصيرة عدد المتجمهرين بالخارج مرتين أو ثلاث.

للوهلة الأولى وجلت فكرة من المشهد، من هؤلاء وماذا يريدون؟ هل يلمسها منهم أحد؟! عقدت ذراعيها أمام صدرها ودفنت كفيها في الإبطين. إنها لا تذكر آخر مرة اضطرت فيها لمحادثة أفراد الشعب العاديين، "البسطاء" كما تقتضي اللياقة وصفهم رغم أن فكرة تستخدم عادة ألفاظًا أقل لياقة في ذلك المقام. لكنها رأت ما احتبست له أنفاسها: في عُرض بحر الوجوه كان وجهها هو الآخر هناك، كبيرًا مؤطرًا يقبّ ويغطس، فبعض المتجمهرين يحمل صورتها على عِصيٍّ من خشب. تبدل خوفها شيئًا دافئًا آخر لا تعرف له اسمًا، أو بالأحرى نسيت اسمه. أهو الزهو؟ الفخر؟ أهكذا الإحساس بأنك محل تقدير؟ هُيئ لها أن قدميها لا تلامسان الأرض، أنها تحلق فوقها شبرا او اثنين بجناحين خفيين.

فرد رياض ذراعيه كحاجز يصد الجموع عنها وفعل شيكو مثله من الجانب الآخر وتمكنت أخيرا من بلوغ سيارتها وهي تسترق النظر للافتات المرفوعة: محتشمي قاتل. الحرية للمعتقلين. هاتوا ولادنا من الزنازين.

تزاحم الناس حولها، صحفيون ومراسلون وأهالي، وتداخلت نداءاتهم:

"مين اللي في الشريط"

"مين قتل الريس الشهيد"

"ولادي التلاتة ماشفتهمش من سبع سنين"

"أخويا مات في القسم ومش هيدّونا الجثة إلا أما نمضي إنه انتحر"

"إلهي ينصرك وتوصلي صوتنا"

"كلمة للناس يا أستاذة"

لم تكن فكرة تعتزم الإدلاء بتصريحات، فقد قبلت بالفعل لقاءً صحفيًا وحيدًا ستجريه في المساء اشترطت أن يذاع على الهواء مباشرة تفاديًا لأي تحريف. لكن المشهد أقوى منها. لأول مرة في مشوارها الذي لا تريد إحصاء سنواته تجد نفسها قريبة من جمهورها هكذا - حرفيا لا على سبيل المجاز. تشم رائحتهم وتقرأ التعبيرات في أعينهم بل وإن شاءت تصافحهم. وكأنها تدرك الآن فقط - متأخرة حفنة عقود - أن خلف عين العدسة الباردة هناك بشر من لحم ودم يسمعون ويبصرون ويتنفسون، يُفجعون ويفرحون ويفتقدون أحباءهم ويتعايشون مع أقدارهم ويموتون ويولدون، ويتأثرون في ذلك كله بما تقوله هي، بما تفعله هي.

فتح شيكو الباب الخلفي وهمّت بالجلوس ثم عاد الصوت نفسه ينادي:

"كلمة للناس يا أستاذة"

تجمدت مكانها ونظرت للحشد فحط عليه الهدوء. لم تعرف أي "كلمة" تلك التي يتوقعونها منها، وماذا لو لم ترق كلمتها لمستوى توقعاتهم؟ لو لم تتناسب مع عمق الثقة في نظراتهم؟ لو أفقدتها احترامهم هذا الذي تراه في أعينهم؟ أليس الصمت أفضل؟ لكن لسانها رغمًا عنها نطق بما يعتمل في ذهنها:

"أنا آسفة إني ماقمتش بدوري ناحيتكم. بس ماحدش أبدا نبهني إني مقصرة، بالعكس.."

بمجرد أن تكلمت أصابها الندم واستقر في وجدانها أنها تهورت فتفوهت بهراء سيثير السخرية والرثاء. سادت لحظة صمت عمرها ألف عام ثم علا التهليل من كل صوب. هوت في المقعد وصفع شيكو الباب وهرول لمقعد القيادة. وجلس إلى جانبه رياض الذي راح يرمق أخته بمزيج من الصدمة والفخر والذهول والإعجاب والبهجة في صورتها الطفولية الخام. وانطلقت السيارة مشفوعة بموكب من عربات المحامين وحافلات الصحفيين.

وأمام دار القضاء العالي في شارع 26 يوليو كان الكارني□ال مشابها: تجمهر ولافتات ومراسلو فضائيات يتحدثون أمام كاميراتهم وبسطاء يحملون صورة فكرة.

استغرقت الجلسة ساعتين، غير أن فكرة فهمت في دقيقتين أن الأوامر صدرت من فوق بسحق محتشمي سحقًا، بجرشه وهرسه وفرمه وطحنه ثم نثر البودرة لتذروها رياح كيهْك المحملة بالأتربة. فقد كان سيادة النائب العام منشرحًا مقبلًاعارفًا للقدر غير باخلٍ بثناء ولا مديح. وكانت فناجين القهوة الفواحة وأكواب الماء المثلج لا تفتأ تدخل ملأى وتخرج فارغة.

وأخيرا طُلب من فكرة التوقيع على أقوالها ففعلت، والتوقيع على تعهد بعدم الحديث للصحافة فلم تفعل.

تأرجح قلمها فوق التعهد قليلًا وهي تحسم أمرها، أتعقّد حياة الجالس خلف المكتب فترفض، أم تتعهد ثم تنتهك تعهدها وليصِر ما يصير؟ وأخيرا لطمت الإمضاء على الورقة وطالعت سيادته بابتسامة كبرى وسألت بلطف:

"أقدر أمشي؟"

أجاب:

"مع ألف سلامة"

نظرت للمحامين الذين لم يحتاجوا لفتح أفواههم طيلة الوقت وقالت بامتنان مشوب بالاعتذار: "كتر خيركم يا أساتذة".

وفي مساء ذلك اليوم وصل إلى فيلا فكرة رئيس تحرير أكبر جريدة خاصة مصرية ومعه فريق تصوير تليفزيوني وآخر من الهندسة الإذاعية. نصب الرجال نصبتهم، فوزعوا الكاميرات وركبوا الميكروفونات ووصلوا الأسلاك وأعادوا توزيع المزهريات. أشعلت مصابيحهم القصر فظهرت

زوايا وطمست أخرى، وردم غبار أحذيتهم السجاجيد، وامتلأ المكان بعبق سجائرهم - العالق في ملابسهم من قبل بالطبع، إذ من ذا الذي يجرؤ على التدخين في حضرة فكرة؟

كان التمني أن يطول اللقاء ويطول فتفرّغ فكرة علم الدين ما في جعبتها كله؛ ما يخص المسألة محل الحوار وغيرها إن أمكن. لكن فكرة - كضيفة - صعبة المراس، شديدة التركيز. لقد تعلمت عبر السنين أن كونك ضيفًا تُسأل إنما هي عويصة لا تُرجى لحبيب. ولذلك فقد طورت أساليب تستعين بها كلما وجدت نفسها محاوَرةً لا محاوِرة. إنها تعد إجاباتها سلفا وبغض النظر عن السؤال. وبانتهاء اللقاء تكون قد قالت ما تريد فحسب، وكأن أحدًا لا يجلس قبالتها ويطرح أسئلة سهر على إعدادها.

وبنهاية لقاء الليلة أيضا كانت قد قالت ما تريد فحسب: قصة اغتيال الرئيس الشهيد، ودور أنور محتشمي، ودور ملازم أول مصطفي عطية يرحمه الله حيًا كان أم ميّتا.

وفي ظلمة ما وراء الكاميرا، في قلب غابة الأسلاك والمصابيح، وقف شيكو يصغي السمع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-31-

يجيد شيكو لغة العيون كما يجيد سبر أغوار الصوت. فلنقل إن الأستاذة احتاجت منديلًا أو شربة ماء أو ماكييرًا أو كوافيرًا أو هاتفًا محمولًا أو كلمات تشجيع تنساب في قناتها السمعية، حسبها نظرة أو اختلاجة صوت تنطق بما يفهمه شيكو وشيكو فقط.

بمجرد أن يصرخ المخرج "كيو" يتحول جهاز شيكو العصبي لطبق استقبال للذبذبات الصادرة عن الأستاذة، لو سألتَه بعد لقاء ما ماذا قال الضيف وبماذا عقّبت الأستاذة لما أمكنه جوابك. ينصب تركيزه خالصًا على فك شفرة نظرات الأستاذة ونبراتها.

له معها أربع سنوات قد لا تُعدُّ شيئًا في مشوارها الملحمي، لكنها ملحمية في مشواره المحدود. عمل قبل ذلك مساعدًا لفنان صف ثانٍ ثم لمذيعتين نصف معروفتين. لكن الأستاذة لم تعبأ بسيرته الذاتية غير المبهرة. لقد مكنتها خبرتها في البشر من قراءة شكر الله من أول لقاء: هذا رجل صنع من نفس قبضة الطين التي عجن بها الكلب الوفي.

وقف الآن يتابعها كعادته فإذا بحاله غير الحال. أَسَرَه لأول مرة فحوى ما يقال، هام عقله مع ما يروى وتبعزق تفكيره وتعاقبت أمامه الصور؛ من قصر لغرفة نوم لدورق ماء لحبل مشنقة لظلام ينتصب فيه رجال بلا ملامح.

سافر خياله مع زعيم تقلد الحكم في العام 2016 وشيكو بعده طفل، ومات في العام 2020 وشيكو بعده صبي. رجل قلص صلاحيات نفسه بنفسه، اتخذ نائبًا، أوقف محاكمات المدنيين أمام المحاكم العسكرية، عرض ميزانية الجيش على البرلمان، ألغى قانون الطوارئ وشقيقه الأضل سبيلًا قانون مكافحة الارهاب، أفرج عمن اعتقلوا لاشتراكهم في مظاهرات. فعل كل هذا وغيره خلال سنوات حكمه الأربع فقطع كل شك لدى المهيمنين على نظام الحكم، أولئك الذين يحركون الدمى من خلف الستار، في أنه عازم فعلا لا ادعاءً على الإصلاح.

وكان الحل هو اغتياله ثم لصق التهمة بالإسلاميين الذين غالبا كانوا ليفعلوها إن سنحت الظروف: وضع له نائبه أنور محتشمي السمّ في دورق الماء المجاور لفراشه وهو مطمئن لأن كاميرات المراقبة في غرفة نوم الرئيس - وهو أرمل بالمناسبة - معطلة دوما بأمر شخصي منه.

لكن فرد حراسة يدعى مصطفى عطية، غِرّ بالكاد نبت شعر شاربه، اشتبه أن شيئًا ما يحاك. فما كان من الفتى إلا أن شغّل كاميرا المراقبة في غرفة الرئيس - هكذا من تلقاء نفسه.

وبعد أن تم المراد وأحيلت أوراق أربعة إسلاميين للمفتي تبين للنظام ما هو أخطر من وجود شريط إدانة. تبين أن الغرّ الغرير يظن نفسه أهلا لابتزاز النظام. كيف أوهم نفسه ذلك الفلاح الساذج أنه يطيق ملاعبة الكبار؟ انتُزع منه الشريط بالطبع ومُحي ذكره من الدنيا بالممحاة فأصبح نسيًا منسيًا، ولولا أن له أمًّا وأخًا لقيل إنه لم يولد قط.

وبطريقةٍ ما آل كل ذلك، الحكاية والتفاصيل والشريط، إلى فكرة علم الدين كما كشفت بنفسها في حوار شاهده الملايين وشهده شيكو حرفًا حرفًا وسكتة سكتةً ولمعة عين بلمعة عين.

وفي مرحلة ما من ذلك اللقاء الجلل استعاد شكر الله شيئًا من تركيزه الأساسي فعاد يترجم ما تقوله العيون وما تختلج به الحناجر. لم يفته إذن أن يسجل كيف بدت الأستاذة مرتاحة هادئة طوال الوقت، بينما بدا محاورها وكأنه يحمل - فوق نصيبه - نصيبها من الاضطراب كاملًا غير منقوص. ومن آيات ذلك أن أضاع حضرته قرب نهاية اللقاء دقيقة كاملة - ودقيقة في زمن التليفزيون كما يعلم شيكو تساوي سنة ضوئية - يتتعتع ويتلعثم ويسعل وهو يبحث ببؤس على كلمات يصيغ بها سؤاله:

"يعني.. نفهم من كده.. اللي بتقوليه ده.. الـ الـ الـ الـ.."

ثم أخذ المحاور نفسًا عميقًا وعصر جفونه وكرمش أنفه وبدا كأنه يختار بين مصيرين أحلاهما مرّ: إما نهاية محتملة على يد الحاكم إن هو طرح السؤال التالي، وإما نهاية مؤكدة على يد الجمهور إن لم يطرحه. وأخيرا زفر زفرة حارقة وتبين أنه فيما يبدو آثر النهاية المحتملة. قال:

"القيادة السياسية الحالية تعلم كل هذا؟"

وجاء الجواب، أو بالأحرى اللا - جواب:

"أعتقد لازم توجه سؤالك للقيادة السياسية الحالية!"

ثم رفعت ذقنها ملليمترا أو اثنين وكان ذلك كل ما احتاجه شيكو، استدار للمخرج الواقف جواره وأشار له بيده أمام عنقه علامة الذبح أو إنهاء التصوير. لن تجيب الأستاذة على المزيد من الأسئلة الليلة. يجب أن يظل في الليل متسع كي تمزّق البرامج الحوارية ما قيل للتو بحثًا.

وبينما العمال يفككون ما سبق ونصبوه انحنى شكر الله فوَشوَش الأستاذة قائلًا:

"فضيلة الشيخ جاهز. وعلى إشارة!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-32-

لم يكن يوم لمياء يسير على ما يرام، لقد منعت من دخول مدينة الإنتاج الإعلامي وتظاهر فرد الأمن الذي ينتصب لرؤياها كل يوم أنه لم يرها في حياته، فرّ أوراقه وهز رأسه وقال ببلادة:

"آسف، اسمك مش قدامي"

والآن هي وحيدة في غرفة نومها، تلبس أقدم منامة وجدتها وتقرفص على الفراش وتطالع انعكاسها المحدودب على شاشة التليفزيون المطفأة. كانت تتابع حتى ثوان خلت اللقاء الذي ادعت فيه فكرة علم الدين أنها تملك مفتاح لغز من ألغاز التاريخ؛ أنها تعرف قاتل الرئيس الشهيد. يا للوقاحة! يا لجنون العظمة والأنا المنتفخة والذات الملتهبة! آثرت لمياء المشاهدة بمفردها على الانضمام للمهرجان المقام في غرفة الجلوس حيث تتفرج أمها وأخواتها بإثارة تتناسب مع نهائي كأس العالم أو ربما الحلقة الأخيرة من مسلسل رمضاني.

سمعتهن الآن يتضاحكن أمام باب الغرفة.

"اطلعي يا لميا عايزينك تجيبي لنا أوتوجراف الولية الكُهنة اللي اسمها فكرة".

كان كفّاها غائصتين في غابة شعرها تقبضان عليه من حيث ينبت، ولما فتحتهما انزلقت الشعرات فشاب بياضَ الوسادة السواد. قررت الخروج ولم تعبأ إلى أين؛ استلت سلسلة المفاتيح من الحقيبة وفتحت الباب وخرجت، شيعتها قهقهات أخواتها وسخرية أمها:

"شوفي ياختي المهبوشة اللي هتخرج بالبيجامة والشبشب!"

انطلقت بالسيارة نحو المجهول، لا تركز في قيادة ولا في مقصد، جن جنونها وهي تفكر في سر قوة فكرة، ما كل هذه الجسارة والبطولة ورباطة الجأش؟ من أين ومنذ متى؟ يعتقد الجميع أن فكرة مدعومة من جهة "ثقيلة". ولكن من؟

من يسند فكرة؟

من ظَهْر فكرة؟!

أمسكت المقود بيد والهاتف بالأخرى وأجرت اتصالات عدة لم ينجح أي منها: محفوظ سليمان، الباشا رئيس القناة، زوجته التي تقصتها لمياء حتى وصلت إليها وتعرفت عليها وخرجتا معا مرتين.

ولما بلغ بها اليأس أشده ابتلعت كرامتها واتصلت بالخائب العاجز العقيم المنصوري البجلاتي الذي - ويا لسخرية القدر - أجاب اتصالها من أول رنة بصوته الخشن الذي كان أغلظ من المعتاد حتى أنها ظنّته يبكي.

لكن البجلاتي لم يكن لديه شيء ليقدمه لها، لم يكن لديه شيء ليقدمه لأي مخلوق. ظل يشكو أن أحدًا لا يرد على اتصالاته هو، أن الجميع تخلوا عنه وأن مصيبته أبشع من مصيبتها.

"اللوا الشربيني مسح بكرامتي الأرض!! مع جنابه حق طبعا! ما أنا قاعد مقطف ومش دريان إن الجيش وازز أمنا الغولة على الداخلية!!"

سألته بتعجب: "الجيش؟! إشمعنى؟"

"إنتي مش عايشة في الدنيا ولا إيه؟! مش كان فيه اشتباكات الشهر اللي فات في الفيوم؟ لما الأمن المركزي والشرطة العسكرية فتحوا النار على بعض!"

أهو صراع أجهزة إذن؟

لا. لسبب ما لم تجد لمياء هذا التفسير مقنعًا. حاولت التركيز لكن البجلاتي شوّش عليها بترديده الهستيري:

"معالي الوزير اتشال. معالي الوزير اتشال." كثكلى تنعي بعلها.

أغلقت الخط باشمئزاز ومضت يسوقها القنوط من شارع لشارع ومن حي لحي، ثم خطر لها خاطر ألهمها أن تذهب لبيت فكرة. لم لا تراقب بيت الشمطاء بنفسها؟ علها تفهم شيئًا مما يجري!

بلغت مقصدها قبيل انتصاف الليل. لم تلق صعوبة كبيرة في معرفة الطريق، فقد توجهت إلى منطقة ابو الفدا في الزمالك وسألت عن فيلا فكرة علم الدين فدلها الدالّون.

قبعت في سيارتها تطالع الجدران التي تواري أبغض الناس بشحنة كراهية عالية الضغط، لبرهة انتابها زهو لذيذ وكأنها الآن تؤذي العدو. مجرد وجودها أمام بيت غريمتها دون علم منها بدا انتصارا رغم عدم منطقية ذلك.

لكن شحنة البغض ولذة الزهو تسربتا شيئًا فشيئًا وحلّ محلهما الضجر والشعور بوطأة هذه الجلسة. أي سخافة هذه؟ إن أطرافها تكاد تتجمد! ما الذي تظن نفسها فاعلته بجلوسها في السيارة في منتصف ليلة شتوية، لا تلبس سوى خفّ وضيع ومنامة بالية تستحي أن تفتح الباب بها لصبي الدليـ[illegible]ـري؟! ما الذي عساها تراه؟ ما فكرة إلا عجوز ثقيلة الظل سعيدة الحظ هشة العظم مسدودة الشرايين، وهي الآن على الأرجح تدعك ركبتيها المتورمتين بزيت الخروع.

لكنها لم تأت إلى هنا كي تغادر كما جاءت، قررت النزول والاقتراب من الفيلا قدر الإمكان وإن رآها حارس أو بواب ستقول إنها خادمة كلفت بشراء شيء، ويعلم الله أن مظهرها سيعزز مصداقيتها.

اختبأت بين شجيرات الفيلا المجاورة. فيلا فكرة صامتةٌ كقبر، مظلمةٌ كليْلٍ غير مقمر. بعد برهة يئست من حدوث أي شيء. استدارت مغادرةً وعندها سمعت صريرًا خافتًا. نظرت فإذا بباب جانبي في فيلا فكرة ينفتح وينسل عبره رجل لم تتبينه لمياء في الظلام لكنها عرفته لما ركب سيارته. ماذا كان يفعل شيكو عند فكرة في هذه الساعة المتأخرة؟!

أيعقل أن تكون بينهما.. علاقة آثمة؟ ثم تذكرت أنه بالضرورة كان حاضرًا اللقاء التليفزيوني، ولكن لا يهم! أخذت تتخيل العناوين المثيرة: فضيحة فكرة علم الدين، خروج مساعدها من منزلها خلسة في عز الليل. شهود يتحدثون عن حفلات ماجنة وسهرات مشبوهة في فيلا "الأستاذة".

قد يصعب على الكثيرين التصديق؛ إذ من شيكو هذا الذي تنظر له فكرة علم الدين؟! إنه بالنسبة لها خادم ليس أكثر. أمِن قلة الأثرياء والأمراء؟ ولكنهم يقولون القلب وما يريد. والرجل يافع جميل المحيا بهي الطلعة لا يختلف فيه اثنان.

ثم فُتح الباب من جديد وخرج هذه المرة رجل عرفته لمياء على الفور، يتّشح بالبياض من عمامته حتى نعله مرورا بالجلباب والعباءة، ويمسك في يمناه بسبحة طويلة سمينة الحبات بيضاء هي الأخرى، وقف يتلألأ في ظلمة الليل؛ ماركة مسجلة لا تخطئها العين. إنه الشيخ روحاني أشهر طارد جن في مصر، من فرط ظهوره المنتظم في القنوات صار علمًا مألوفًا كنجوم الفن والكرة.

امتدت ذراع مدججة بالمجوهرات ملوّحة من وراء الباب. وضمّ الشيخ كفيه على صدره وانحنى. ثم نزل السلم وركب بجوار شيكو وابتعدا.

جاشت الإثارة في أحشاء لمياء، أخبرها حدسها أنها كشفت سرًا خطيرًا.

الإعلامية الكبيرة التي تطيح بالوزراء ويهتف باسمها الناس في الشوارع مؤاخية، ملبوسة، لها ظهرٌ بالفعل لكن ليس فوق هذا الكوكب بل في بطنه، إنها تتمتع بدعم العالم السفلي. وصندوقها الأسود شيكو يعلم ويشهد.

هرعت لسيارتها فأدارت المحرك وانطلقت منشرحة؛ كان الانتظار مجزيًا، والمكافأة تستحق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-33-

أمسكت فكرة بالهاتف بينما شيكو يتقافز جوارها كالواقف على الجمر. ومن حولهما عكف العمال يكوّرون الأسلاك ويطفئون المصابيح فاستعاد الصالون أبعاده المألوفة، تجاهلت مساعدها وقالت بحسم:

"للمرة المليون يا رياض باقول لك ماتجيش. أنا هاخد زاناكس وأنام"

أجابها بما أمل أن يكون حسمًا مساويًا:

"أنا خايف عليكي! اللي قلتيه في المقابلة دي مش هيعدي على خير. المرة اللي فاتت لمّحتي إن الوزير قاتل. المرة دي بتقولي إن الدولة كانت عارفة وساكتة!"

لكنها قاطعته:

"ومجيّك دلوقتي هيفرق في إيه؟! عدّي سواد الليل وتعالى بكرة في أي وقت"

لم تتخلص من أخيها إلا بعد عناء شديد. إنه محق في تقديره لخطورة موقفها، لكن هناك ما هو أكثر إلحاحًا. لقد كلفت شيكو بإحضار الشيخ روحاني إلى هنا وقد حدث. وهو ينتظرها الآن في غرفة المكتب بعيدًا عن الأنظار. ولا يمكن بالطبع أن تدع رياض يراه، إذن لأشبعها سخرية واتهمها بالجنون . يرفض رياض سماع كلمة واحدة عن الساحرة/الجنية/الشبح الذي يتراءى لها، لكنها لا تعبأ به وبما يصدقه أو يكذبه، فصحيح أن البدوية لم تظهر منذ آخر مرة، لكن فكرة تُمضي أيامها خائفة ولياليها مرتعدة، باتت تهاب النوم من هول أحلامها؛ ولم تعد تستطيع أن تترك نفسها فريسة للرعب أكثر من هذا.

وأخيرا التفتت لشيكو الذي أشار لها أن يتحدثا في المطبخ في منأى عن الآذان. وهناك أخفض رأسه وحدق في حذائه؛ حركة تعرفها جيدا. قالت:

mon dieu.. وراك مصيبة. قول!"

شرع يغمغم فقاطعته من الكلمة الأولى:

"يابني علّي صوتك أنا سمعي مابقاش زي زمان!"

"باقول يا فندم التليفون مابطلش رن. الأخبار عمالة ترفّ من القناة. الباشا عامل اجتماع مجلس إدارة وشكلهم وقفوا البرنامج!"

أطرقت قليلا ثم قالت:

"الاجتماع لسه شغال؟"

"أيوه يا فندم. لسه"

"مافيش في إيدينا حاجة نعملها. nous attAdobe Arabicdons. وأيا كان القرار هنتعامل! المهم دلوقتي الراجل متأمن؟"

"متأمن يا هانم. في أوضة المكتب وقفلت عليه بالمفتاح"

علا صوت العمال في الصالون بالتحية إيذانًا بالمغادرة، فخرجت ووراءها شيكو تفتح لهم الباب. ولما خلت الردهة إلا منهما قال:

"طيب أنا هاتابع سير الاجتماع. بالنسبة لحلقة الجيش؟ أقول بسرعة ولا نستنى الدنيا تبان؟"

قالت بنفاد صبر وهي ترمق باب غرفة المكتب:

"مالها حلقة الجيش؟!"

"كل المواد اللي طلبتيها جاهزة يا فندم".

أخرج من حقيبته رزمة أوراق سمينة معنونة: "حلقة فساد الجيش" وأردف:

"سكريبت التقرير أهو وسكريبت البرومو، ومستنيين تعليماتك عشان نوجه دعوة لوزير الدفاع يشرفنا في الاستوديو"

لكنها قاطعته بإشارة من يدها:

"انسى الحلقة دي خالص. تجاوزتها الأحداث. الجيش ماعادش مهم"

حملق فيها مذهولًا وتمتم:

"الجيش مش مهم!!"

قالت:

"جيش إيه بعد اللي سمعتني دلوقتي باقوله في اللقاء؟! ماعادش عندنا وقت، يا نسكت خالص يا نجيب من الآخر! ده لو ماكناش اتوقفنا أساسا! المهم الراجل اللي جوا ده حسك عينك يكون مخلوق شافه وهو داخل!!"

هز راسه معاتبا وقال:

"عيب يا أستاذة!"

"ولا مخلوق يشوفه وهو خارج!!"

"هيخرج زي ما دخل. من الباب الوراني"

وأخيرًا دلفت إلى المكتب حيث جلس الشيخ يحملق في هاتفه وعلى وجهه تركيز بالغ. ارتبك ودفس الهاتف في جيب جلبابه الحرير. خيل لها أنها لمحت على شاشته لعبة مشهورة تلعبها هي أيضًا أحيانًا. بادرته بالاعتذار على تأخيرها فقال بسماحة:

"ولا يهمك يا أختاه. أنا قضيت الوقت في الاستغفار بفضل الله"

روت فكرة للشيخ من جديد ما سبق أن سردته باختصار في الهاتف. أنصت الرجل وهو يملّس لحية بيضاء تلامس ترقوته ثم قال:

"اللي بتحكيه حضرتك يبدو لي والله أعلم إنه خادم."

"خاتم؟"

"خادم سحر"

"خادم يعني إيه؟"

"أو ربما خادمة!"

"عفريت؟!"

"أيوه أيوه. عفريت من الجن مكلف بتلبسك، يبدو إن حد عامل لك عمل، عموما لا تجزعي يا أختاه، اصبري وصابري ورابطي. ده ابتلاء من المولى عز وجل، مايصحّش نعترض! إحنا نرقي رقوتنا ونظن في الله خير. قولي لي، اسم الوالدة إيه؟"

"الوالدة؟! راوية. اسمها راوية."

المفردات التي يستخدمها، نبرته التي تعلو وتخبو من أجل التأثير الدرامي، هذا الموقف بكل ما فيه من déjà-vu أحيى ذكريات راحت تتدفق الآن بغزارة. لقد مرت سنوات كثيرة على شفائها من فوبيا جعلتها تستضيف جلسات منتظمة كهذه لطاردي الجان.

لكنها لم تستسلم للذعر الذي راودها، ذكّرت نفسها باقتناعها - المتنافي مع المنطق - بأن البدوية حقيقة؛ لا هلوسة مرضية يمكن التخلص منها بتعويض النقص في مستويات السيروتونين. ذكّرت نفسها أنها استدعت الشيخ روحاني على سبيل الاحتياط لا أكثر، حتى يرتاح ضميرها: إن كان عفريتًا فقد حاولت صرفه. وإن لم يكن فلن تخسر سوى بعض المال. ومنذ متى وللمال قيمة؟

أعقبت بشجاعة لا تشعر بها حقيقة:

"بس أنا باقول لفضيلتك من دلوقتي: مافيناش من ضرب!"

"ضرب؟!"

"عشان تخرج العفريتة يعني!"

ضحك الشيخ في وقار، لقد اعتاد أن يرتعد في حضرته "مرضاه" كما يسميهم، ومريضة اليوم ليست استثناءً رغم كونها سيدة الإعلام القوية فكرة علم الدين التي تصول وتجول على الشاشة ويطمح أمثال الشيخ روحاني للظهور في برنامجها، خصوصًا بعد أن عادت شهرتها تملأ الافاق.

طمأنها أن المسألة لن تشتمل شيئا من هذا وفتح كيسًا أخرج منه قارورة صغيرة قال إنها تحوي ماء زمزم، أعطاها لفكرة وكلّفها بالوضوء بنصفها.

تناولت الزجاجة وذهبت للحمام الملحق بالغرفة. أغلقت الباب وبدأت تعالج الغطاء عندما لاحظت صورتها في المرآة. أي ذعر هذا الذي يطبق على وجهها؟ وكأن كل لحظة اضطراب ورهبة وفزع خبرتها منذ ولدت عادت الآن فارتسمت بين ملامحها واستعرت في مقلتيها. ما الذي ألمَّ بقواها العقلية حتى تعود من جديد فتنساق وراء الدجل والخزعبلات؟

استدارت خارجة لتصرف الجالس خارج هذا الباب لكن رأت نفسها تتلوى في الفراش تحت وطأة الكوابيس. في لحظة ما ستنهار نائمةً - شكلًا فقط - بينما هي أسيرة خلف جفونها المطبقة، تصعد جبالًا وتهبط وديانًا وفي عقبيها الحمم والأفاعي.

استدارت ثانية ووضعت الزجاجة على حافة الحوض وشمّرت عن ساعديها، لكن الزجاجة سقطت وانسكب الماء! انهمر بعضه على الأرض وأريق معظمه في الحوض، تتبعت أناملها القطرات عبثًا لكن هيهات!

تلفتت حولها في هلع. ماذا الآن؟! أتخرج فتعترف للشيخ أنها كبّت ماء زمزم المقدس؟! نظرت للزجاجة فوجدتها فارغة تهزأ منها. فتحت الصنبور وملأتها. رفعتها في النور وتفحصت الماء؛ يستحيل أن يعرف أحد الفرق. لكن الشيخ روحاني ليس أي أحد. بالتأكيد مكشوف عنه الحجاب!

والآن ماذا؟ هل لا يزال عليها أن تتوضأ؟! وهل سيعلم لو لم تتوضأ؟ لو فاته أن الماء ماء صنبور سيفوته أن الوضوء لم يحدث أصلا! ثم هل تتوضأ بماء الصنبور من الزجاجة أم بماء الصنبور من الصنبور؟ عصف الاضطراب بعقلها حتى كادت تصرخ. لكنها أطلقت زفرة حاسمة وهمست:

"Stop.. tu doit croire."

أغمضت عينيها وأخذت نفسًا عميقًا. أحصت

un. deux. trois. quatre

ثم أطلقته. توضأت بنصف ما في الزجاجة وخرجت لتجد الغرفة مشبعةً بالدخان، فقد أشعل الشيخ روحاني بخورًا ووضعه على المائدة وألقى على السجادة بوسادة أشار إليها قائلًا:

"اتفضلي ارتاحي. البخور ده من الحجاز!"

نظرت للوسادة بتشكّك، هل تسعفها ركبتاها؟ لكن بعد ما حدث في الحمام لم تجد الجرأة للاعتراض. ارتمت أرضًا فلامست قدمها قطعة سوليفان صفراء انحنى الشيخ فالتقطها في عجالة، ولكن ليس قبل أن تلمح فكرة المكتوب عليها: عطارة أم حسين - تقاطع فيصل والهرم.

قال الشيخ:

"شوفي يا أختاه، أنا هاتلو آيات من الذكر الحكيم وكل ما عليكي ترددي ورائي. ومن حين لآخر سأقول لك: انفثي! فتنفثي في بقية ماء زمزم اللي في الزجاجة. وهكذا. سهلة خالص"

وضع يمناه فوق رأسها وأحكم قبضته وقال:

"بسم الله"

مر وقت طويل وفكرة تردد ما يقوله الشيخ ثم تنفث، تردد فتنفث، تردد فتنفث. وأخيرًا رفع يده عن رأسها بعد أن أمسك بها الصداع كقلنسوة وظنت أنها ستحتاج علبة ترامادول كاملة كي يزول. هتف:

"فكرة يا بنت راوية! قولي ورايا. أسألك بمعاني هذه الآيات الكريمة ومبانيها، أن تذهب ما ألم بي من الجن وخدامهم ورياحهم وأثارهم ورجسهم ورجزهم. إخراجا إخراجا إخراجا لا يعودون إلى جسدي أبدا حتى يرجع هذا الماء كله إلى الكأس الذي هو فيه."

ولما انتهت قال:

"اشربي الماء كله. ماتسيبيش نقطة!"

من المروّع بالنسبة لفكرة أن تشرب ماء الصنبور، أما أن تشربه بينما رغوة بصاقها تجيش أعلاه فقد جعل معدتها تتقلص، وما منع أحشاءها من الانقلاب دورة كاملة إلا الإرهاق. ثم إن نارًا تشب في ركبتيها وتجعلها تتحرق لأن ينتهي الأمر فتنهض. تجرّعت الماء غير المقدس وقامت تتوكأ على قطع الأثاث.

ولما وقفا متواجهين أخرج الشيخ من الكيس قارورة متناهية الصغر وقال:

"ده زيت حبة البركة، كل ليلة قبل النوم تقري عليه سورتين، البقرة والجن، وبعدين تدهني جسمك كله. ليلاتي على ده الحال إلى أن تفرغ القارورة"

كاد يناولها إياها ثم أعاد يده إلى صدره كمن تذكّر شيئا. أردف:

"الزيت ده من القدس! أولى القبلتين!!"

أدارت الزجاجة بين أصابعها. ذكّرها منظر محتوياته ببولها عندما تنسى أن تشرب فتتركز صفرته. ولكن لا يهم إن كان من القدس حقًا أم من أولاد رجب، لا يهم إلا أن تحظى بنوم بلا كوابيس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-34-

29 ديسمبر 2035

"الساعة داخلة في اتنين الصبح والـ.. الـ. الـ.. البتاع اللي اسمه محفوظ سليمان لسه ماشرفش!!"

علت الهمهمات حول الباشا رئيس القناة بين حانق على سليمان وبين ملتمس الأعذار له، وفي الحالتين الهدف هو مجاملة الباشا وتطييب خاطره.

صرخ في السكرتيرة: "كلميه تاني!"

كان الهاتف على أذنها بالفعل، صاحت في ذعر وهي تهرول خارجةً :

"مغلق والله طول الوقت!"

"راح في أنهي داهية ده!! سايبنا في الوحلة دي! معقول ده؟!"

تنقل بنظره بين الجالسين حول طاولة الاجتماعات من أعضاء مجلس الإدارة والمساهمين ومدراء الأقسام المختلفة. لقد رفع حالة الطوارئ للدرجة القصوى منذ أذيعت مقابلة فكرة علم الدين على قناة شمس التليفزيونية وإذاعة مونت كارلو الدولية ونقلت مباشرة على أكثر من موقع إلكتروني إخباري. جن جنون الباشا لأن تحقق فكرة مجدها الشخصي على حساب خرابه هو الشخصي. فما قالته قد يجعل منها بطلة في عيون الناس - وبالذات لو مُسّت بسوء - لكنه سيغلق له القناة بلا ذرة شك واحدة.

وكان حضور محفوظ سليمان جوهريًا. لكن حضرته أغلق هاتفه واختفى.

دقت الساعة الثانية صباحًا وتململ الجالسون. ثم بادر مدير الشؤون المالية وقال:

"في رأيي لازم نتخذ قرارنا وبدون محفوظ. هو اللي ماجاش وسابنا في الوحلة دي!"

أيده الآخرون، فقد أنهكهم الانتظار وأوحشتهم أسرّتهم في هذه الليلة الباردة. لكن الباشا كان مترددًا. إنه مشلول بلا محفوظ سليمان. لا يدري الخطأ من الصواب. عندما وُزّعت أوراق اللعب وقع محفوظ سليمان في قرعة الباشا. هو مفروض على هذه القناة مثلما أشباه محفوظ سليمان مفروضون على بقية القنوات. إنه غير قادر حتى على رفد محفوظ نفسه! مرت نصف ساعة أخرى احتسى فيها قدحي اسبريسو أحالا حياته مرارًا خالصًا. صاح:

"خلاص! أنا مش هاستنى حد، وحسابي معاه بعدين! هنقرر دلوقت بنفسنا، اتفضلو قولوا آراءكوا"

لما لم ينطق أحد تشجع مدير المالية من جديد فقال:

"أنا طبعا مش صحفي ولا حاجة. وقد تكون علاقتي بالصحافة زي علاقة الإبرة بالملوخية. لكن اللي فهمته من المقابلة إن الأستاذة فكرة بتتهم وزير الداخلية باغتيال الريس الشهيد. وبتقول إنه كان بينفذ أوامر من فوق، وإنه كوفئ بجعله وزير طول السنين دي. ده كلام يودي في ستين داهية! يودينا إحنا مش هي! هي براحتها! سكوتنا معناه إن قناة ستار بتقول إن الريس بالحكومة، باللي ورا الكواليس،

واللي قدام الكواليس، والكواليس نفسها، قتالين قتَلى! أنا رأيي لازم نصدر بيان نعلن فيه إن فكرة علم الدين لا تمثل قناة ستار." مال على مدير الشؤون القانونية الجالس جواره وأضاف: "ولا إيه يا أستاذ؟"

أجاب الأخير:

"بكده موقفنا يبقى سليم مافيش كلام"

ثم عقب مدير المالية:

"وأظن بديهي نوقف برنامجها ونفسخ العقد معاها. قلت إيه يا باشا؟"

"طالما إنتوا شايفين كده. صيغ لنا البيان يا إبراهيم وكلّف المحامين بموضوع الفسخ ده"

وهنا دفعت السكرتيرة الباب ودخلت متهللة الوجه تزف بشرى وصول محفوظ سليمان، ودخل هو في عقبيها عيناه تتقدّان إثارة. بادره الباشا:

"إنت كنت فين؟! قلبنا عليك الدنيا يا أخي! مش معقول أبدا كده مش معقول!"

لكن ارتياح الباشا كان واضحًا للجميع؛ فقد تنفس الصعداء حرفيًا.

سحب محفوظ كرسيًا وارتمى فوقه وهو يقول للسكرتيرة: "اعملي لي نسكافيه بلاك". التفت للباشا وانحنى على الطاولة وتحدث بصوت خافت حرص مع ذلك أن يصل للجميع، طارقًا الطاولة بقبضته مع كل كلمة:

"أنا جاي ..طخ.. دلوقتي.. طخ.. من أعلى سلطة في البلد.. طخ طخ طخ"

"مين يعني؟"

"أعلى سلطة في البلد"

"الريس؟"

"أعلى سلطة في ال..."

"يوووووه.. إنت هتفلقنا؟! وده علاقته إيه بالوكسة اللي أنا فيها دلوقت؟!"

"يا باشا الناس مبسوطة من فكرة آخر انبساط. يبدو إن محتشمي كان كابس على نفسهم وماكانوش عارفين يخلصوا منه إزاي. ده كان نفوذه أكبر من نفوذ الريس!"

"إيه معنى كلامك ده؟"

"إحنا بايضة لنا في القفص، وفكرة هي الوزة اللي بتبيض لك دهب يا باشا، هاجت على وزير الخارجية، الراجل اتقلش والداخلية هاصت، هاجت على وزير الداخلية، الراجل اتقلش والجيش هاص والدنيا كلها هاصت!"

قال مدير المالية:

"أنا كنت باقترح نفسخ العقد ونطلع بيان ينأى..."

لكن سليمان قاطعه:

"ينأى مين يا عم وتفسخ مين؟! الناس عايزة فكرة، والحكومة عايزة فكرة، وأعلى سلطة في البلد عايزة فكرة. عيش بقى يا باشا وحط رجل على رجل واتشرّط على المعلنين!"

قال رئيس القناة مذهولا:

"والداخلية؟! الداخلية هتتعامل معانا إزاي بعد اللي حصل لمحتشمي من تحت راسنا؟"

ود سليمان لو يقهقه لكنه تمالك نفسه وقال:

"يا باشا باقول لك أعلى سلطة تقول لي الداخلية؟ ومع ذلك، الداخلية عاملة فرح! الراجل كان توحّش وبقى عامل زي الغول، وعمرهم ما نسيوله إنه مش ابن الأمن أصلا، ودلوقتي هترجع كل حاجة لطبيعتها، هييجي وزير داخلية من ولاد الداخلية"

سأل مساهم من أعضاء مجلس الإدارة:

"مين؟ إنت تعرفه؟"

تبسّم سليمان برضىً تام عن النفس وأخذ وقته في إشعال غليونه واثقًا أن كل الأعين معلقة عليه. ثم قال:

"إلا أعرفه! ده حبيب قلبي! اللوا الشربيني!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-35-

30 ديسمبر 2035

المقعد مبطن بالجلد الأحمر الفاخر، والمسندان خشب في نعومة المخمل، لكن المنصوري البجلاتي غير مرتاح، عُصعصه يحترق وإطار السيارة المحيط بخصره على الدوام يحول بينه وبين ظهر المقعد ويدفعه قسرًا للأمام فيبدو كصاروخ ضخم مائل استعدادًا للانطلاق. ثم إن معطر الجو الذي يرشه الفراش كل ربع ساعة أصابه بربو شُعَبي بينما جعلته قلة الأكل والشراب يتعاطف لأول مرة مع المضربين عن الطعام في السجون. سدد نظرة بغض لسكرتيرة مدير مكتب وزير الداخلية ثم قال:

"يا مدام بعد إذن حضرتك.."

"آنسة"

"آسف، يا مـ.. يا آنسة أنا بقالي ساعتين منتظر أقابل فخامة الوزير.."

"الوزير مرة واحدة؟!"

تبادلت نظرة تهكم مع سكرتيرة أخرى أصغر سنا ثم أضافت بضجر:

"متهيألي سبق وقلت لك إن مدير مكتبه.. سيادة العقيد.. مشغول النهارده"

"بس أنا جاي أقابل معالي الباشا الشربيني! عليا الحرام من ديني أنا معرفة قديمة! ده أنا رقمه متسجل عندي في الموبايل آهو!"

"ما هو عشان بتقول إنك معرفة قديمة هاحاول أخليك تقابل مدير مكتبه. بس ما اوعدكش! قلت لي اسمك إيه؟"

اعتصر جفونه ومزق بأسنانه جلدا ميتا على شفته ثم ابتلعه وقال:

"تاني؟ ما الكارت قدام حضرتك، المنصوري البجلاتي، مدير تحرير جريدة بالمصري الفصيح"

"سابقا. مش قلت لي سابقا؟"

"إشمعنى افتكرتيها دي؟"

"أفندم؟ بتقول حاجة؟"

"لا أبدا! باقول مضبوط كده. خدي بالك ده لغاية كام يوم فاتوا مش سابقا قوي يعني! وكمان بالمرة رئيس تحرير برنامج (والله فكرة) سابقا"

وبعد ساعة ثالثة قالت السكرتيرة:

"تقدر تدخل. معاك خمس دقايق"

اجتاز البجلاتي الباركيه الألماني اللامع فالبساط الفارسي الكثيف حتى بلغ المكتب المهيب. انزلق قلبه لركبتيه لمّا تبين له أن العقيد يمسك بالعدد إياه من جريدة بالمصري الفصيح.

قال سيادته دون أن يرفع عينيه:

"اتفضل اقعد"

ثم لفّ بمقعده الوثير فأبصر البجلاتي أن مخاوفه في محلها، فالرجل يقرأ مقاله الأخير الذي تسبب في رفده والذي اختار له عنوانا كارثيا: "محتشمي المفترى عليه". ثلاث كلمات مشؤومات سطرن السطر الأخير في مشوار المنصوري البجلاتي بأكمله.

هتف وهو يهوي في الكرسي:

"سيادة العقيد! ده مقال أنا كتبته في لحظة غباء مستحكم، ماكنتش لسه فهمت الدنيا رايحة في أنهو سكة!"

طالعه العقيد بامتعاض وقال:

"سكة إيه يا أستاذ إنت؟ هو فيه سكة غير سكة العدالة؟"

"أقصد ماعرفتش أقرا اللي هيحصل بعد كده!"

"وإيه اللي ممكن يحصل لواحد قاتل؟ دي دولة قانون يا أخينا! وعلى رقبة الوزير قبل الغفير! واهو محتشمي بتاعك مرمي دلوقتي في السجن"

"عليا النعمة من نعمة ربي دي كانت لحظة غباوة مش هتتكرر. معالي الوزير الشربيني يعرف ولائي كويس. ده فخامته ذات نفسه افتكرها في الأول مؤامرة على الداخلية من الجيش! وأنا المقال بتاعي كان بيوجّب معاكوا مش أكتر! قول له بس سيادتك المنصوري البجلاتي هنا، وهو..."

لكن العقيد تجاهله وشرع يقرأ بصوت عال:

"نحن نتحدث عن الأسد محتشمي، الصقر محتشمي. رجل أفنى عمره في خدمة تراب هذا الوطن، خمسة عشر عاما وزيرًا ناجحًا للداخلية، وأربعة أعوام قبلها نائبا أمينا للرئيس، وسنوات قبلها من الخدمة في البرلمان، لماذا تنكر بلدنا فضل أولادها؟ لماذا نكون كالقطط نأكل وننكر؟ أعلنها من هنا: أتنصل من فكرة علم الدين، أمنا الغولة التي تجرأت فافترت على محتشمي، محتشمي الطهارة! محتشمي النقاء! محتشمي مبيد الإرهابيين! وأخلي مسؤوليتي أمام الله والقراء مما ورد في برنامجها الذي لا يشرفني أن أرأس تحريره!"

كاد البجلاتي يبكي حتى يسكت الرجل، وكلما حاول مقاطعته رفع العقيد صوته أكثر. وأخيرا ألقى بالجريدة جانبا فاغتنم البجلاتي الفرصة وقال:

"يا فندم! يا معالي الباشا! أنا حمار والغلط راكبني من ساسي لراسي. ومعايا مقالي الجديد اللي بيعبر بصدق عن أفكاري. آهو."

أخرج من جيبه ورقة مطوية قدمها للعقيد الذي أشاح بوجهه، فاسترسل البجلاتي:

"ممكن حضرتك تقراه وتدخله لفخامته. آهو، بص سيادتك عنوانه إيه: الشربيني وزيرًا. عندما يرد الأمر إلى أهله"

أفلتت من العقيد ضحكة سخرية ثم قال:

"نقراه لما يتنشر بقى إن شاء الله"

"ما هو ماحدش راضي ينشر لي أي حاجة في أي حتة! أنا باقول يعني يافندم تليفون صغير من جنابك المقال يتنشر وأرجع الشغل وكل حاجة تتصلح!"

لكن الرجل ظل يعاينه في صمت فقال البجلاتي متلهِّفا:

"من غير معاليك ما تتعب عينيك، خليني أقرالك أنا: خمسة عشر عاما والأمر ليس في أهله، نعم، كيف لمدني أن يدير مؤسسة حساسة تصون أمننا القومي ويضحي رجالها بحياتهم كل يوم كي نعيش نحن؟ إن تعيين اللواء الشربيني وزيرًا للداخلية - هذا النبيل القوي نظيف اليد - إنما هو تصحيحٌ لخطأ استمر فاستفحل فاستشرى فطال به الأمد، لكن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة. أما محتشمي القاتل، السفاح، فقد خدعت فيه كغيري. وألتمس الصفح من..."

هنا دخلت السكرتيرة معلنة:

"سيادة العقيد اكسكيوز مي اجتماع سيادتك معاده جه"

ثم تحولت للبجلاتي وقالت في ضجر:

" اتفضل يا أستاذ من هنا من غير مطرود. ماتخلينيش أكلم الحراسة!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

--36

الكفّ معظّم مكرمش رفيع، يقبض على ذراع فكرة ويهوى بها للأسفل، للأسفل، لعمق الأعماق. هناك يقام على قدم وساق حفل الشياطين حيث فكرة ضيف شرف لن يؤذن له أبدًا بالمغادرة. حلّق أمامها طائر مربّع الشكل، غريب ومألوف في ذات الوقت. أجندة تليفوناتها! لابد أن تستغيث! مدت أصابع مرتعشة لكن الطائر مراوغ، لم يستسلم لقبضتها إلا بعد عناء. قلّبت الأوراق بذعر لكنها لم تجد رقم الله؛ الله معرفة قديمة انقطعت معه الصلة منذ أمد بعيد. دفعها الكف فألحقها بطابور عبيد طويل لا أمل في إعتاقهم، يخرجون منه وقد دُمغت رؤوسهم بأسياخ النار. لمحت بطرف عينيها كوة في الجدار، ما زال الفرار ممكنًا! لكن أرملة سوداء شرعت عندئذ تحيك بيتًا يسد الكوة بثمانية أرجل معقوفة فائقة السرعة. ثم أيقظتها رائحة لاذعة، مسكّرة ومعدنية. جلست في الفراش تلهث وتتصبب عرقا، راح قلبها يخفق بجنون وانطلقت تجهش بالبكاء.

أحست بدنها زلقًا ورأته لامعًا كأبطال كمال الأجسام وقد بقّع الزيت الوسادة وتخلل الملاءة حتى المرتبة. ماذا ستقول ماريا؟! استغرق التحمم وقتا طويلا، فزيت حبة البركة وارد أولى القبلتين دبق للغاية. تبددت اللزوجة أخيرا وتحسست فكرة نعومة جسمها. قد يكون الشيخ روحاني معالجًا فاشلًا من الكوابيس؛ لكنه بكل تأكيد سيتألق في مجال التجميل.

رن هاتفها برسالة نصية من شيكو تقول "ألف مبروك.. البرنامج مستمر". حدقت في شاشة الهاتف. ذلك الوعد! ذلك الوعد بألا ينال منها الأعداء لم يُخلَف حتى الآن.

بعد ساعة كانت تحتسي القهوة وتتأمل الوهج المنعكس على صفحة النيل عبر نافذة بار élite في الدور التاسع بعد المائة من كمپنسكي الزمالك عندما اتصل بها رياض. يريد أن يلقاها. نعم، هو يعرف هذا الفندق جيدًا وإن كان لم يدخله من قبل.

بعد قليل كانت تطالعه وهو يحوم على باب البار بتردد بادٍ عندما اكتشفت ما أدهشها وأحرجها معا: أنها منذ رأت أخاها في المستشفى بينما كانت تفيق من محاولة الانتحار - وكانت المرة الأولى بعد قطيعة سنوات كثيرة - لم تتوقف لحظة لتتأمله. فقد كانت الأحداث أسرع منها. بل إنها لا تعرف عن رياض أي شيء، لا تدري حتى إن كان لا يزال متزوجًا من ابنة المكوجي.

ها هو يقطع البار الأنيق صوبها. خطوته - على عكس خطوتها - متمهلة. تذكرت يقينًا صاحبها طيلة سنين الصبا: لقد بخل والداها بكروموزوماتهما الجيدة فادخراها إلى أن وصل رياض. أورثاه الطول والبشرة الناعمة والأهداب الوفيرة والعيون الواسعة والشعر الغزير المضاد للمشيب وأورثاها عكس ما سبق.

جلس قبالتها وطلب فنجان اسبريسو، أشار لنظاراتها السوداء وقال:

"شكلك مانمتيش. بصرة!"

قالت:

"طب وإنت مانمتش ليه؟"

اضطرب وأجاب:

"ماتشغليش بالك. المهم طمنيني عليكي إنتي، هتعملي إيه دلوقتي؟"

جرحها أنه لا يجدها أهلا للفضفضة لكنها دعتها تمر. أجابت:

"البرنامج مستمر. كل ما أعمل مصيبة تعدي!"

"مافيش المرة دي استدعا من النيابة؟"

"لا"

"ولا حد اتصل بيكي من الحكومة؟"

"non!"

"ولا بطريقة غير مباشرة؟"

"ولا الهوا!"

"وتفسري ده بإيه؟"

سددت له نظرة فهمها، نظرة تقول أنت تعلم وأنا أعلم أنك تعلم! ثم رفعت كتفيها وأشعلت سيجارة ولم تقل أي شيء. صفع جبهته وصاح:

"إنتي لسه مصدقة الهبل ده يا فكرة؟!"

"اسمع بقى يا حبيب فكرة. سيبك من اللي أنا مصدقاه ومكدباه. أنا مش هاتكلم في الموضوع ده تاني مع حد خالص! excusez moi"

سحقت سيجارتها في المطفأة ونهضت صوب الحمام وتركت رياض يجلس وحيدًا، ينظر للشارع من نافذة المبنى الشاهق ويطالع السيارات الصغيرة والبشر المنمنمين. تؤكد دكتورة ضحى أنه ليس بمقدورها شيء ما لم تطلب فكرة ذاتها العلاج. ومن الواضح أن فكرة لا ترى نفسها مريضة، هي مقتنعة أنها محصنة من الأعداء بالفعل. ثم اندلع سؤال في عقله بغتة: أهو بالضرورة أمر سيئ أن يقتنع المرء أنه لا يقهر؟

ساعته تشير للتاسعة والنصف صباحا؛ وقت مناسب لينتهي من مهمة ثقيلة أبقاه التفكير فيها مستيقظا جلّ الليل. عليه أن يهاتف تلك الزبونة التي وعدته بوظيفة في شركة زوجها. اتصل بالرقم ثم لمح فكرة عائدة فأوشك أن ينهي المكالمة لكن الزبونة ردت بغتة:

"أيوه يا باشمهندز"

"أيوه يا مدام إزيك. أنا رياض"

“ما أنا عارفة”

اتخذت فكرة مقعدها قبالته.

أخفض صوته وقال بارتباك:

“كنتي قلتي لي أبقى أكلمك بخصوص الموضوع بتاعي. فاكراه؟”

“مافيش فرصة والله يا باشمهندز. جوزي موقف التعيينات في الشركة. آسفة”

“ولا يهمك”

“لو فيه أخبار أنا اللي هاكلمك. ماتتعبش إنت نفسك”

“حاضر. متشكر. سلامو عليكوا”

أنهى المكالمة ونظر لأخته. قلبه تَنُّورٌ يُبقبق بالخزي والمهانة وخيبة الأمل. أشعلت فكرة سيجارة أخرى وقالت:

“الموبايل بتاعك لازم يتغير!”

لما طالعها بلا فهم أردفت:

“أنا سمعت كل اللي قالته! إنت بتدور على شغل؟”

“أبدا. ده لواحد صاحبي. خلينا فيكي إنتي أنا عمال أفكر...”

لمح الغضب يعود لعينيها فأردف مسرعا:

“عارف إنك مش هتتكلمي في الموضوع وموافق! المهم. هتستفيدي إزاي من الوضع اللي إنتي فيه طيب؟”

وضعت سيجارتها وشردت مع خيوط الدخان التي تتلوى في الهواء. وبعد صمت وجيز همست كمن يحادث نفسه:

“أول ما ابتديت اللي باعمله ده ماكنتش عايزة غير إني أنتقم من اللي اتخلوا عني بعد ما خدمتهم سنين، لكن بعد كده...”

فاجأته وفاجأت نفسها أكثر بأن أجهشت بالبكاء. ولمّا هدأت قالت:

“أنا قرفانة من نفسي، قرفانة من كل حاجة، حياتي ضاعت في الطرمخة على الفساد.

حاسة... حاسة إن ذنب ناس كتير في رقبتي. اللي اترموا في السجون وقلت بعضمة لساني عليهم يستاهلوا! اللي مش لاقيين ياكلوا وأنا بررت رفع الدعم عنهم!”

كانت الكلمات تتقاذف من فمها سريعة متداخلة وكأنها لا تواكب ما يتلهف عقلها للجهر به.

"البنت اللي اتهمتها إنها مومس لأنها عملت محضر تحرش! اليوم اللي قلت فيه ابن البواب على جثتي يبقى قاضي! الأم اللي الحضّانة ولعت بابنها وأنا قلت إنها بترمي بلاها عشان التعويض! الراجل أبو تمانين سنة اللي مات في مظاهرات العيش وأنا قلت عليه همجي مايعرفش يقف في طابور! إيديا دول يا رياض فيهم دم، دم بني آدمين من لحم ودم مايفرقوش عني أي حاجة! وفي مقابل ده خدت إيه؟ فلوس؟ طول عمري غنية ومش محتاجة! شهرة؟ أنا قضيت عمري خايفة أمشي في الشارع من الكره اللي باشوفه في عيون الناس! نفوذ؟ أديني اترميت في أقرب صفيحة زبالة لما لاقوا اللي أصغر مني!"

وأخيرا سكتت.

التقت عيناهما والتصقت النظرتان. وجهها أحمر كجرح مفتوح ووجهُهُ شاحب متجمد. هي تلهث وهو لا يتنفس؛ مشدوه يبحث عم يرد به. وأخيرًا تمالك نفسه وقال:

"عاوز أوريكي حاجة."

فتح محفظته وأخرج صورة ابنه وقال:

"علم الدين. عنده تسع سنين"

شهقت وصفعت فمها. حدّقت في شقيقها هامسةً:

"علم الدين؟"

ابتسم وأخرج صورة ابنته وأضاف:

"والعسل دي بقى دلوعة باباها، راوية. تمان سنين. ولادي صغيرين عليا، أصل أنا وانشراح قعدنا سنين طويلة محرومين من الخلفة"

انطلقت تبكي وتضحك في نفس الوقت. التقطت الصورتين ومسحت بأناملها براءة يخلو منها عالمها. علم الدين وراوية، أبوها وأمها، أعز الناس، وحدهما هما اللذان أحباها بصدق، كم اشتاقت لأبويها! أحست بهما يطلان عليها من العالم الآخر عبر عيون الصغيريْن. وخطر في بالها أن العالم عاد ليتألف من أربعتهم فحسب مثلما كان الحال في طفولتها. ها هم الآن مجتمعون حول هذه المائدة: علم الدين، راوية، فكرة، رياض.

انهمرت دموعها مجددًا في صباحها الباكي هذا وامتلأ فمها بطعم الملح، لكنها هذه المرة كانت تبتسم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

--37

حدث هذا من قبل لانشراح بكل تأكيد. متى؟ لا تذكر لكن الشعور يغيظ، لقد جلست في سيارة كهذه تنهب الصحراء نهبًا، وفي الخارج عكست ذرات رمال كتلك الوهج في مقلتيها، وفي الخلف نشب عراك الطفلين سريعًا وتبخر سريعًا، وبجوارها أمسك رياض بالمقود كما يمسكه الآن: بمرفق مستقيم بالتحدّي.

لا تدري إن كان تحديه يستهدفها هي، أو ربما يكون الأمر برمته مجرد تهيّؤات. لكنها هي أيضًا قادرة على التحدي. هي أيضًا تجيد العناد. هي - على خلافه - من مواليد برج الثور. وهي - على خلافه - ترعرعت وسط قبيلة إناث وتمرّست في فنون حرب الأعصاب.

تحدّت نفسها الآن وقبلت التحدي؛ لن تنبس بكلمة طول الطريق. شغل مراهقات ربما. لكنه سلاحها الوحيد. جلست بجانبه كما كان بوذا ذاته ليجلس بينما تجاهلها هو وراح يتسلى بمداعبة الأولاد.

ثلاثة وعشرون عاما من الزواج زائد عامين قبلهما من الحب المحارَب يساوي ربعًا تامًا من قرن من الزمان. أي إن حياتها مع رياض تساوي الآن حياتها قبله. في غضون عامين ستكون قد أمضت نصف قرن فوق ظهر هذا الكوكب. متى جاء العمر ومتى ذهب؟ حتى الآن ما زالت تنسى أحيانا فتظن نفسها بنتًا صغيرة في الثالثة عشرة. لا يعيش الظن أكثر من شظية من ثانية تفيق بعدها.

عندما وقع بصرها عليه لأول مرة لم تكن تعرف أنها ستمضي بقية عمرها معه. أرسلها أبوها لإعادة الملابس المنظفة بالبخار إلى الزبائن في حدث نادر. لم يكن ليكلفها بتلك المهمة لولا أن الليلة كانت استثنائية، ليلة مباراة مصر والجزائر في تصفيات كأس العالم لعام 2010. رفض صبية المصبغة وأشقاء انشراح العمل لمتابعة المباراة.

انطلقت لشقّة الدكتور علم الدين بشارع المنيرة دون أن تدري أنها على موعد مع نصيبها. فتاة عادية لا يميزها شيء، لا يميزها ما يغري بغرامها سليلَ أسرة راقية. سألت نفسها لاحقًا ملايين المرات: ما الذي جمعهما؟ رغبة صبيانية لديه في التمرد؟ أتكون ظَهَرت في حياته في لحظة إعلانه الحرب على العالم؟ في منعطف ما على درب التيه؟

سارت الفتاة العادية وسط شوارع محمومة وداهمها يقين أن المشهد بكل عناصره مرّ عليها من قبل. أبواق السيارات، الأذرع التي تلوّح بأعلام مصر من الشرفات، علم الجزائر وهو يُحرق في الميادين والناس يرقصون من حوله، حتى الصرخة التي شقّت طبلة أذنها وصياح أحدهم: "شوفوا بيعملوا إيه في ولادنا!".

وبعد كل هذا الصخب فتح رياض باب الشقة فأصمّها الهدوء. نحيل طويل حافي القدمين يمسك كتابًا سمينًا ويلبس منامة من الحرير وتعبيرًا من الذهول. وكان كذلك أي شيء إلا عاديًا. بشرته العاج وشعره التِبر وعيناه الذهب ليست أهم شيء، الأهم بحيرتا الغفلة في مقلتيه: جهل مطبق بمدى روعته.

والآن وبعد خمسة وعشرين عامًا قبعت الفتاة العادية بجوار زوجها غير العادي في السيارة. هي هي لا تزال؛ في الثالثة عشرة أو الثالثة والعشرين أو الثامنة والأربعين.

وفي الخارج تغير المشهد تدريجيًا. اعرضّت الطرق وتآكل الخَضار واتسع الصَفار. هتف رياض:

"شايفين الوسع يا ولاد؟ شامين الهوا النضيف؟"

ثم نظر لها بطرف عينه وغمغم:

"يا حفيظ!"

انحرف عن الطريق الرئيسي ودخل شارعًا جانبيًا بناياته في مراحل مختلفة من التشييد. ثم صفّ أمام عمارة مكتملة الأدوار يخرج منها العمّال ويدخلون في حركة دؤوب. أطفأ المحرك وصاح في انشراح والأطفال:

"إنتوا لسه قاعدين؟ إنتوا مابتجوش ليه؟ مش تبقوا تيجوا؟!"

سددت له نظرة مفعمة بالرسائل فردَّ - كعادته عندما يدرك أنه في ورطة - بغمزة من عينه. نزلت صافعة الباب.

كان بانتظارهم رجل يرتدي جلبابًا وكوفية وحذاءً ليس رخيصًا. حياهم وتقدمهم صوب شقة في الدور الأرضي وهو يقول:

"زي ما قلت لك في التلفون يا باشمهندز. الشقة برحة. أوض النوم بحري والصالة قبلي. وفيه جنينة خصوصي ليكم. الجيران كلهم ناس طيبين زييكم كده. أكترهم دكاترة ومهندسين. الرحاب مافيش فركة كعب من هنا. عن إذنك يا باشمهندز. أسيبكم براحتكم".

طالع رياض عائلته فوجدهم لدى الباب لا يزالون. غرست انشراح قدميها في الأرض غرسًا وحشرت الولد والبنت في حضنها واتّقدت نظراتها فبدت كنمر متحفز. قال رياض:

"هاه! إيه رأيكوا؟!"

كان علم الدين هو من أجاب وبصوت متردد:

"هو إحنا هنعيش هنا يا بابا؟"

"إيه رأيك يا ليمو؟ مش أحسن؟"

هتفت راوية بجسارة من أدرك حقيقة فاتت الآخرين:

"هنعيش هنا إزاي بس من غير أبواب ولا شبابيك ولا كراسي ولا حاجة أبدا؟!"

ولأن للطفولة أحكامًا فقد تململ الصغيران وانطلقا يستكشفان المحيط الجديد. انتهزها رياض فرصة فتبختر صوب زوجته قائلًا:

"خير اللهم اجعله خير! مالك يا بنت الحلال؟"

انفجرت صائحة:

"ليه ماقلتليش؟!"

"ده بدل ما تشكريني على المفاجأة؟ فيه ست طبيعية تكره إن جوزها..."

"أنا ست طبيعية يا رياض!!"

"بلاش. فيه ست من اللي تعرفيهم كانت هتتخانق مع جوزها في الموقف ده؟"

"وهتجيب الفلوس منين؟ هتبيع الورشة مش كده؟!"

"لا هابيع ولا هاشتري. إنتي عارفة كويس إن الورشة رزقها كتير والفلوس موجودة"

"دي تحويشة العمر!"

"مش مطلوب غير مقدم وساعة الأقساط يحلها الحلـ..."

"الولاد أولى!"

"اللهم طولك يا روح!! يا ست إنتي هو أنا هاتجوز واحدة تانية هنا؟ ما كله ليكي ولولادك. مش عايزة ترحمينا من الحارة والبيت أبو سباكة طافحة وريحة البنزين اللي بتهب من الورشة لحد أوضة النوم؟ بنتك بتكح من يوم ماتولدت يا هانم! مش خايفة على اللي في بطنك؟ مش عايزاه يتربى في حتة كويسة؟"

ذاب قلبها لذكر الجنين، يريد له الخير إذن؟ يحبه ويخاف عليه؟ لكنها ظلت مكفهرة تعتمل في رأسها الظنون. دنا منها وأردف بلهجة أقل حدة:

"الحكاية مش حكاية فلوس ولا إني خبيت عليكي. إنتي مافتحتيش بقك أصلا طول اليوم. فيه إيه؟"

عندما يُفهمها أنه يَفهمها لهذا الحد تنسى فنون حرب الأعصاب. تناثرت شظايا ما يختلج في فؤادها منذ أسابيع:

"فيه إنك مابقيتش طايقني ولا طايق عيشتي! كاره الورشة وبتدور على وظيفة في سنك ده. وكاره الشقة اللي ولادك اتولدوا فيها وعايز تحدفنا آخر الدنيا بعيد عن أهلي. وأختك دي كمان اللي طلعت لنا في المقدر. كل يوم والتاني تروح لها وتكلمها."

بدأت الدموع تهطل من مقلتيها سريعة حامية فتفاقمت ثورتها، لا تريد لغضبها أن تشوبه ذرة ضعف. لن تسمح للبكاء أن يغلبها. استرسلت بشراسة:

"بقالنا مع بعض خمسة وعشرين سنة حاطينك أنا وأهلي في نني عينينا من جوا. وما شفتش مننا حاجة تخليك تقلب علينا!"

حام لدى الباب عمال يستطلعون هذه الفرجة المجانية فقادها رياض للمطبخ عبر بساط من الحصى، وقفا وسط كومة من كسر البلاط وأردفت بصوت خفيض لحوح:

"خطوتك الجاية إيه يا رياض؟ هتسيبني أنا مش كده؟ ما أنا ماليش مكان في العالم الجديد بتاعك!"

سكتت ووقفت تحدق فيه وتتهج. وفي الردهة طاردت راوية أخاها وجلجلت ضحكاتهما وكأن عالم أمهما ليس على وشك الانهيار، وكأن عالمهما هما ليس على وشك الانهيار.

بعد صمت قصير تحدث رياض وقال:

"تصدقي إنتي طلعتي غبية. يا ستي افهمي. أهلك هم أهلي وأهل ولادي. بس أنا مخنوق! مش لاقي نفسي! تمّيت تمانية وأربعين سنة من غير ما أعمل حاجة! يجوز دي أزمة منتصف العمر اللي بيقولوا عليها! يجوز موضوع الوظيفة ده يكون نزوة وتروح لحالها! المهم إني محتاج لك تسنديني يا انشراح زي ما طول عمرك سانداني! لما أهلي قاطعوني سنين. لما اتحرمنا من الخلفة. لما أمي وأبويا ماتوا. لما صممتي أسمّي العيال على أساميهم رغم كل اللي عملوه عشان عايزاني أحس إن أهلي حواليا. طول عمرك الحاجة الوحيدة الحلوة في حياتي!"

وهنا اقتحم الطفلان المطبخ فبُعث حيًا بالعرق والطاقة والصياح:

"موتسارت هيتبسط قوي في الجنينة!"

"أنا هاحط فيها جون!"

"وهتزرعي فيها حاجة السلطة يا ماما!"

"أنا هاخد أوضة لوحدي!"

"وأنا كمان!"

همس علم الدين في أذن أخته بصوت سمعه الجميع:

"لا خدي النِنّة معاكي، ماما وبابا عجزوا خلاص اعملي حسابك هتربّيه!"

سرت إثارتهما لانشراح رغمًا عنها. بمسحتين خاطفتين جففت خديها قبل أن يلاحظ رياض ورمقت المطبخ من طرف عينها، لا بأس به على الاطلاق. سيمكنها أخيرًا شراء ثلاجة كبيرة. عاد السمسار ووقف الرجلان يتحادثان بينما خطت هي بتردد تتفقد ما بخارج المطبخ.

ينسكب نور ربنا عبر كل النوافذ عكس شقتهم التي لا تجد الشمس لها منفذًا. انتهى إذن عهد إشعال المصابيح لیل نهار؟ لقد انتقلت ابنة خالتها إلى الرحاب العام الماضي فكانت مثار حسد وإعجاب. أتصبح هي الأخرى من سكان القاهرة الجديدة؟ حاولت أن تئد فراشات الفرح التي تدغدغ فؤادها ففشلت.

سمعت هاتف رياض يرن ورأته يبتعد ليجيب. كانت مكالمة سريعة أنهاها وحملق في زوجته بدهشة، بفرحة كبيرة، فرحة غامرة لم ترها في عينيه منذ سنوات. كنظرته عندما علم أنها حبلى في علم الدين بعد سنوات من العقم. قطع الصالة بخطى واسعة متجاوزا السمسار ومتجهًا كالسهم صوبها، قادها للحديقة وقال بحيث لا يسمعه سواها:

"واحد بيكلمني من شركة خشاب موتورز!"

“شركة إيه؟”

“خشاب موتورز!! وكيل پورش!! مش عارف جاب نمرتي منين! بيقول عايز يقابلني وعنده ليا وظيفة!!”

تفرست فيه ورأت الشمس تشرق في عينيه ومعها النجوم والقمر. أدركت أنه - أيا كان تفسير ما يمرّ به - لا يزال رياض. لا يزال نفس الرجل الذي حبُّه هو الحقيقة الأكبر في حياتها. تفقدت بأناملها اللهفة على وجهه العاج وتحسست الحماسة في شعره التِبر وأحست أن هذا - أيضا - حدث من قبل. قالت:

“الشقة دي شكلها هتبقى قدم السعد علينا.”

ولاحقًا في شقتهما، عندما نام الصغيران ونزل رياض كعادته يجالس أباها وأخويها جمعت نبتاتها لتسقيها. رفعت يدها بزجاجة الماء ثم تجمّدت على وضعها هذا كيلا تزعج قدمًا متناهية الصغر راحت تسدد لها من الداخل أولى ركلاتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

--38

وقفت لمياء أمام الكشك تنفخ وتسب وتلعن؛ اسودّت أصابعها من تقليب الجرائد وما زالت لا تجد أثرا للخبر في أي منها قومية كانت أم خاصة، يومية أم أسبوعية، محترمة أم نصف محترمة. صاح فيها بائع أهتم بدا فوق المائة:

"يا ست خلصينا. هي بحلقة ببلاش!"

"عايز إيه يا راجل إنت؟! مش ألاقي أم الخبر الأول عشان أشتري أم الجرنان؟"

لا تصدق ما يحدث! لقد هاتفت أمس أكثر من عشرين صحفية وصحفيًا، واشترت ولاء أكثر من بواب وبائع في الشارع الذي تقطن فيه فكرة. أراح كل هذا هباءً إذن؟!

كانت تظن أنها ستنزل وتطلع في دقيقتين ولم تعبأ بصياح أمها الذي تتبعها رنينه من الدور الثامن حتى مدخل العمارة:

"يا فاضحانا، يا خايبة الرجا يا فاشلة يا اللي استحليتي الخروج بالبيجامة والشبشب في انصاص الليالي!"

ثم لمحته: خبر صغير منزوٍ أسفل صفحة داخلية، زاخر بالأخطاء الإملائية والمطبعية - شأنه شأن كل أخبار هذه الجريدة. ولكنه على الأقل يحمل العنوان الذي أملته لمياء على الصحفي:

"الإعلامية فكرة علم الدين مخاوية. زار أسبوعي في قصرها بالزمالك"

وأخيرًا!

قفزت لمياء فرحًا ونفحت البائع خمسة جنيهات كاملة ثم انتابها الندم على الفور كعادتها كلما تهورت ففعلت خيرًا. لكن الامتنان لم يعرف طريقه لوجهه، بل طالعها مشمئزًا وقال:

"الجرايد غليت تاني، بقت بخمسة ونص!"

تفحصت الجريدة فإذا بما قاله الرجل صحيح. ألقت بالنقود في وجهه وركضت للمنزل وهي تتعثر في الخفّ المتحلل الأوصال الذي ارتدته في عجالة. ومن فرحتها هاتفت المنصوري البجلاتي؛ بل وسمّته "منصوري" كالأيام الخوالي:

"الخبر نزل يا منصوري!!"

"فين طيب؟ أنا مش لاقيه في أي حتة"

"في كورة ومضرب"

"كورة ومضرب؟! هو الجرنال ده لسه بيطلع؟ وبعدين ده جرنال رياضي!"

"مايمنعش يعني! بس الواد ماحطهوش في الصفحة الأولى زي ما وعدني، ولا حتى الأخيرة! ده مدفون في الصفحة السادسة!"

"يا ستي مش فارقة. الجرنال ده قراؤه تلات أنفار والتلاتة شغالين فيه"

"الله!! ما ده اللي ربنا قدرني عليه يا بجلاتي! فين الصحف القومية والمعارضة اللي وعدتني بيها؟! ماحدش فيهم يعني نزّل الخبر! إنت خلاص؟ مابقاش ليك أي فايدة؟!"

"يا بنت الحلال اهدي، أنا فعلا كلمت كام واحد وزي ما توقعت. اللي يقول لي إحنا مابننزلش أخبار مضروبة، واللي يخبطني درس في الصحافة الهادفة، واللي يقول لي افتح جريدة وسميها العفاريت اليوم!"

"مستهيفين الموضوع يعني؟ طب أنا عندي حاجة تانية! فضيحة! فضيحة جنسية لفكرة!!"

"بتتكلمي جد!!! وساكتة؟! احكي لي بسرعة!"

"فكرة على علاقة بمساعدها الشخصي. و.. و.. فيه مأذون عندي بيقول إنه جوّزهم بنفسه!"

"مساعدها مين؟! شيكو؟! جوّزهم إزاي إذا كان شيكو كوفتس؟ إنتي يا بنتي هبلة ولا إيه؟!"

"هو شيكو مسيحي؟! والله بقى ده اللي عندي يا بجلاتي!! ورينا كراماتك انت!!"

" يا بنت الناس أنا في إيه ولا في إيه؟! أنا دايخ على حد يشغلني يا ماما! خدي بالك إنتي مش حاسة بيا نهائي!"

بقبقت الدماء في عروقها وهي تعبر الشارع وصرخت في الهاتف:

"مين اللي يحس بمين؟! الحق عليا اللي لسه عاملة لك سعر وباكلمك!! روح يلا لمراتك تحس بيك وتلحسك! اللي ما شفت منك حاجة! وأنا اللي فاكراك ياما هنا ياما هناك. ومدير تحرير ورئيس تحرير. ورايح الجرنان وجاي من القناة. ياخي اتوكس بلا وكسة يا موكوس!!"

أنهت المكالمة ووقفت في منتصف الطريق تنفخ في سخط. طالعت المشهد المحيط بها بازدراء؛ فقد تحلق المارة يقهقهون، وكبس السائقون أبواق سياراتهم سخرية من فتاة نحيفة الجسم منكوشة الرأس ترتدي منامة عليها ميكي ماوس وخفًّا مقطوعًا وتصرخ ملتاثة. بل إن أمًّا قريبة جذبت يد صغيرها وهرولت مبتعدة خوفًا أن تكون ممن يخطفون الأطفال. لكن لمياء صرخت في الجميع أن يتركوها لشأنها، وبالفعل تفرق الجمع أو معظمه. وقفت تقرض أظافرها وترتجف من الغضب ثم رفعت الهاتف مجددًا واتصلت بمحفوظ سليمان الذي - ويا للمفاجأة - رد حتى قبل أن يرن الهاتف:

"معاك يا لورد!"

"لورد مين يا أستاذ محفوظ؟! أنا لميا. لميا النجار!"

"مين؟! آه. أصل كان معايا مكالمة والسكة.. المهم اؤمري"

"إزي حضرتك؟"

"اؤمريني!"

"فيه موضوع خطير بخصوص فكرة علم الدين. باختصار فكرة مخاوية. وحفلات الزار عندها كل ليلة والتانية. وبوابين الشارع كلهم يشهدوا!"

"مخاوية؟ غريبة دي!"

"يافندم أنا شفت بعيني ماحدش حكى لي! وبعدين ده خبر متداول في الجرايد كلها!"

"فين ده؟ السكرتيرة لسه مدخلالي تقرير الصحافة. مافيش حاجة من دي خالص"

"لا! نبّه عليها تشوف شغلها!"

"تشوف إيه؟! ده إحنا مسمينها الفلّاية أساسا! منشور فين مثلا؟"

دوّى بجانب لمياء بوق حافلة ميكروباص، أبصرت السائق وزهاء نصف الركاب يلوّحون لها بإشارات بذيئة فلوّحت لهم بما هو أكثر بذاءة وهي تتهته:

"الـ.. الـ.. كذا جريدة! كورة ومضرب مثلا! وطبعا ده محرج جدا للقناة ولحضرتك شخصيا! يا فندم الجن هو اللي بيجيب لفكرة المواد الحصرية اللي بتذيعها دي! ولو مش مصدقني اسأل الشيخ روحاني! تخيل لو الكلام ده وصل للحكومة!"

"آه. هاستأذنك بس موبايلي التاني بيرن. آلو! آلو! أيوه يا صلاح!"

عندما رنّت في أذن لمياء طنطنات انقطاع الاتصال ساورها شك قوي أن سليمان ببساطة أغلق الخط. اتصلت به ثانية فوجدت الخط مشغولًا.

وفي المرة الثالثة وجدت الهاتف مغلقًا.

كل تلك المصائب من تحت رأس الحيزبونة القرشانة. وقد دقّت ساعة القصاص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

39--

وفي وقت متأخر من نفس الليلة تحققت للمنصوري البجلاتي انفراجة كبرى.

كان قد قام بمحاولات كثيرة للقاء محفوظ سليمان. ذهب لمقابلته في مدينة الإنتاج الإعلامي فمنع من الدخول وقيل له إن اسم "المنصوري البجلاتي" شُطب من قوائم الموظفين. زاره في البيت فأعلمته الخادمة بحاجبين آسفين أنه غير موجود؛ خرج مبكرًا ولم يفصح عن وجهته ولا موعد عودته. تأمل البجلاتي ما ظنه إشفاقًا في عينيها فتفاقم إشفاقه على حاله ولم يقل شيئًا وانصرف.

مضى في سبيله مكروبًا لا يدري أي باب بقي ليطرقه. أبصر كرسيًا متآكل السيقان أسفل شجرة؛ مقر بواب أو سمسار أو ما شابههما، فاتخذ طريقه إليه وهوى فوقه غير عابئ بأن يتحطم من أسفله.

في زمن خلى كان الشعراء يجلسون على قارعة الطريق مثله هكذا فينشدون ما تجود به قريحتهم ويلتف الناس من حولهم، لكن المنصوري البجلاتي ليس بشاعر. ما هو إلا إنسان بائس محسود خفيف النجم قليل البخت لا يتركه أحد وشأنه. ها هو قد أضحى في الشارع حرفيًا ولا يعبأ أحد. زوجته تريده صرَّافا آليًا، ولمياء تريده آمرًا ناهيًا، وأهله في البلد يظنونه نجح وصنع اسمًا ومجدًا وحياةً وانتهى الأمر. وهو الذي كان يظن أنه وضع قدميه على الطريق! بل وهو الذي – ويا للسخف، ويا للوقاحة، ويا للحماقة - كان يطمح لأن يصير مذيعًا!

قاوم البكاء بصعوبة وعصر ذهنه من أجل آية قرآنية واحدة. بيت شعر يتيم يفلسف له غدر الزمان ويهوّن عليه مصيبته، لكنه لم يتذكر إلا مطلع أغنية مبتذلة يقول: "حبة فوق.. وحبة تحت".

وعندها رأى بأم عينيه ما طرحه في الفراش يومين: الخادمة وحاجباها الآسفان كانوا يكذبون. محفوظ سليمان كان في البيت! ها هو ذا يخرج من العمارة بلحمه وشحمه وغليونه وحرسه الشخصي!

ولكن الليلة تغير طالعه. فقد تذكر المقهى الذي يسهر فيه محفوظ سليمان أحيانًا، عشة متهالكة في أقاصي طريق الواحات لا يأتيها إلا من يعرف بوجودها سلفًا. يسهر نجوم الإعلام في الفنادق الفخمة المتراصّة على جانبي طريق الواحات، أما نخبة النجوم فيرتادون ذلك الوكر الخفي الذي لا يشي ظاهره الرث بما يقدمه من راحة وخصوصية.

كانت لمياء من عرّفت البجلاتي بذلك المقهى، صحبته يوما إلي هناك وجلسا في أسوأ بقعة، تقريبًا في الخارج؛ فهما مغموران والجلسات مقامات، وكلما ازدادت شهرتك سُمح لك بالتوغل في الداخل أكثر.

أعطته لمياء ليلتها سيجارة حشيش هكذا عيني عينك. أي نعم هو يكره الموبقات، لكنه كان مغرمًا ولهانَ عاشقًا، وعندما تكون عاشقًا ويناولك معشوقك سيجارة حشيش فإنك تحشّش؛ هو قانون الحياة لا قانون البجلاتي.

دخل الآن يقدم ساقًا ويؤخر أخرى، يائسًا واثقًا في سوء طالعه. قرر أن ينتظر ربع ساعة لا غير. لكنه لم يكد يطأ المكان حتى أبصر محفوظ سليمان جالسًا وسط ثلة سُمّار. تسارع نبضه وبالكاد لاحظ

غلامًا يقترب منه ويتفرس في وجهه غير الشهير ليتأكد من لا - شهرته ثم يسأله بصلف أن "يأمر". لكن البجلاتي تخطّاه منصرفًا إلى حيث يجلس المطلوب.

وسواء كان المطلوب في مزاج طيب الليلة بالذات، أو أنه يُكن حقا شيئًا من الود للمنصوري البجلاتي، أو أن ما تكركر به الشيشة بنعومة صنف أفغاني نظيف أمر لا يهم أحدًا وبالتأكيد لا يهم البجلاتي. فالمهم أن سليمان فزّ من فوره فعانق البجلاتي ثم قبّله من هنا ومن هنا. أفسح له مكانًا وطلب له حجر شيشة هو الآخر وأصغى لشكواه كاملة. ولما تحدث رقّم حديثه بكثير من الغمز واللمز والإيماءات ذات المعاني:

"كل اللي بيحصل معاك يا واد يا بجلاتي أنا عارفه. ماتقلقش. إنت بس اركن على جنب اليومين دول لغاية الدنيا ما تهدا. وبعدها مكانك محفوظ. اللي زيك يا بجلاتي دايما مكانهم محفوظ! وهتبقى بصرة. أنا محفوظ. وإنت محفوظ!"

ثم راح يقرقر بالضحك حتي ازرقّ وجهه.

تحت تأثير الطاقة الإيجابية التي غمرت البجلاتي قرر السؤال عن مصير لمياء رغم أنها دنيئة لا تستحق. ربما عرفانًا بأنه وجد سليمان في مكان عرّفته هي عليه.

وكان لسؤاله أثر فعال؛ فقد استأنف محدثه القرقرة والزهزقة وكان قد توقف لتوه، انقطع نَفَسه وانحاش صوته وقبض على صدره ودبدب بقدميه حتى خشي ندماؤه أن يتوقف قلبه. وأخيرا تمالك نفسه فقال بين الشهقات:

"إنت فكرتني بالمهبوشة دي ليه منك لله؟! يا بني انسى الولية دي خالص! دي بتكلمني في جن وعفاريت!! وقال عايزة تشتغل مذيعة. دي ماتنفعش مشاهدة يا راجل!"

بانتهاء السهرة كان قلب البجلاتي قد اطمأن تمامًا، لديه من المدخرات ما سيكفيه حتى يعود إلى حلبة الرقص.

وحتمًا سيعود، فهو راقص مجتهد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

40--

تستغرق المسافة بين الاستوديو وبين غرفة فكرة علم الدين أي شيء من دقيقتي سيرٍ إلى خمس حسب علوّ الحذاء وضيق التنورة، لكنها قطعتها اليوم في نصف ساعة. لم يكن الحذاء شاهقًا لتلك الدرجة ولا كانت الأستاذة ترتدي تنورة أصلًا - بل بنطالًا رماديًا وسترة بيضاء من إبداعات □يرساتشي.

كَمنَ السر في تزاحم فنيي الإضاءة وعمال النظافة من حولها. طلباتهم كثيرة ومأساوية. من يريد شقة في مشروع إسكان لمحدودي الدخل فتح أبوابه وأغلقها قبل أن يرتدّ لمحدودي الدخل طرفهم، ومن يحتاج علاجًا لا يتوافر إلا خارج البلاد، ومن يلزمه شيء بديهي: راتبه الذي تأخر شهورًا.

خطّ بعضهم شكواه وأودعها مظروفًا بل ومنهم من أرفق مستندات تعزز ما يقول. لكن الأغلب الأعم من المطالب كان شفهيًا؛ وكان قرار اللجوء إلى الأستاذة وليد اللحظة، أو بالأحرى وليد الحلقة التي انتهت للتو.

ذلك أن الأستاذة خصصت حلقتها لحل مشكلات الجمهور. وليس المقصود بذلك تلك الحلقات المفبركة ذات المتصلين المأجورين والمقولات القَدَرية المخدِّرة الداعية بالشفاء الراجية صلاح الحال المتمنية على المسؤولين الاستجابة. بل تشهد أطقم الإعداد والإنتاج والإخراج أن الأستاذة حققت على مسمعٍ ومرأىً منهم الإنجازات التالية:

أيمن عبد المعطي إبراهيم. طالب في إعدادي هندسة، عاد لأهله بعد سبعة عشر شهرا من الحبس الاحتياطي على ذمة اشتراكه في مظاهرات.

عبير بكري حسين، صحفية من غير أعضاء النقابة، أفرج عنها بعد حبسها تسعة أشهر، كانت قد ألقي القبض عليها وهي تغطي أعمال شغب.

سبع غارمات سددت الحكومة عنهن ديونهن.

ثلاثة أطفال مرضى أرسلوا للخارج للعلاج على نفقة الدولة.

أخيرًا وصلت الأستاذة غرفتها وأغلق شيكو وراءهما الباب. خلعت حذاءها بلا اكتراث وخواتمها باكتراث وسكبت نقطة سمينة من معقم اليدين وراحت تدعك كفيها إصبعًا إصبعًا رغم أن أحدًا لم يلمسها، فالجميع في القناة بات يعرف أنك كي تخاطب الأستاذة عليك أن تخلّي بينك وبينها حرمًا قطره متران أو أكثر. قال شيكو بصوت متهدج:

"تسلمي يا أستاذة، أنا مش قادر أعبر لك.. مش قادر أوصف.. أنا فخور قوي النهارده إني شغال مع حضرتك! ماتفهمينيش غلط أنا فخور من أول يوم! بس النهارده أنا طاير طير، التليفون كان حريقة! أهلي وجيراني كلهم عندهم طلبات شبه اللي حضرتك سمعتيها النهارده دي!"

ثم أطلق ضحكة خجول وأردف:

"بس أنا طبعا مش هاوجع لك دماغك"

لكن فكرة ردت بعمليتها المعهودة:

"رتب الطلبات حسب الأهمية، اللي تبعك وتبع غيرك، أنا واثقة فيك. أنا مخصصة الأسبوع ده كله للموضوع ده"

"طول الأسبوع؟!"

" دي أولوياتي دلوقتي. وبعدين إحنا محتاجين وقت نحضّر لحلقة كبيرة الأسبوع الجاي"

"آه، الحلقة اللي بدل حلقة فساد الجيش، اللي حضرتك مش عايزة تقولي لي عن إيه لغاية دلوقت!"

"هاقول لك يا شيكو. كله في وقته. بس مش هينفع هنا. الحيطان هنا ليها ودان"

"هو الموضوع خطير كده؟!"

grave.. trés grave.."

أخرجت زجاجة النبيذ من الثلاجة وصبّت كأسًا وأضافت:

"تعالى لي الفيلا بكرة الضهر"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

41--

31 ديسمبر 2035

إذن فقد صار أنه في ظهيرة آخر أيام عام 2035 طرق شيكو باب فيلا فكرة. اقتادته ماريا لغرفة المكتب التي كانت - في عزّ الظهر - شبه مظلمة ؛ فالستائر مسدلة ولا نور سوى ما ينبعث بنعومة عن مصباح جانبي. كانت الأستاذة تنتظره في كرسيها خلف المكتب بوجه شاحب، وجه امرأة لم يغمض لها جفن. وقبل أن تتركهما ماريا تذكرت شيئًا:

"مدام! عمال التكييف جم إمبارح بالليل وحضرتِك في الشغل"

نوم رديء يعني صداعًا وانعدامَ تركيز، آخر ما تحتاجه فكرة والحال هكذا هو فك الأحجيات. أغمضت عينيها وسكتت لعل إلهامًا ما يأتيها فتفهم تلك الجملة/اللغز. ولمّا لم يأت شيء قالت:

"عمّال إيه؟ أنا ما اشتكيتش من التكييف"

"قالوا صيانة مجانية"

عبست فكرة وهي تجاهد لتتذكر، هناك صيانة مجانية دورية بالفعل لكن ألا يحدث ذلك في الصيف؟ أم في الشتاء أيضا؟ هل تكون صيانة المكيفات في العادة سنوية أم نصف سنوية؟! تبًّا لذاكرتها التي لم يعد لها فائدة! صارحت نفسها بأنه من حق إسفنجة دماغها بعد ثمانية وخمسين عامًا من الامتصاص أن تبلغ طاقتها الاستيعابية القصوى.

نبّهت على ماريا ألا تدخل أحدًا البيت في غيابها بعد اليوم وصرفتها. يزعجها ما حدث ولا تفهم السبب، وهو ما يزعجها بدوره أكثر. لكن يجب الآن أن تنحي كل شيء جانبًا، يجب أن تخلي ذهنها. التفتت لشيكو قائلة:

"جاهز؟"

ضغطت جهاز التحكم عن بعد فاستيقظ التليفزيون. للوهلة الأولى أغمض شيكو عينيه من وهج الشمس الذي غمر الشاشة متناقضًا مع ظلمة الغرفة. ثم اتضح المشهد: شخص ما يحمل كاميرا - هاتفًا محمولًا على الأرجح - ويهيم في صحراء ما في عز النهار وهو يلهث. مرت ثلاث دقائق ولم يتغير شيء؛ صحراء بلا معالم تحت سماء بلا غيمة واحدة والكاميرا تدور هنا وهناك. لا يظهر من حاملها سوى ظله الذي يسبقه على الأرض، وأحيانًا بوز حذائه المعفّر.

الرياح قوية تخروش في ميكروفون الهاتف فتندلع انفجارات صوتية صغيرة من آن لآخر. وتُسمع كذلك خطوات المصوّر على الرمل المختلط بالحصى وخطوات آخرين صامتين لا يظهرون في المشهد إلا ظلالًا على الأرض.

ثم لاح بعيدًا سور منخفض مهدّم وبدا أن القافلة تتجه صوبه. ولمّا أدركوه رُفعت الكاميرا فكشفت ما خلفه، عشرات الصناديق ملقاة هكذا كما اتفق وقد اعتلتها الرمال. أسند الرجل ساقًا فوق السور

وانحنى فعدّل صندوقًا مقلوبًا وصوّب عليه العدسة.

وسرعان ما اتضح أي نوع من الصناديق هو، بلاستيكي أبيض نصف شفاف رمادي الغطاء يحوي ربما ألف ورقة مكدسة، وهكذا الحال في بقية الصناديق.

ألصق المصوّر الهاتف بفمه وتمتم بإلحاح:

"تلاتة وعشرين مايو ألفين وتلاتين. تلاتة وعشرين.. مايو.. سنة ألفين وتلاتين"

زعق زاعقٌ:

"يلا بسرعة إنت وهو مافيش وقت. هات الجركن. امسك ولاعة أهيه"

زادت الخروشة ولفّت الكاميرا بجنون فاختلطت السماء بالحذاء بالسور بالصندوق بالصحراء، ثم انقطعت الصورة.

حملق شيكو في الشاشة التي استعادت سوادها ثم استدار للأستاذة وقال مشدوهًا:

"تلاتة وعشرين مايو ألفين وتلاتين؟! دي الانتخابات! انتخابات الرياسة الآخرانية دي على طول!"

لم تقل شيئا وإنما أشارت للتليفزيون، ثانيتان وعادت الصورة: اضطرمت الشاشة بألسنة لهب تلتهم الصناديق التهامًا. اختلط أزيز النيران وهبوب الريح بتصايح الرجال.

وبعد ظهور أخير مقتضب لبوز الحذاء المعفر انتهى التسجيل وأطفأت فكرة التليفزيون وطالعت جمهورها المتألف من فرد وحيد. الذهول المرتسم على محيّاه يستحق صورة تنافس بقوة في مسابقة صورة العام.

مسحت وجهها حتى منابت الشعر وتنهدت قائلة:

"كنت بتقول إيه بقى؟ انتخابات الرياسة آه. الانتخابات المزورة! الشريط ده عندي من خمس سنين، فكرت كتير أحرقه وكل مرة كنت بأجلها، كان قلبي حاسس إني هاحتاج له في يوم! عرفت بقى ليه حلقة الجيش تجاوزتها الأحداث؟ لأني زهقت من البنج اللي باديّه للناس. أي حد يقدر يستلم مؤسسة مؤسسة ويعمل فيها بطل!"

أكملت بصوت يكاد يخرج عن نطاق السيطرة:

"الفساد راكب الأسانسير طالع نازل وكلنا عارفين! بس أنا بقى قررت أتشعبط معاه وأركّب الجمهور كمان! أمال إنت فاكر الواد والبت اللي أفرجوا عنهم امبارح بالليل دول إيه؟ دول أفرجوا عنهم أثناء الحلقة! بمجرد ما قلت أساميهم على الهوا كانت قرارات الإفراج بتتمضي!"

طالعها شيكو بمزيج من الخوف والإثارة وعدم الفهم. واصلت حديثها بعصبية:

"حسوا بالذنب من ناحيتهم مثلا؟! ضميرهم صحي إذ فجأةً؟ أنا بعبقريتي أثبت براءتهم في برنامجي؟ ولا أي حاجة من دي. الموضوع وما فيه إن فيه ناس في البلد دي بتترعش في كراسيها دلوقتي من

فكرة علم الدين واللي هتقوله فكرة علم الدين كل يوم بالليل! وأنا مش هاخيب ظنهم! هاحضّر لهم العفريت اللي هم خايفين منه، بس بعد ما نرجع شوية حقوق لأصحابها".

أحس شيكو أنه هو الذي يرتعش في كرسيه الآن. تحشرج صوته وهو يقول:

"يا أستاذة خلي بالك من نفسك. الناس دي مش سهلة ومش هتسيبك!"

فاجأته بأن انطلقت ضاحكة. ثم هدأت ومسحت عينيها وهزت رأسها يمينًا ويسارًا وهي تتمتم:

mon dieu. mon dieu"

ثم رفعت رأسها ونظرت إليه فأطالت النظرة، كأمٍّ ترمق طفلها الذي تحبّه رغم غبائه. همست:

"هو أنا ماقلتلكش؟! أنا متحصّنة من العدا! ولسه أواني ماجاش!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

42--

قبع خلف مكتبه متصلبًا وحدق في الفراغ الذي يفصله عن محدثه. أطفأ الأخير جهاز التسجيل وسكت منتظرًا القرار؛ ولم يطل انتظاره:

"كفاية عليها كده قوي.. لحد هنا.. وستوب"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

--43

التوت الأعناق وحملقت الأعين واشرأبّ المارة، إذ لا يحدث كل يوم أن تهبط على المنطقة بورش فارهة سوداء وكأنها قطعة أنيقة من الليل. ضاقت الأزقة فأبطأ اليخت العجيب قسرًا واحتشد الناس تاركين شغلهم ولَهْوَهم يتخيلون قبطانه المتواري خلف الزجاج الداكن. أتراه ممثلًا سينمائيًا شهيرًا؟ أم هي فاتنة يسيل لجمالها اللعاب؟ ولما توقفت الدابة أخيرًا فبزغت منها عجوز نحيلة قصيرة الشعر مكرمشة العنق يختفي وجهها وراء نظارة شمسية، راح الفضول. تبدد الجمع إلا من حفنة صبية رمقتهم فكرة بجزع، فقد بدوا من هؤلاء الذين لا يرون سيارة إلا واعتبروا تزيينها بما تيسر من مسامير أو حجارة فرضَ عينٍ.

فتشت عن زجرة ترهبهم دون أن تستفزهم لحد مهاجمتها فأخفقت، وفاقم ترددها الخوف أن يكون أحدهم علم الدين ابن أخيها. ثم هدر من ورائها صوت وتشتت الصبية معتذرين. استدارت فإذا به رياض. يطالعها في ذهول. بادرها:

"إنتي بتعملي إيه هنا؟!"

ارتبكت، فلم يكن قرارها زيارته سهلًا. تلعثمت قليلًا ثم قالت:

"إيه زعلت؟! ممكن أمشي!"

"أبدا! غريبة بس! اتفضلي!"

تقدمها يقود الطريق - إلى أين بالضبط لا يدري! لقد كان جالسًا في أمان الله على كرسيه قبالة الورشة يدخن شيشته ويحتسي شايه ويحتفل في رأسه بمعجزة صغيرة تحققت اليوم عندما شاهد سيارة أخته تقتحم الحارة. أيأمر بجلب كرسي لتنضم إليه؟ غير معقول بالطبع! أيصحبها للشقة بالأعلى حيث انشراح والأولاد؟! بل هذا هو غير المعقول! إنه المستحيل بعينه!

بادرته من خلفه فقالت بنبرتها النشاز المعهودة:

"هي دي الورشة؟ كبيرة يا رياض! وسمعتها كويسة، أنا سألت في الطريق".

سبقته فاجتازت الساحة إلى الداخل، جالت بنظرها يمينًا وشمالًا ولمحت شهادة تخرجه على الجدار. اقتربت ووقفت تقرؤها بتعبير أخفته النظارة. تذكر معجزة اليوم وفجأة فهم كل شيء. قال:

"إنتي اللي كلمتي المهندس جودة عشاني. مش كده؟"

Qui?"

"المهندس جودة، بتاع خشّاب موتورز، وكيل بورش"

" لا أنا كلمت خشاب نفسه!"

اندهش قليلًا ثم تذكر من هي أخته. قال:

"أنا لسه راجع من عندهم ومضيت العقد. هاستلم الشغل من بكرة"

أومأت ولم تقل أي شيء. خلعت نظارتها فشاهد أن عينيها مبتسمتان. سمع نفسه يقول:

"تحبي تطلعي البيت؟"

"أمال أنا خابطة المشوار ده كله ليه؟"

اتجها لمدخل العمارة؛ هو يفكر في رد فعل انشراح، وهي تفكر أن اللحظة التي ظلت ترتعد خوفًا منها تحدث بالفعل.

منذ اجتاحتها الرغبة في رؤية ابني أخيها - بعد أن شاهدت صورهما وعرفت اسميهما - وهي تؤجل التنفيذ. والآن ستقابل الجميع وعلى رأسهم انشراح؛ ابنة المكوجي - أم تراه كان البواب؟ إنها لم تعد حتى تذكر من كان أبوها ولماذا أغضبتها تلك الزيجة حينها! يبدو كل شيء وكأنه حدث في زمن آخر لأناس آخرين. هل استحق الأمر إذن أن يموت أبواها غاضبين على ابنهما؟ وهل كان ثمة مبرر لشعورها هي بالخزي من فعلة أخيها لهذا الحد؟

لكن الشجاعة واتتها أخيرا بعد الرعب الذي تعرضت له أمس ثم اليوم؛ توّلد لديها احتياج ملحّ للشعور بالأمان والتماس الدفء وسط أناس من دمها.

فاليوم فجرًا استيقظت على رنين هاتف المنزل، مرة.. مرتين.. ثلاث.. عشر. يرن ويتوقف ويعود فيرن. قفزت من فراشها وفتحت باب الغرفة ملتاثة بالنوم المبتور، صرخت في الخادمة: "إنتي مابترديش على التليفون ليه؟!" لكن ماريا أتت مهرولة تؤكد أنها لم تسمع شيئًا. عندئذ اندلع الرنين مجددًا فرفعت فكرة السماعة من غرفة نومها. على الخط غريب يكلمها بألفة وكأنهما صديقان. قال:

"ارجعي عن السكة اللي إنتي ماشية فيها. أنا عايز مصلحتك يا فكرة على فكرة!"

ثم أطلق ضحكة صغيرة وأردف:

"حلوة يا فكرة على فكرة دي!"

أكثر ما أفزعها أن صوته كان يبتسم، لم يكن فظًا غليظًا كمحترفي التعذيب في الأفلام المصرية. صوتٌ ذكي لشاب متعلم وابن ناس، رجل لا يجد غضاضة في خلط التهديد بالمزاح.

لم تشر للأمر عندما زارها شيكو ظهرًا، فقد أرعبه الشريط الذي شاهده معها بما فيه الكفاية.

لكن ما حدث بعد انصراف شيكو بقليل غيّر رأيها. فقد دق جرس الباب وفتحت ماريا، رأت فكرة من مقعدها رجلًا رثّ المظهر يسلّم الخادمة مظروفًا وينصرف مسرعًا. فتحته فكرة فوجدت كلمات أربعًا:

"الكلمة أمانة. اتقي الله"

اتصلت من فورها بشيكو. روت له ما حدث وأكّدت أن عليه أن يعرض الشريط الليلة مهما حصل.

"يا أستاذة أنا كده قلقت، إنتي قصدك إن ممكن حاجة تحصل من هنا لغاية بالليل؟! زي إيه؟!"

"يا سيدي ريّحني! قول لي حاضر وخلاص!"

أنهت الاتصال وقررت أن تزور بيت أخيها الآن حالًا.

وها هي الآن. تجلس في غرفة جلوسهم، تجدها متواضعة، فوضوية، غرفة لها تاريخ، رائحتها مزيج من عرق طفولي ونعناع ينبت جنب الشباك وخبز يتخمّر بالداخل في مكان ما.

من السهل تخيل الحياة التي عاشها رياض هنا عبر السنين الماضية. تناهت إلى سمعها أصداء ما شهدته هذه الغرفة من ضحك وبكاء، وخيّل لها أنها تفهم الهزائم والانتصارات.

علمت أن زيارتها تأتي والأسرة على أعتاب حدث جلل، إنهم على وشك الانتقال لمسكن آخر في غضون أسابيع. شعرت بالامتنان لأنها شهدت حقبة هامة قبل أن يُسدل عليها الستار.

نظرت لانشراح وقالت وهي تومئ لأصص الزرع العديدة:

"إنتي عاملة jardin d'herbe في الشقة! أكيد هيصعب عليكي تسيبيها. إحنا بنسيب حتة من روحنا في كل بيت بنعيش فيه"

أذهلت حساسية تعليقها انشراح فلم تجب. لم تكن تتوقع أن تتحلى فكرة علم الدين ببصيرة نافذة أو مشاعر مرهفة، أن تشاطرها ارتباطًا بالأمكنة لا تبوح به لزوجها إلا لمامًا.

جلستا مشدودتين، ترمقان بعضهما بعضًا من طرف العيون. والتقط علم الدين وراوية ذبذبات التوتر من الكبار. يعلمان أن الضيفة هي عمتهما المذيعة الشهيرة، لكن كم تبدو مختلفة في الواقع! تحت المساحيق تخبّئ عيني أبيهما وعظام وجهه.

لا تجيد فكرة الحديث للأطفال. اختارت علم الدين - الأقل طفولة - فوجهت له سلسلة أسئلة رد عليها باقتضاب واحتشام وكأنه في مقابلة عمل.

"في سنة كام يا علم الدين؟"

"رابعة ابتدائي"

"وبتحب المدرسة؟"

"آه"

"عندك صحاب كتير؟"

تحشرج صوته بلا سبب كما يحدث له أحيانًا وهو يجيب أسئلة مدرس مهيب الركن.

"آه"

"نعم؟"

"إحم.. أيوه"

الأمر يتحول بسرعة لتحقيق جنائي أكثر منه مقابلة عمل. آثرت العودة للصمت. تراها أخطأت بالقدوم إلى هنا؟

وعندئذ ظهر موتسارت، جاء يتبختر ووقف وسط الغرفة يطالع الجميع بنظرة الالتباس المعتادة وملأ رياض الصمت بأن انطلق يتحدث عن لا شيء بصوت عالٍ وحركات يد جنونية وضحكات غير مبررة.

قامت انشراح تحضّر الشاي. لا تصدق أن فكرة علم الدين ها هنا في عقر الدار.

المرأة التي كانت مصدر الكثير من تعاسة هذا البيت، الإعلامية المستميتة في الدفاع عن الباطل طبقًا لأخيها ذاته، مهندسة القطيعة وعرّابة الخصام الذي ترك ندوبًا لن تبرأ على روح رياض وشيّع أبويه إلي قبرهما قبل أن يلتئم جرحهما. ها هي انشراح تعد لها الشاي فيما تتبادل تلك الحديث مع الأولاد، ضيفة عادية، عمّة وشقيقة زوج. وتحت قناع الهستيريا الذي ارتداه رياض لم يخفَ على زوجته أنه فرح فخور. بمن؟! بأولاده أمام أخته؟ أم بأخته أمام أولاده؟ وأين يضعها - هي انشراح - ذلك كلّه؟!

عادت بالشاي لتجد أن فكرة أخرجت ألبوم صور وقد تحلق حولها الثلاثة مدهوشين كأنها تؤدي عرضًا سحريًا.

"ده جدكم الله يرحمه. ودي جدتكم راوية. إنت يا علم الدين شبهها جدا، مامّا كان شعرها اسود فاحم زيك كده، وفِضِل اسود فاحم لآخر يوم. ومين ده بقى؟ ده پاپا بتاعكم. رياض الصغيّر. في الصورة دي كان قدك يا راوية. وشبهك جدا كمان! الشعر الفاتح والعينين العسلي، اللي يشوف الصورة دي يقول دي راوية بس قصت شعرها!"

انكب الصغيران على الألبوم وقالت هي بعد أن شربت شيئًا من الشاي:

"اتفرجوا على مهلكم. الألبوم ده هدية صغيرة مني. أستأذن أنا"

نهضت فقال رياض مسددًا لزوجته نظرة ذات معنى:

"رايحة فين؟! اقعدي نتغدا!"

عقّبت انشراح:

"أيوه طبعا أمال إيه. لازم تتغدي معانا"

تنقل علم الدين بنظره بين والديه يستشف حقيقة ما يقولانه بين الكلمات. لم تعجبه هذه النهاية المفاجئة للّقاء المفاجئ لكنه لا يعرف حتى كيف يخاطب عمته! وبلا مناسبة هتفت راوية:

"ماما حامل!"

وجدت انشراح نفسها فجأة محط كل الأعين لا سيما فكرة التي راحت تتفرس فيها وقد ارتسم على وجهها تعبير غريب، انبهار ومفاجأة وربما بذرة فرحة لم تتحول لابتسامة. خيم صمت حرج أطول

من اللازم إلى أن تمتمت فكرة أخيرًا بكلمة التهنئة واستدارت لأخيها فأعادتها بدفء أكبر.

أردفت راوية:

"اقعدي يا طنط شوية!"

"ماعلش يا حبيبتي. المرة الجاية أقعد أكتر. النهارده فيه حلقة مهمة بالليل."

ثم أضافت مخاطبة رياض:

"ضروري تتفرج!"

وجد علم الدين ضالته، أين غاب عن عقله لقب "طنط" الذي يدعو به خالاته؟ صاح:

"يا طنط! هو الحلقة دي هيبقى فيها ناس برضو قاعدين في الـ.. الـ.."

"الاستوديو؟ أيوه يا علم الدين. كل الحلقات فيها جمهور استوديو. ما تيجو الليلة تحضروا معاهم؟! وأنا هاسيب تصاريح بأساميكم على البوابة!"

تقافز علم الدين وراوية فرحًا لكن رياض هز رأسه وغمغم:

"مش هينفع"

"ليه يا بابا!"

"والنبي يا بابا!"

"عايزين نطلع في التليفزيون مع طنط فكرة!"

لكن الرفض كان نهائيًا. سلمت الضيفة على أهل البيت وانصرفت. تعلم أن مجيئها كان ضروريًا وتجهل السبب، وتعلم أنها تود رؤيتهم ثانية وثالثة وبانتظام بعد ذلك للأبد وتجهل إن كانت محل ترحيب. صحبها رياض حتى السيارة وهناك سأل عن موضوع الحلقة.

"انتخابات الرئاسة ألفين وتلاتين. الانتخابات دي كانت مزورة. والريس الحالي مالوش أي شرعية. مالك مصدوم قوي كده ليه؟"

"مش عايزاني أتصدم؟! وإنتي كنتي عارفة وساكتة؟ طب عندك دليل؟"

"عندي وهاعرضه النهارده! وأيوه يا رياض. كنت عارفة وساكتة وقررت أتكلم! شوف. أنا عارفة إنك بتحتقر شغلي وكل اللي عملته السنين اللي فاتت. بس أديني باصلح على قد ما أقدر! أنا هامشي بقى لأن فعلا ورايا تحضير كتير. بس فيه حاجة أخيرة عايزة أقولها لك"

ترددت قليلًا ثم أضافت:

"رياض أنا.. أنا بتجيني تهديدات."

"من مين؟! وبإيه؟"

"تهديدات غامضة. مش بحاجة معينة. بس أنا مرعوبة!"

روت له فحوى مكالمة الفجر ثم فتحت حقيبتها وبحثت عن الخطاب بلا جدوى. لاحظ لأول مرة أن بقعة الكبد على كفها تطابق بقعة الكبد التي ظهرت على كف أبيه في الأشهر الأخيرة قبل ترك رياض للبيت، بقعة بشكل ثمرة الفراولة.

"أكيد وقع مني. أو يمكن نسيته في البيت!"

"يلا بينا حالا على البوليس! افضحيهم!"

تأملته في صمت. لا طاقة لها بأن تجادل إن كان "هم" الذين يقترح فضحهم يختلفون عن "هم" الذين يقترح اللجوء إليهم.

عدلت نظّارتها الشمسية وقالت:

"Ne t'inquiète pas mon petit "

جلست في السيارة وأغلق وراءها الباب ثم أشار بأن تخفض الزجاج وقال:

"كنت عايز أسألك من زمان. إنتي لسه بتشوفي... لسه بتطلع لك.. الحاجات اللي كنتي.."

"لا. كان عندك حق. طلعت تهيؤات، بتحصل!"

نظر لها برهة بغير اطمئنان ثم قال:

"فكرة، اعملي لنا التصريح، إحنا هنحضر حلقة النهارده في الاستوديو".

****

اخترقت البورش شوارع القاهرة، وفي غضون دقائق رن هاتف فكرة. استرعتها غرابة الرقم، إنه رقم متصل بالأقمار الصناعية. أجابت في تردد:

"آلو؟"

جاءها الصوت عميقًا هادئًا:

"مدام فكرة، إحنا متابعين شغلك طول الفترة الأخيرة، وشاكرين إنك ساعدتينا نتخلص من مراكز فساد نعترف إننا لاقينا صعوبة في التخلص منها. كنا هنحقق هدفنا أكيد، بس كنا هنحتاج وقت."

دون أن تعي ما تفعل تماما صفت السيارة إلى جانب الطريق وهمست في الهاتف:

"مين اللي...؟!"

"حضرتك أذكى من إنك تتخيلي إن الظرف يسمح أقدم نفسي. تسمحي لي أكمل؟ مش هاعطلك كتير"

"اتـ... اتفضل!"

“يهمنا تعرفي إنك محل تقدير، محل دعم، وجزء من دعمنا ليكي إننا نقول لك إن اللي حضرتك ناوية عليه في حلقة الليلة... الحقيقة، أقول إيه؟ خليني أقول إنه يفتقر للحكمة. فيه طرق تانية أفضل”

“طرق تانية؟ زي إيه مثلا؟”

“قريب جدا هتوصلك مننا دعوة ونتناقش. المهم دلوقتي أنا بابلغك بالنيابة عن ناس كتير زيي في أجهزة الدولة إن الفساد مالوش مكان. مدام فكرة، أرجوكي اعتذري عن حلقة النهارده”

انتهى الاتصال بلا كلمة وداع. شردت فكرة بعض الوقت ثم فتحت هاتفها وكتبت رسالة قصيرة:

“شيكو، بلاش إذاعة التسجيل”

نظرت للشاشة طويلًا ثم غيرت كلمة واحدة وصارت الرسالة:

“شيكو، مهم إذاعة التسجيل”

ضغطت زر الإرسال ومن جديد اخترقت البورش شوارع القاهرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

44--

في تمام التاسعة مساء كان الأربعة يجتازون بوابة مدينة الإنتاج الإعلامي وقد ارتدى علم الدين بدلته التي ظلت مطوية في الخزانة منذ فرح خالته الصغرى وتلألأت راوية في فستان ابتاعته أمه خصيصًا من أجل الليلة. الدنيا كلها لا تسع إثارة الصغيرين، بينما اختبأت إثارة والديهما تحت قناع من الهدوء.

استقبلهم شيكو بوجه ممتقع وارتباك بادٍ. اقتادهم لأربعة مقاعد تتوسط الصف الأول كان قد أمر بتركها شاغرة. ثم مال على رياض وهمس:

"كارثة! الأستاذة مختفية ما اعرفش فين! كلمتني وهي ماشية من عندك العصرية، ملّيتني أساميكوا عشان التصاريح، واتفقت معايا على شوية حاجات في الحلقة وقالت إنها جاية في السكة! ومن ساعتها تليفونها مقفول!"

قفز رياض من مقعده الذي لم يكد يستقر فيه وصاح:

"إنت بتقول إيه؟!"

أخرج هاتفه وأردف وهو يتصل برقم فكرة:

"وإنت عملت إيه؟ بلغت أي حد؟ بلغت البوليس؟"

"لا طبعا بوليس إيه. أكيد هي مش عايزة كده!"

قال رياض:

"مغلق برضو!"

حملق في شيكو وهتف:

"والعمل؟!"

"وطي صوتك يا باشمهندز مش كده!"

تلفت حوله ثم أضاف بنبرة ملحة:

"أنا مش عايز حد هنا يشم خبر. بص حضرتك، الشريط معايا وأنا ناوي أذيعه. الأستاذة أنا ما اعرفش فين، اللي أعرفه ومتأكد منه مليون المية إن هي عايزة الشريط ده يتذاع الليلة دي. هي أكدت عليا عشرين مرة في التليفون".

قالها واستدار مبتعدا فهمس رياض لزوجته في عجالة بما بلغه للتو ولهث وراء شيكو حتى أدركه. قال:

"يا بني إنت كلمني هنا! شريط إيه ونيلة إيه. أنا في فكرة دلوقتي! هي فين؟!"

التفت إليه شيكو وقال بعينين خائفتين:

"ما أنا زيك ميت من الرعب عليها. بس أنا عندي هوا دلوقتي ولازم أشوف حل في المصيبة دي!"

همّ رياض يتحدث من جديد لكن شيكو هرول صوب الجاليري. أبصر مساعد المخرج في انتظاره لدى الباب وقد أصيب بنذر انهيار عصبي، فألصق شيكو الهاتف المحمول بأذنه وتظاهر بالانهماك في الحديث مع الأستاذة.

دخل شيكو وحاول رياض اللحاق به إلا أن عامل الأمن منعه وأغلق الباب في وجهه.

وقف بالخارج مضطربًا يتصل برقم فكرة محاولًا أن ينسى ما قالته عن تلقيها تهديدات. وفي رأسه همس هامسٌ: لن ترد. أنت تعلم أنها لن ترد.

وفي الجاليري صرخ المخرج بمجرد أن وقعت عيناه على شيكو:

"إنت فين يخرب بيتك يا شيكو والأستاذة فين؟! فاضل أربع دقايق!!"

أجابه شيكو بصوت يُسمع الجميع:

"تلات دقايق والأستاذة تبقى في الاستوديو. هي معايا أهيه على التليفون. وصلت عند ميدان جهينة، ماتخافش إنت في الأمان"

"إزاي؟!! والميكب؟!! والكوافير؟!!"

"هي جاية جاهزة من بيتها ومش أول مرة تعملها على فكرة. أنا عارف شغلي كويس يا حبيبي! ركّز في شغلك إنت بقى!"

ضم المخرج كفيه على بطنه بعصبية بادية وقال:

"يعني أهبب إيه أنا دلوقتي؟؟"

"هتنزل بالتيتر عادي، وهتخش على طول على الشريط اللي اديتهولك من غير مقدمة الأستاذة، إيه مبرق لي كده ليه إنت هتتحول ولا إيه؟ بدايتنا هتكون مختلفة سيكا ماجراش حاجة يعني!"

صاح مساعد الإخراج:

"دقيقتين ونص!"

هرول المخرج فجلس مكانه وشرع ينبح بالتعليمات. ولما بدأ مساعد الإخراج في العد التنازلي الأخير رمق المخرج شيكو بغيظٍ قائلا:

"أنا لو اترفدت الليلة دي تبقى تتشاهد على روحك"

على سبيل الرد وضع شيكو الهاتف المحمول على أذنه كأنه تلقى اتصالًا للتو وهتف:

"أيوه يا أستاذة؟ حضرتك على البوابة؟ يا رجالة! دقيقة وتبقى الأستاذة هنا!"

وفي الاستوديو قبعت انشراح بجوار طفليها جزعة لا حيلة لها، بينما ظل مقعد رياض شاغرًا. انطلق صوت جهوري يهتف:

عشرة.. تسعة.. تمانية..

وبلغت إثارة الصغيرين مداها. أتاها مدير الاستوديو قبل الهواء بلحظات يسأل مذعورًا:

"فين الأستاذ اللي كان قاعد جنبك هنا؟؟ راح فين؟؟!"

حاولت أن تشرح لكنه لم يسمع، جذب متفرجًا آخر من ياقة معطفه بكلتا يديه وألقى به في المقعد الشاغر، إذ يستحيل السماح بفجوة كهذه في قلب الكادر.

انتهى تيتر البرنامج وصاح المخرج متأخرًا:

"مافيش حركة كاميرا في الاستوديو!! ماتقطعش على الاستوديو يا بني آدم مافيش مذيعة قاعدة!!"

لكن المساعد كان قد قطع بالفعل بحكم العادة، لم تستغرق اللقطة أكثر من ثلاث ثوان ظهر فيها كرسي المذيعة خاويًا ثم مدرّج الجمهور وفي مقدمته راوية وعلم الدين يلوحان للكاميرا بجنون.

قال المخرج:

"مافيش مقدمة مذيعة. شغل الشريط على طول"

ثم عقّب:

"يعني مافيش مذيعة. وعيال كمان وسط الجمهور؟ ده إيه الحلاوة دي؟!"

بدأت إذاعة الشريط، المصور اللاهث الهائم على وجهه في صحراء بلا معالم. صاح صحفي من فريق الإعداد مخاطبًا شيكو:

"أكتب إنفو إيه على المادة دي يا ريس؟"

اقترب منه شيكو وأملاه في أذنه:

"انفراد، نقطتين فوق بعض، تسجيل يظهر حرق صناديق انتخابات رئاسة 2030"

ثم أردف:

"الأستاذة بنفسها اللي حاطة الإنفو ده. وبتقول لك يفضل ثابت على الشاشة مايتغيرش"

أومأ الصحفي برأسه بينما صرخ المخرج:

"فاضل في أم التسجيل ده تلات دقايق!! هنعمل إيه لما يخلص يا شيكو الله يخرب بيتك!!"

لكن الأخير وضع الهاتف على أذنه مجددًا ورد في هدوء:

"لما يخلص هتعيده هو نفسه من أوله باك تو باك! اهدا يا عم الأستاذة وصلت تحت، أنا نازل أشيل لها الشنطة!"

ثم خرج من المبنى واستقل سيارته وولّى هاربًا. تأرجحت العذراء الصغيرة المتدلية من مرآته بجنون وهو ينهب طريق الواحات إلى حيث لا يعلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

--45

7 يناير 2036

مرت ستّة أيام على اختفاء فكرة وسكنت العذراء الصغيرة تمامًا كأنها لم تتأرجح من قبل قط، وعادت البدلة الصغيرة ترقد في خزانة علم الدين كأنها لم تفارقها قط. وفي الثالثة من صباح اليوم السابع عاد رياض لبيته قانطًا مهزومًا خائر القوى فوجد زوجته سهرانة تنتظره كالمعتاد. لم يلحظها وهي تسرع فتطفئ التليفزيون قبل أن يدخل، ولم يقرأ الالتباس المرتسم على ملامحها. أو لعله قرأه خطأً؛ ظنها تشاطره الجزع على فكرة. هوى على الأريكة بجوارها وألقى برأسه على فخذيها. غطّى وجهه بساعده فخرج صوته مكمما:

"مش لاقي لها أثر في الشاليه، ولا في الفيلا، ولا في الأقسام والمستشفيات.. حتى.. حتى المشرحة سألت فيها"

رمقته زوجته بشفقة وذهول وقالت:

"يعني اتبخرت؟ أكيد حد شافها!"

"إحنا آخر حد شافها. مارجعتش بعدها البيت ولا راحت القناة. أنا اتصلت بكل الأرقام اللي في أجندة تليفوناتها"

"والمساعد؟"

"مرمي في الحبس"

تضاعف الذهول في عينيها فأوضح:

"مقبوض عليه من يومها بتهمة محاولة قلب نظام الحكم"

ترددت قليلًا ثم استجمعت شجاعتها وقالت:

"والمطار؟"

لف وجهه نحوها غير مصدق ما سمع ثم اعتدل جالسًا ليرى تعبير عينيها. جثم متصلبًا وحدق فيها بحدة فأردفت بإصرار وهي تشير للتليفزيون المطفأ:

"حتى لو مش مصدقهم. لازم تسأل في المطار!"

لم ينبس بحرف. قام في وجوم قذف في جوفها بالرعب فدخل غرفته. وفورًا فار داخلها الندم. تشاغلت بنباتاتها، تسقي وتقلّم وتنقل الأصص إلى حيث تدركها أولى خطوط الضوء الذي أوشك يولد، لكنها لم تقدر أن تفرّ من خيبة الأمل في عيني رياض، خامرها يقين أنه لن يغفر لها شكها أبدًا. ستظل كلماتها ترن في أذنه دائمًا، وستحول بينهما كحاجز منيع إلى أبد الآبدين.

"لازم تسأل في المطار!"

تلمّح إذن بأن فكرة هربت. تتفق يعني مع ما يرددونه في التليفزيون بحقها ليل نهار. لن ينفعها الاعتذار الآن لكن ماذا تملك غيره. وجدت رياض في الفراش نائمًا أو يتظاهر بالنوم.

أغلقت باب غرفته ورجعت على أطراف أصابعها ففتحت التليفزيون على أدنى صوت ممكن. الحقيقة أن انشراح في حيرة من أمرها؛ لا تدري أين الحقيقة. لقد انتفضت الآلة الإعلامية بكل عنفوانها منذ اللحظة الأولى ضد ما دعوه "محاولة فكرة علم الدين لقلب نظام الحكم" و - تلك العبارة الخالدة - "العبث بمقدرات البلاد".

ها هي الآن إعادة البرامج الحوارية في كل القنوات. وها هو ذا: مذيع قناة الشمس ذو البدلة الفاخرة وربطة العنق الحرير يمسح الفراغ بكفيّه ذهابًا وإيابًا ويعلن:

"الأستاذة اللي لا تستحق هذا اللقب بس خلوني أنا الطيب. عملت عملتها وهوب على فرنسا! دبست الطقم الغلبان اللي بيشتغل معاها وكتّت. واللي مش مصدقني آهي الصور: التقطها أسود مخابراتنا ومواطنينا الشرفاء تاني يوم هروبها!"

تعاقبت لقطات لفكرة وهي تبتسم للكاميرا أمام معالم باريس المعروفة؛ تضع يدًا فوق خصرها، تلوّح بعلم مصري وآخر فرنسي، تأكل الآيس كريم.

تحولت انشراح لقناة القمر فإذا بنفس اللقطات تعرض حتى ظنّت أن عطبًا أصاب جهاز التحكم في التليفزيون، لكنها سمعت حينذاك التنهيدة الشهيرة لمذيعة القناة، وعلا الصوت الغاضب واصلًا حد الاشمئزاز:

"حسبي الله ونعم الوكيل. أقول إيه بس؟! ده مافيش حد غرف من خير البلد دي قدك يا شيخة! قبضتي كام عشان تعملي عملتك السودا وتهربي؟ وإنتي مش ناقصة فلوس! لكن الطمع بقى! كذب، نصب، غش، هو ده الإعلام؟ هي دي الأمانة الصحفية يا أستاااااذة فكرة؟"

وفي قناة الإيمان انتفخ عرق في جبهة الشيخ واحمرّ وجهه وتشنجت سبّابته وهو يهتف:

"الكذب حرام، والخروج عن ولي الأمر حرام، وإذكاء الفتن حراااامٌ حرامٌ حرام!"

لم تعد انشراح تعرف ماذا تصدق، هل فرّت فكرة كما يقولون؟ هل تلقت تمويلًا أجنبيًا لإشاعة الفوضى بمصر؟

أم أنها تقبع الآن في زنزانة لا عنوان لها تتلمس نسمة هواء أو خيط نور؟

أم.. الأسوأ؟

يقتلها عجزها عن أن تتبنى تلقائيًا يقين زوجها ببراءة فكرة ونبل دوافعها. ألم يسقها بيده بغض فكرة وما تمثله فكرة عبر سنوات، لِمَ يتوقع منها الآن تصديقها؟ قد تكون دماؤه حنّت، لكن دماءه ودماء شقيقته لا تسري في عروق انشراح.

أيقظت الطفلين وأوصلتهما للمدرسة وعادت تمنّي نفسها بشيء من النوم يغيثها من التفكير. تمددت فوق سرير راوية وراحت تتأمل عبر الزجاج غسيلها المنشور. يهيأ لانشراح أن تأمل الثياب المبللة المتراصّة بانتظام كفيل بإصلاح كل شيء. تتلألأ الآن في الضوء منامة راوية البيضاء. وتتمايل في نسيم الصباح الباكر مريلة المطبخ؛ كم هو مبهر أنه الآن - بينما انشراح تنظر - تتبخر روائح البصل والثوم والسمك فتعود المريلة عطرة يابسة الملمس نصف مكوية بحرارة الشمس. تخف وتيرة هطول القطرات من الثياب إلى البلاط شيئًا فشيئًا، وتتضاءل بالتدريج بِركات الماء المتجمع على الأرض حتى تتلاشى. الشرود مع الغسيل هدية الله لانشراح: دواء مجاني، وصفة سحرية. إذا انقلب العالم من حول انشراح رأسًا على عقب فما عليها إلا أن تقوم فتنشر الملابس المغسولة ثم تقف وتملأ رئتيها بعبق النظافة المتصاعد كي تغمرها السكينة ويطمئنها اليقين بأنه لا داعي للقلق طالما هناك غسيل يجفّ في الشرفة، طالما ثيابها وثياب رياض وعلم الدين وراوية تتجاور فوق الحبل، تتهامس أنسجتها مستأنفة حديثًا بترته ضغوط الحياة وتتوصل فيما بينها لحلول لكل المشكلات؛ كل مشكلة ولها غسيل.

وأخيرا أثقل النعاس جفونها، لكن بمجرد أن غفت شرع هاتف رياض يرنّ بجنون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

46--

في البداية قررت تجاهله؛ فهو على الأغلب صحفي آخر يطلب حوارًا مع رياض وهو ما يرفضه زوجها منذ اليوم الأول. لكن خاطرًا جعلها تهب قافزة. ماذا لو أن فكرة قد ظهرت؟ ماذا لو أنها فرصتها كي توقظ زوجها بخبر سار؟

عبر الهاتف جاءها صوت أنثوي جاد قائلا:

"أنا المحامية هدى نصار رئيسة جمعية (حق) للدفاع عن النشطاء السياسيين. ده تليفون الأستاذ رياض علم الدين؟"

هدى نصار. سمعت انشراح هذا الاسم من قبل. كانت هدفًا لهجوم شرس شنته فكرة علم الدين وآخرون قبل عامين أو ثلاثة، اتهمتها فكرة على مدى سلسلة حلقات بجملة مصائب من تلقي تمويل أجنبي لسوء السمعة الأخلاقية. ما الذي تريده هذه هي الأخرى؟ الشماتة؟

"أنا المدام. تحبي أوصل له رسالة؟"

"يا ريت تقولي له إن الجمعية عايزة تساعده. إحنا طبعا مش مصدقين ولا حرف من اللي بيروّجوا له عن هروب أخته"

وكأن شحنة كهرباء ضربت انشراح فجأة. قالت برجاء:

"فعلا؟"

"أكيد! بغض النظر عن التاريخ الإسود للإعلام، أولًا الصور متاخدة في الصيف. والبنات في الخلفية لابسين شورتات وبكيني، والأستاذة شعرها طويل و - سوري يعني - أصغر سنا. وبعدين دي بتضحك للكاميرا، يعني لا طفشانة ولا اتصورت على سهوة. الصور دي حاجة من اتنين، يا قديمة يا متركبة!"

لم تكن انشراح تدرك مدى احتياجها لسماع دفاع عن فكرة من شخص غير رياض حتى سمعته الآن من فم هذه الغريبة، بل من فم ضحية سابقة لفكرة علم الدين. قالت:

"كلامك ريح قلبي."

أحرجها ما تفوهت به فأعقبت في عجالة:

"أقصد يعني إني كنت خايفة على جوزي وولادي! على صورة عمتهم لتتهز في عينيهم! متشكرة! متشكرة جدا!"

"دي ألاعيب إحنا حافظينها صم. عشان كده لازم جوز حضرتك يكلمني! مش قادرة أشرح لك اللي عملته الأستاذة في آخر كام حلقة وبالذات في الحلقة الأخيرة كان له أثر في الشارع إزاي. الأستاذة

فكرة دي بطلة دلوقتي! ولا أستبعد إن المظاهرات تتحول لثورة بفضلها. أكيد حضرتك متابعة المظاهرات طبعا!"

"مظاهرات إيه؟! أنا فاتحة التليفزيون على طول، مافيش حاجة من دي"

"يبقى أكيد بتتفرجي على قنواتنا وبس! ضروري تدوري على القنوات الأمريكية والفرنسية. ده مافيش محافظة مافيهاش مظاهرات"

وبانتهاء المكالمة قامت انشراح ففتحت التليفزيون. تنقلت في قائمة القنوات الأجنبية التي لا يشاهدها سوى رياض فلم تجد سوى الرياضة والمنوعات. وعندئذ دق جرس الباب وقام رياض في نفس اللحظة تقريبا. لقد جاء أبوها وأخوها يتفقدان حالها وزوجها، ويعلنان أنهما عادا أدراجهما دون التمكن من قضاء مشوار عمل بسبب قلق يجتاح البلد.

على القناة الفرنسية بدأت نشرة الأخبار وظهرت مذيعة ترطن بما لم تفهم منه انشراح سوى كلمة "إيجبت". حث الثلاثة رياض أن يترجم فقال:

"مؤشرات على التلاعب في نتيجة الانتخابات الرئاسية في مصر. شرعية الرئيس على المحك. غضب في الشارع. مخاوف بشأن مصير إعلامية مصرية"

يتحدث رياض وتتحدث المذيعة وتتعاقب الصور للرئيس ولفكرة ولصناديق انتخابات تحترق ولمظاهرات ترفع لافتات لفكرة وأخرى للرئيس وفوق وجهه "إكس" سوداء. فوضى عارمة. تلقّفت أذنا انشراح هتافًا بالعربية كشعاع نور وسط العتمة:

"الحقيقة فين!! الحقيقة فين!!"

تساءل أخوها عن عبارة ثابتة أسفل الشاشة بالأحمر القاني فتنهد رياض وترجمها قائلًا:

"مصر على حافة بركان"

وجهه جامد متماسك، لكن انشراح تعرف أنه لولا الزائران لذرف دموعه، بل لولا غضبه منها لبكى في حضنها. ظل أقاربها يروحون ويجيؤون طوال اليوم، وفي المساء عندما زارهم وفد من الجمعيات الحقوقية تقوده هدى نصار أنصت لهم رياض يسوقون الحجة وراء الحجة على ضرورة ظهوره في الإعلام ليدافع عن أخته. لكنه تمسك برفضه قائلًا:

"طول عمري مقاطع جنس الإعلاميين في البلد دي، ما اطيقش أتفرج على واحد فيهم خمس دقايق على بعض. عايزيني أشارك بنفسي كمان؟! ده ضد كل مبادئي! وبعدين أنا مش معني بتبييض صفحة فكرة. كل واحد يقتنع بالرواية اللي مريحاه!"

سدد نظرة خاطفة انشراح - أو هُيئ لها ذلك - فسقط قلبها في قدميها. أضاف:

"أنا مش معني غير إني ألاقي أختي. أنا متأكد إنها عندهم لكن..."

أطرق فاشتعل وهج المصباح في غرّته. وجهه غير حليق وكاهله محنيّ ينوء بهمٍّ غير مرئي. أعقب بصوت خافت:

".لكن عايز أعرف عايشة ولا ميتة!"

قطع حديثهم ظهور وجه فكرة ملء الشاشة على قناة الشمس. ثم جاء صوت من عرّفت نفسها قائلة:

"عبير ماجد. معدة في برنامج والله فكرة. هاقول اللي أعرفه. أنا ماحيلتيش غير أمانتي!"

ابتسم المذيع في سماحة ورحابة صدر. مر بيده على ربطة عنقه الحرير وقال:

"وإحنا مش عايزين غير اللي تعرفيه يا عبير. وبنحييكي على أمانتك!"

"أستاذة فكرة كانت بتتكلم فرنساوي كتير وبتسمع أغاني أجنبية، وغرفتها في القناة كانت مليانة رموز ماسونية وتماثيل كده زي ما تكون أصنام. وكانت - أستغفر الله العظيم - بتشرب خمرة وسجاير"

ثار رياض صائحًا:

"اتفضلوا! آدي عينة من الجهل اللي عايزيني أطلع أشارك فيه!"

لكن هدى نصار قابلته صياحًا بصياح:

"حملة شيطنة فكرة علم الدين ماشية كويس جدًا والكلام اللي إحنا بنسمعه دلوقتي ده بيأثر في شريحة ضخمة من مجتمعنا. ده أدعى إنك ترد!"

تأمل رياض زوجته ولم يقل شيئًا. نهضت انشراح وناولته الهاتف قائلة:

"لو مُشاهد واحد بس غير رأيه بسبب كلامك تبقى إنت الكسبان!"

أطلق زفرة باترة وجذب الهاتف من يدها بحدة. سرعان ما عثر على رقم معد البرنامج والذي سبق أن اتصل برياض عشرات المرات. وفي خلال دقيقتين شاهدوا المذيع يكبس السماعة على أذنه بأصبع ويصيح:

"أعزاءنا المشاهدين بيبلغوني دلوقتي إن شقيق الأستاذة فكرة. الأستاذ رياض علم الدين معايا دلوقتي عبر الهاتف. مساء الخير يا أستاذ رياض!"

"مساء النور"

"إيه يا راجل. حاولنا نتصل بيك كتير ونديك فرصة معانا. احكي لنا كده بقى وفهمنا!"

"اللي حصل إن أختي الإعلامية فكرة علم الدين اختفت في ظروف غامضة جدا. وأنا بلّغت باختفائها بمحضر رقم 9899 بتاريخ 31 ديسمبر 2035. يومها بعد الضهر جات زارتني وقالت إنها هتثبت في برنامجها تزوير انتخابات الرئاسة بتاعت 2030، وقالت كمان إنها مرعوبة لأنها بتتعرض لتهديدات"

"من مين؟!"

"مفروض الداخلية تجاوبك وتجاوبني!"

"فيه أي أدلة مادية على التهديدات دي؟ خطابات مثلا أو شهود؟"

"حتى لو مافيش أدلة مادية، أنا للآن ما اعرفش طريق أختي!"

"بس الأستاذة في فرنسا! والصور معانا آهيه"

تتابعت الصور إياها على الشاشة وهتف رياض منفعلًا:

" فكرة مش في فرنسا! فكرة مرمية في السجن بقالها أسبوع! الصور دي قديمة. هو ده برضو منظر باريس في عز الشتا اللي إحنا فيه؟"

أطلق المذيع ابتسامته المتسامحة وقال:

"يا عزيزي وأنا أعرف منين منظر باريس في الشتا ولا في الصيف؟ أنا مصري حتى النخاع! لو عديت من قصاد المطار بالعربية أعيا! أنا راجل وش فقر ماينفعنيش غير بلدنا دي بترابها وزحمتها. باريس دي سيبناها لولاد الذوات اللي زيكم!"

لاحظت انشراح نظرات الاشمئزاز التي تبادلتها هدى نصار والآخرون. صاح المذيع:

"طيب يا أستاذ رياض أرجو توسع صدرك معايا شوية بس وتجاوبني على السؤال المهم ده. فيه كلام إن الأستاذة كانت بتتعالج نفسيًا وبيتهيأ لها إن اللي حواليها متربصين بيها. بس قبل ما أسمع تأكيد أو نفي منك آخد اتصال. آلو مين؟"

"أيوه يا فندم! أنا اسمي مدام جيهان، مصرية مقيمة في باريس من عشر سنين. الأستاذة فكرة وصلت من أسبوع وأجّرت شقة في عمارتنا. والجالية المصرية كلها تشهد!"

جحظت عينا المذيع وقال ماطًّا الكلمة الأخيرة بمبالغة ممجوجة:

"إزاي الحال بقى يا أستاذ رياض؟"

لكن الأخير في ذروة سخطه أنهى الاتصال. سمع - وسمعوا - المذيع يزعق:

"ده طفش زي أخته! الظاهر الهروب ده حاجة عندهم في العيلة! أنا للأمانة مصدوم في النجمة اللي كانت ملء السمع والبصر، ياما دعمتها الدولة في كشفها للفساد، وياما ساعدتها الحكومة في حل مشاكل الناس لغاية ما رجع برنامجها نمرة واحد وبقينا بصراحة غيرانين! غيرة مهنية شريفة، بس كنا مبسوطين برضو. المهم إن الناس مشاكلها تتحل على إيدين أي حد! وبعد كل ده ترد حضرتها الجميل إزاي؟! تذيع شريط مشبوه واضح لأي عيّل في اللفة إنه متفبرك، عايزة تقول إن الريس بتاعنا مزوَّر. ومزوِّر!! اختفاءها وظهورها تاني يوم في فرنسا يؤكد إنها قبلت تكون تِرس في مؤامرة على البلد. أعزائي المشاهدين. فوقوا!"

تلفّت رياض يمينًا ويسارًا ولما لم يبصر جهاز التحكم قام فجذب سلك التليفزيون من مقبس الجدار وعاد الهدوء من جديد. شحن ثورته في كلمة واحدة صوّبها كالطلقة لهدى نصار:

"وبعدين؟!"

"حضرتك سيب لنا الملف كله، إنت كده عملت اللي عليك. على الأقل دلوقتي اللي عايز يكتب خبر أمين هيضمّنه تصريحاتك! فيه جهات دولية بتهتم بالحالات دي وإحنا بنتابع معاهم بالفعل، لكن..."

تنقّلت بنظرها من رياض لانشراح وأردفت في أسف:

"لكن ضروري تتوقعوا الأسوأ. يجوز الأستاذة ماتظهرش تاني أبدا".

صمتت برهة كي يستقر ما قالته في عقليهما بينما حملق فيها الاثنان بذهول، ثم أضافت:

"الحياة بتستمر مهما حصل"

****

سيأخذ المرء منا ذلك النفس التالي، سيكبر الصغير ويشيخ النَّجم ويزورنا الغائبون في المنام، سيبقى الخير والشر في صحراء غرب القاهرة وشرقها، وسيظل المذياع على السور، والپورش السوداء مهجورة، والأنامل ملتهبة والأظافر ممزقة، والثعبان الفضي يسري من الغليون، والشفتان تتلويّان بمرارة الاسبريسو. ستبقى ذكرى بقعة الدم في البلاتوه.

قد يسكن الليل ذبذبات الخير والشر في المليون كيلومتر مربّع لكنها لن تموت.

فكلها أفكار، والفكرة لا تموت.

(تمت)

ما بعد التتمة

(1)

31 ديسمبر 2036

آخر أيام 2036، والشجرة العجوز أضحت فروعًا عارية تنقر نافذة الطابق الأول من خشّاب موتورز، النافذة التي يجلس جوارها رياض. فتح جهاز الكومبيوتر ورأسًا توسط الشاشة إخطار بإيميل جديد عنوانه:

Promotion

نقره بإصبع مرتعش، هل يعقل أن يكون قد نالها؟! هما سطران لكنه استغرق الأبد في قراءتهما. عيناه تفتشان وسط الديباجة عن الكلمة المفتاح الحبلى بالمراد؛ تريدان القفز إليها فتتجاوزانها نزولًا وصعودًا وتستغرقان ضعف الوقت وأكثر.

وأخيرا فهم المكتوب: لقد نال الترقية التي تقدم إليها الشهر الماضي وأصبح هو، رياض علم الدين، حامل شهادة البكالوريوس في الاقتصاد من بريطانيا، صاحب ومدير ورشة الميكانيكا ذهبية السمعة في القاهرة، وشاغل منصب

Teem Service Coordinator

في پورش عبر العام المنصرم - والذي لا يتضمن رغم فخامة المسمى ما هو أكثر من وضع جداول العمل للموظفين - أصبح يحمل لقب Workshop Manager بكل ما يتضمنه هذا اللقب من سطوة ويَسَار.

تذكر نفسه يوم وقف في ورشته كالتائه لا يدري أين ومن هو. انفرج فمه في ابتسامة ووخزت عينيه دموع لم تنهمر وأدرك أنه الآن يدري تمامًا أين ومن هو، أن ما حوله يعنيه، يخصّه، أنه أقرب الآن إلى حقيقته مما كان منذ أمد.

استغرق في صلاة عرفان لفكرة إن كانت حية ورحمة إن لم تكن. وعندئذ انفتح باب مكتبه على مصراعيه وولج المهندس جودة مصحوبًا برهط من زملاء رياض. بادره جودة بوجه يشع بِشْرًا:

"ها؟ قريت الإيميل؟"

ثم مال عليه وهمس:

"أنا راهنت عليك من أول يوم! قلت رياض ده مش مجرد واحد اتعين بواسطة! وهيوصل!"

وما كاد الجمع البهيج ينفض حتى رن هاتف رياض برقم محامي فكرة الذي يتصل به من حين لآخر كلما طرأ ما يستدعي. لديه اليوم خبر مهم ويريد أن يبلغه لرياض وجهًا لوجه.

حادث رياض انشراح يعلمها بالترقية وبأنه سيمر على المحامي بعد العمل ثم يحتفل معها ومع الأولاد مساء؛ بالترقية وبرأس السنة في يوم واحد! وقبل أن ينهي المكالمة طلب طلبه المعتاد: أن تضع

انشراح السماعة على أذن فكرة. وفي ثوان تبدلت شخصيته فراح يطلق أصواتًا غريبة ويدعو الله ألا يسمعه أحد:

"انتيكميلةواللهيحبيبةباباحلوةانتيياختي."

إلى أن استعادت انشراح السماعة مجددًا محتجةً على هذا الطقس اليومي الذي يؤخر عودته للبيت.

ولاحقًا - في مكتب المحامي - أصغى بينما الرجل يخرج مظروفًا من درج مكتبه ويقول:

"التوصيف القانوني لأخت حضرتك لسه ما اتغيرش: مفقودة. يعني لا متوفاة، ولا معتقلة ولا خارج البلاد، لم يمكن رسميا إثبات أي شيء. أنا اللي يعنيني دلوقتي القانون. والنهارده مرت سنة بالضبط على التاريخ المكتوب على الظرف ده: شوف حضرتك، ده خط الأستاذة"

تناول منه رياض المظروف. رفعه وأخفضه في كفه ووجده خفيفًا لحد أن يبدو فارغًا. قرأ:

"يفتح وينفذ ما فيه قانونًا ويصبح ساريًا بعد عام من تاريخه إذا حصل لي شيء. فكرة علم الدين. بتاريخ 31 ديسمبر 2035"

أردف:

"ده من سنة باليوم!"

عقّب المحامي:

"اللي في الظرف ده اتعمل لمّا الأستاذة عدّت عليا قبل ما تزوركم في البيت، كانت متوترة جدا وقالت إنها لأول مرة هتقابل أسرتك! أنا آسف إني ماجبتش سيرة قبل النهارده بس ده كان طلبها. وحضرتك مقدّر سرية العلاقة بين المحامي وموكله"

فتح رياض المظروف فوجد ورقة واحدة معنونة بكلمة واحدة:

(((مبايعة)))

"إيه ده؟"

"دي مبايعة عملتها الأستاذة بكل ما تملك، فيلا الزمالك، شاليه السخنة، شقتها في فرنسا، المجوهرات، حساباتها جوا وبرا"

"لمين؟!"

"لولادك"

أخذ الورقة من يد رياض وشرع يقرأ:

"واحد، علم الدين رياض علم الدين، اتنين، راوية رياض علم الدين، وأي نسل آخر لأخي. أنا ممكن أضيف دلوقتي اسم مولود حضرتك الآخراني. هو ولد ولا بنت؟"

أجاب رياض أوتوماتيكيًا رغم ذهوله:

"بنت"

"تتربّى في عزك. سميتوها إيه؟"

"فكرة"

حدق المحامي فيه هنيهة ثم كتب الاسم واستأنف القراءة:

"تلاتة، فكرة رياض علم الدين. على أن يكون أخي وصيًا حتى بلوغهم سن الرشد. الموقعة أدناه."

قاطعه رياض:

"يعني إنت بتقول لي إيه دلوقتي؟ إيه اللي بتقوله؟ بتقول لي إن فكرة ماتت؟!"

"أنا ماقلتش كده! أنا فعلا ما اعرفش!"

"طب لو عايشة. عاشت إزاي طول السنة اللي فاتت؟! وهتعيش منين لو المبايعة دي تمت؟!"

"يجوز يكون عندها حساب سري على جنب"

"آسف. مش هاقبل"

"حضرتك تقدر ترجع كل حاجة بمجرد ما الأستاذة تظهر!"

لسبب ما اجتاحت رياض رغبة عارمة في أن يتذكر آخر ما قالته له فكرة. لماذا لم يفكر في هذا من قبل ؟! كيف فاته ذلك؟! تملكه شعور أنه لن يرى خيرًا قط لو أن كلماتها الأخيرة قد تاهت منه للأبد. هاجمه ذعر مفاجئ وأحس أطرافه تتثلج وجبهته تتعرق وأحشاءه تسيل. لكنه لمّا أغمض عينيه تذكّر؛ لم يسمع صوتها المشروخ فحسب بل رآها أيضا، تماثلت أمامه واقفة جوار سيارتها تعدّل نظارتها بكفّها المزدانة بثمرة فراولة وتقول:

"Ne t'inquiète pas mon petit

لا تقلق يا صغيري.

من تبقّى الآن ليخاطبه هكذا؟ ألم يعد هذا الكوكب يحمل أحدًا يناديه "يا صغيري"؟

حقًا؟

لا أحد على الإطلاق؟!

قد يكون في التاسعة والأربعين، لكنه لم يتحرّق لسماعها مثل اليوم! انخرط في بكاء بلا سيطرة واعترى المحامي الحرج؛ كان بودّه أن يهدئ روع الرجل لكن التواصل العاطفي لم يكن يومًا من مناقبه، نهض وترك له المكتب.

وكأن سدًا ارتفع ليريق مخزونًا تراكم عامًا تلو عام وتدفق الآن أنهارًا صاخبة. ظل رياض في مقعده يتأرجح ويترجرج وينتحب، تهزّه الوحشة حتى النخاع، تزلزله وحدة رهيبة وتعصف بروحه حسرة عاتية.

وعندما أضاء هاتفه بغتةً بوجه انشراح قبض عليه بكلتا يديه؛ غريق يتشبث بطوق نجاة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

قبع شيكو في شرفة بيته يطالع اللا شيء، لحيته طويلة كثة، شعره رمادي نسي ملمس الماء؛ سبيكة فضة طمسها الصدأ. انفرج فمه عن أسنان صفراء وهو يقرّب كوب الشاي ثم يرتشف بلا صوت. و فوق سور الشرفة - بجوار أصّيص الصبار - انتصب مذياع صغير تجمد مؤشره على إذاعة "إف إم الزمن الجميل" وراح عمرو دياب يشدو:

".. أنا عايش ومش عايش ومش قادر على بعدك.!"

يوم غائم غابت شمسه حتى لحظته هذه؛ انفرجت السحابات عن شعاع أشعل - على وَهَنه - الفضة فوق رأس شيكو ثم أصاب العذراء القائمة على جدار غرفة الجلوس فتوهّج وجهها الراصد لكل شيء.

وفي الخلفية اندلعت صلصلة مفاتيح ولدمُ أثقالٍ تطرح أرضًا وصرير زنبرك مقعد إثر ارتماء جسدٍ فيه: سيمفونية العودة من المدرسة. شكت الكبرى بتبرم لا تخطئه الأذن:

"هو بابا هيفضل قاعد في البلكونة كده على طول؟"

شفرة صوتها تخبره: مزاجها سيء اليوم. على سبيل الرد غمغمت أمها بما لم يسمعه وامتنّ لذلك. ثم قالت الصغرى بلا مقدمات:

"لما جدو ييجي خليه يحاسب مدرس الإنجليزي بقى يا ماما!"

وهو ما فجّر بركانًا صغيرًا:

"طول عمرك أنانية! جدو واعدني بجزمة بدل الشبشب اللي بقالي أسبوع باروح بيه المدرسة! موتي بقى يا شيخة موتي!! كنا كويسين لغاية ما جيتي!!"

تغيّظ البركان واحتدم بكاءٌ وشجار. وفوق الجدار مارست العذراء الرصد، وفي الشرفة مارس عمرو دياب الشدو:

"ولا عارف في يوم أنسى ولا عايز حبيب بعدك.!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

لفت لمياء غطاء الرأس حول رأسها؛ مرة فاثنتين فثلاث. ضاع وجهها بين ثناياه اللا نهائية وذابت زينتها تحت سخونة طبقات النسيج. ثم ناولت علبة الدبابيس لمن تساعدها وسرعان ما تأوهت صارخة:

"فروتي جك شكة في فروتك!"

"ما أنا مش عارفة أمد إيدي! مش كفاية إننا واقفين في دورة مية ما تساعش بني آدم بطوله! اللي ما عندك أوضة تلبسي فيها زي بقية خلق الله!"

"ما تشديش كده طيب! التقميطة دي بتعمل لي لُغد!"

"ماهي التقميطة دي هي اللي هتخلي شعرك مايبانش على الهوا! مش عاجبك خليهم يجيبوا لك لبيسة بدل ما إنتي مجرجرة أختك وراكي عشان الناس تقول لبيسة لميا راحت لبيسة لميا جات!"

وأخيرا تم المراد ووقفت الشقيقتان وراء بعضهما البعض تلهثان في الحمام الرطب الضيق، أربع أعين مسلطة على انعكاس لمياء في المرآة. تنهدت الأخيرة وقالت: موجهةً الحديث لنفسها:

"آهو يونيفورم مش أكتر! ملكة إنجلترا ساعات بتلبس كده!"

عبر الباب الرفيع سمعتا صوت معد البرنامج:

"هي فين بسلامتها؟ إلهي تكون زهقت ومشيت وأنا جاهز أنزل بإعادة عالم البحار!"

استدارت متلهفة تفتح الباب فأعاقها جسد أختها، مرت لحظات ارتباك بينما كلتاهما تحاول بلوغ المقبض، ثم من خلال متتالية دفع ودفع مضاد وجذب وجذب مضاد تم تفعيل قانون الاحتمالات وانفتح الباب من تلقاء نفسه. انبجست لمياء تصيح:

"أنا آهو يا أستاذ!"

رمقها باحتقار وقال مومئًا برأسه لمن خلفها:

"ومين الأخت؟"

أجابت بثقة:

"دي اللبيسة بتاعتي! آه ما أنا اشترطت عليهم لبيسة في العقد!"

تأملهما ولم يقل شيئا. استدار صوب الاستوديو مسرعًا فهرولت وراءه هاتفةً:

"باقول لحضرتك!"

"انجزي"

أضافت وقد انقطع نفسها:

"إيه رأيك أشارك المشاهدين بتجربتي. أحكي رحلتي من الضلال للهداية. من الجاهلية للإسلام. من التبرج للحجاب. كده يعني!"

كانا عندئذ قد بلغا باب الاستوديو، توقف المعد أسفل اليافطة النيون التي تحمل اسم القناة. احترق اثنان من مصابيح حروفها السبعة منذ أكثر من عام فتحولت (قناة الإيمان) إلى (قناة ليمان) ولم يعد ذلك يلفت نظر أحد. عنّفها قائلًا:

"والنبي ياختي تطلعي من نافوخي. ماحدش مهتم بيكي ولا برحلتك. إنتي تلقفي السؤال من بق المتصل وتباصيه لودن الشيخ. انجزي بقى الله لا يسيئك خلينا نلحق نحتاية في حتة تانية!"

ولما انصرف رفعت لمياء أناملها تلتمس السلوان في طعم الخلايا الميتة ورائحة بتروكماويات الطلاء. راحت تمزق وتمضغ وتبتلع إلى أن وخزتها القروح وذرف الدم. وعندئذ فقط دخلت الاستوديو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(4)

"خمس دقايق على الهوا يا أستاذنا!"

أبعد المنصوري البجلاتي المنشفة من تحت ذقنه وصرف الماكيير. حدق في المرآة قليلًا وتمتم كما أوصته أمه:

"قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد".

أعادها مرتين ثم نهض وفتح الباب، لكنه توقف لحظة ليتأمل أثر التغييرات التي أدخلها على ديكور الغرفة أخيرًا. لقد بات المكان انعكاسًا لصاحبه فعلًا.

فقد انتصبت آية الكرسي حيث كانت لوحة مونيه والمعوّذتان حيث كانت صورة أمنا الغولة. وأزيلت الصور التي جمعتها بزعماء العالم ووضعت مكانها أعين زرقاء وبوسترات للحرمين.

كما طُهّرت الثلاجة من الموبقات ومُلئت بزجاجات ماء زمزم والتمور المحشوة باللوز المصقولة بالعسل المرشوشة بالسمسم؛ كلها هدايا أحباب زاروا بيت الله الحرام. أما أسطوانات الأوبرا والموسيقى الكلاسيكية فتراصت محلها أسطوانات الإنشاد وآي الذكر الحكيم بصوت خيرة القراء المصريين.

ابتسم برضىً ثم أغلق الباب وتوجه للاستوديو حيث جلس في الكرسي مستسلمًا للفنيين الذين راحوا يركبون له السماعة والميكروفون. قال بدلال:

"الإضاءة جامدة بزيادة النهارده. إنتوا عايزين تعموني ولا إيه؟"

فانفجر رجال الجاليري ونساؤه ضاحكين معتذرين داعين له بالنجاة من كل شر والغنيمة من كل بر. ثم صاح مساعد المخرج:

"عشرة! تسعة! تمانية."

سعل البجلاتي ليجلي حلقه وتمتم:

"واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي!"

قال المخرج:

"كيو!"

انطلق البجلاتي متجليا في حالة من الفتوح؛ وقد حُلّت كل عقدة من لسانه:

"مساء الخير وأهلا بيكم في حلقة جديدة من البجلاتي شو. النهارده راس السنة. كل سنة وانتوا طيبين ويارب تكون 2037 خير عليكم جميعًا وعلى أمنا مصر. وبالمناسبة دي عندنا مفاجأة! قناة ستار

أطلقت حملة ضخمة وخدوا بالكم! البجلاتي شو هيكون المنبر الأساسي والوحيد ليها! الحملة برعاية تلات جهات: وزارة الأوقاف ووزارة التربية والتعليم ووزارة الصحة. وعنوانها: معًا من أجل إبادة الشواذ!"

استدار البجلاتي لضيفه، شاب عشريني يرتدي قرطًا وتختفي جبهته وعيناه تحت خصلة شعر تلمع بالچل. بدأ الفتى حديثه بصوت لا يخلو من نعومة فقال:

"أنا كنت مريض، وجلسة واحدة مع شيخ وزارة الأوقاف شفتني"

رفع شعره عن عينيه وجبهته وواصل بصوت أكثر خشونة:

"بفضل الله أنا رجعت راجل من جديد. وعايز أحكي تجربتي عشان كل شاب يتعظ"

ثم خلع القرط وقذفه في أقصى البلاتوه وهو يصيح بنبرة لا نعومة فيها على الإطلاق :

"جميلك في رقبتي ليوم الدين يا أستاذ بجلاتي!"

وبنهاية الحلقة كان البجلاتي راضيًا، لقد أرضى الوزراء الثلاثة مشيدًا أيضا - كعادته أيًا كان الموضوع - بوزير الداخلية؛ صاحب الفضل الأكبر في مداهمة أوكار الرذيلة والشذوذ. لم يعكر صفوه سوى أن الولد أتقن دوره زيادة عن اللازم فسرق الضوء إلى حد كبير. سيأمر بخفض أجره إلى النصف حتى لا يكررها.

تبادل أفراد الإخراج والإنتاج والإعداد التبريكات مع المنصوري البجلاتي، نجمهم الجديد الذي ولد ساطعًا، والدم الجديد الذي ضخ الحيوية في شرايين الإعلام الجافة، والرقم الصعب الذي يتخصص في الشؤون الأمنية والدينية والاجتماعية في آن.

عاد لغرفته عازمًا أن يفي هذه المرة بنذره فيؤدي ركعتي شكر لله بعد الحلقة، النذر الذي لم يفِ به قط حتى الآن. لكنه تلقى حينها اتصالاً من محفوظ سليمان يدعوه للانضمام إليه في ذاك المقهى في طريق الواحات. وقد أردف سليمان بغموض حرّك الجمر في فؤاد البجلاتي بقوله:

"ماتتأخرش يا واد يا بجلاتي. قاعد قدامي حد تقيل قوي في البلد! لو مشي قبل ما تيجي هتضرب نفسك ميت صرمة! ومش هاقول أكتر من كده!"

نسي أمر النذر في لحظتها. سيطمئن نفسه لاحقًا أن ما أنساه إياه إلا الشيطان. نتش جهاز التحكم عن بعد ليطفئ التليفزيون لكن إبهامه البدين كبس بالخطأ زرًا حوّل الشاشة إلى قناة "الإيمان". أبصر مذيعة جديدة ترتدي الحجاب كالأخريات لكن هذه يبدو وجهها مألوفًا؛ هو يعرفها ولا يتذكر من أين. كانت تتكلم بمخارج ألفاظ مرقّقة باصطناع بالغ فتقول:

"فديلة الشيخ أنا اخترت سؤال هام كِدًّا بيشغل ناس كتير. مستفى سالح بيقول يا ترى لو نوى السيام، وبعدين ادان الفَكر ادّن ولسه في بقه أكل. يبلع؟ ولا سوري يعني يتفّ؟"

تقلصت ملامح الشيخ اشمئزازًا وأجاب بضجرٍ باد:

"أما سؤال تافه صحيح!! هي حبكت ياكل لآخر ثانية؟!"

وهنا ظهر اسمها أسفل الشاشة: لمياء النجار. صفع البجلاتي جبهته بقعر كفه وداهمته نوبة قهقهة أحنت ظهره لكنه ما لبث أن تماسك؛ فالوقت من ذهب.

أطفأ التليفزيون والنور وغرقت الغرفة في الظلام. خرج مبتسمًا يهز رأسه يمنة ويسرة وكأنه يسقط عنها ما علق بها من عجب. تقدمه كرشه الهائل وحملته عبر الردهة الخالية خطوته الخفيفة وكأنه لا يزن شيئًا على الاطلاق. ثم عنى له أن يناجي حبيبه فقال:

"مدد يا حبيبي. يا ضياء النفس. يا رجاء الروح مدد!"

أخرج الهاتف من جيبه وكتبها على Linkzone.

****

وخلف الباب الموصد تجسّد في الغرفة السوداء كيان ما - أسود هو الآخر، درجات متفاوتة من السواد والقتامة. ارتفعت أصابع معظمة مكرمشة فأزاحت الرداء عن الوجه.

انكشف - للا أحد - وجه دميم مصمت، لا عينان، ولا أنف، ولا فم. تمطط الوجه حيث ينبغي أن يكون الفم في ابتسامة هي الرعب المطلق. وداخل الرأس انطلق فحيح متحشرج يقول:

"أداؤك مبشر يا بنيّ! استمر! انطلق منحدرًا! وانحدر منطلقًا! هناك أعماق كثيرة لا تعلم عنها شيئًا، ودركات عديدة. لا تتخيل عددها! والقاع لا يزال بعيدًا جدًا، ولكن لا يأس! ما دمت مصرًّا ستصل، وأنا معك؛ ستجدني ها هنا في ظهرك أذلل لكَ الصعاب. مرحبا بأحدث عضو في ناديّ العريق!"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..